



المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي

(الجزء الثالث)

ترجمة وتقديم: د. موسى الحالول
مراجعة: د. إسماعيل صافية

صدر هذا العدد بمناسبة
مرور ٥٠ عاماً على رحيل
الكاتب إرنست همنغواي

يونيو 2011

المجموعة القصصية الكاملة

(الجزء الثالث)

تأليف: إرنست همنغواي

ترجمة وتقديم: د. موسى الحالول

مراجعة: د. إسماعيل صافية

اعتذار واجب

يحرص المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب دائماً على الدقة في مواعيد إصداراته الثقافية بقدر حرصه على تميزها بالرصانة والرقى، اتساقاً مع طموحات القارئ العربي الذي يتطلع إلى أن تصل إليه هذه الإصدارات في مواعيدها المعتادة، منذ انطلاق بواكيرها الأولى، من دون تأخر أو إبطاء، وهو الأمر الذي يمثل مسؤولية جسيمة يصر المجلس الوطني - مختاراً - على أن ينهض بها على خير وجه، إيماناً منا بأن موعد صدور المطبوعة هو لقاء حميم يجمعنا بالقارئ الكريم، وأن من أدب اللقاء أن يكون في مواعده، وألا ينقطع حبل التواصل بيننا مهما كان حجم الصعاب التي تواجهنا، لذلك نرى أن للقارئ الكريم حقاً علينا يتعين أن نؤديه له، وهو واجب الاعتذار عن التأخر الذي اضطررنا إليه اضطراراً، والذي اعتري إصداراتنا منذ عدة شهور، وجعل القارئ يفتقد ما تعودنا فينا من التزام بالموعد وانضباط في تاريخ الصدور.

وإذ نستطيع القارئ الكريم عذراً عن هذا التأخر الذي طرأ على جميع إصداراتنا - لظروف لوجستية خارجة على إرادتنا - لنعرب عن سعادتنا بزوال هذا العارض، وعودتنا إلى استئناف لقاءاتنا المنتظمة بقراء العربية في كل مكان. ونفتنم هذه المناسبة لنجدد العهد بحفظ التواصل، والمحافظة - كدأبنا - على انضباط مواعيد الإصدار، بقدر حرصنا على رصانة المضمون ورقى المحتوى.

الأمين العام للمجلس الوطني

للثقافة والفنون والآداب

• المجموعة القصصية الكاملة

للرئيس همنغواي

العنوان الأصلي:

The Complete Short Stories of: ERNEST HEMINGWAY

Scribner Paperack Fiction

Published by simon & Schuster 1987

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2011م

إبداعات عالمية - العدد 385

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

· (1923 - 1990)

تنويه

نحيط القارئ الكريم بأن هذا الجزء هو الثالث والأخير من
المجموعة القصصية الكاملة للكاتب / إرنست همنغواي.

إن هي إلا رحلة واحدة (١٩٣٤)

أنت تعلم كيف هي الأمور في الصباح الباكر في هافانا حيث لا يزال المتسكعون ينامون ملاصقين لجدران الأبنية، وحتى قبل أن تأتي عربات الجليد لتوزع الجليد على المقاهي؟ على أي حال، عبرنا الساحة من رصيف المرسى إلى مقهى جوهرة سان فرانسيسكو لنتناول القهوة، ولم يكن قد استيقظ سوى شحاذ واحد، وكان يشرب من صنبور للمياه في الساحة. لكن عندما دخلنا المقهى وجدنا ثلاثة منهم في انتظارنا. جلسنا، فأقبل أحدهم نحونا. «حسن»، قال لنا.

«لا أستطيع»، قلت له. «كان بودي لو أستطيع أن أسدي إليك هذا المعروف. لكنني أخبرتك ليلة أمس أنني لا أستطيع.» «بإمكانك أن تطلب السعر الذي تريد.» «ليس خلافنا على السعر. لا أستطيع أن أقوم بالمهمة. هذا كل ما في الأمر.»

جاء الآخرون ووقفوا بجانبنا والحزن باد عليهما. كانت هيتهما تدل على أنهما رجلان طيبان، وكنت أتمنى لو أستطيع أن أسدي إليهما ذلك المعروف.

«ألف عن كل واحد»، قال الذي يتحدث الإنجليزية جيدا. «لا تثقل علي»، قلت له. «أقول لك بصدق إنني لا أستطيع.» «عندما تتغير الأمور لاحقا، ستكتشف قيمة هذا العرض.»

«أعرف ذلك. وأنا معكم قلبا وقالبا، لكنني لا أستطيع».
«لم لا؟»
«لأنني أكسب رزقي من الزورق، وإن فقدته فقدت مورد رزقي».
«تستطيع أن تشتري قارباً جديداً بالمال (الذي تكسبه منا)».
«ليس وأنا في السجن».
لا بد أنهم ظنوا أنني كنت في حاجة إلى إقناع، لذلك ظل هذا الرجل يجادلني بلا هوادة.
«ستكسب ثلاثة آلاف دولار، وستعرف قيمة هذا المبلغ لاحقاً. وكل هذا لن يدوم طويلاً، كما تعلم».
«اسمعوني»، قلت لهم. «لا يهمني من يكون الرئيس في هذه البلاد، لكنني لا أحمل إلى أمريكا أي شيء يتكلم».
«هل تقصد أننا سنتكلم؟» قال الذي لم يتحدث من قبل، وكان غاضباً.
«لقد قلت أي شيء يتكلم».
«هل تظن أننا لنفواس لارغس؟»^(١)
«لا».
«وهل تعرف معنى لنفوا لارغا؟»
«نعم. إنه شخص ذو لسان طويل».
«وهل تعلم ماذا نفعل بهؤلاء؟»
«لا تقسوا علي»، قلت لهم. «لقد سمعت عرضكم، ولم أعدكم بشيء».

(١) «لنفواس لارغس»: عبارة بالإسبانية تعني «السنة طويلة»، أي السنة ثرثرة [المترجم].

«أخرس، يا پانشو»، قال الذي كان يتحدث من قبل للغاضب.
«لقد قال إننا سنتكلم»، قال پانشو.
«اسمعوني»، قلت لهم. «قلت لكم إنني لا أحمل أي شيء يتكلم.
المشروبات المسروقة لا تتكلم. دمجانات المسكرات لا تتكلم. هناك
أشياء أخرى لا تتكلم. أما الرجال فيتكلمون».
«وهل يتكلم الصينيون؟». سألني پانشو، وكان غاضبا غضبا
شديدا.

«نعم، باستطاعتهم أن يتكلموا، لكنني لا أفهمهم»، قلت له.
«إذن، أنت ترفض».
«كما قلت لكم ليلة أمس، لا أستطيع».
«لكنك لن تتكلم؟». سألني پانشو.
الشيء الوحيد الذي لم يفهمه فهما سويا جعله غاضبا. وأظن
أن لخيبة الأمل دورا أيضا. لم أشأ حتى في الرد عليه.
«أنت لست لنفوا لارغا، أليس كذلك؟». سألني وهو يتميز من
الغيظ.

«لا أعتقد ذلك».
«ما هذا؟ تهديد؟».
«اسمعني»، قلت له. «لا تتخاشن في هذا الوقت المبكر من
الصباح. أنا على يقين أنك جززت أعناق كثير من الناس. وأنا لم
أتناول ولو فنجان قهوة بعد».
«إذن، أنت متأكد أنني جززت أعناق الناس؟».
«لا»، قلت له. «ولا يهمني الأمر لا من قريب ولا من بعيد.
ألا يمكنك أن تتعامل معي من غير غضب؟».

«أنا غاضب الآن»، قال لي. «وأود لو أقتلك».
«أوه، بحق الجحيم، لا تسرف في الحديث»، قلت له.
«هيا بنا، يا پانشو»، قال الأول، ثم قال لي: «أنا آسف جدا.
أتمنى لو تأخذنا».

«وأنا آسف أيضا. لكنني لا أستطيع».
اتجه الثلاثة نحو الباب، وراقبتهم وهم يمضون. كانوا شبانا
وسيمين ومتأنقين في لباسهم. لم يكن أي منهم يرتدي قبعة، لكنهم
بدوا كأن عندهم مالا كثيرا. على أي حال، كانوا يتحدثون عن مال
كثير، وكانوا يتحدثون الإنجليزية التي يتحدثها الأغنياء في كوبا.
بدا اثنان منهم كأنهما أخوان، أما الآخر، پانشو، فقد كان
أطول قليلا لكنه لا يختلف عنهما من حيث المظهر: نحيف،
ملابس جيدة، شعر لامع. لم أعتقد أنه شرير كما يوحي كلامه.
أعتقد أنه كان شديد التوتر.

وما إن خرجوا من الباب وانعطفوا نحو اليمين، حتى رأيت
سيارة مقفلة تتجه نحوهم من الطرف الآخر للساحة. سقط لوح
من الزجاج أولا، ثم ارتطمت الرصاصة بصف الزجاجات على
جدار العرض إلى اليمين. سمعت الرشاش يطلق: طاخ، طاخ،
طاخ، ثم تتحطم الزجاجات على طول الجدار.

قفزت وراء المقهى على اليسار، وكنت أستطيع أن أرى من فوق
حرفه. كانت السيارة قد توقفت، وشخصان ينبطحان بجانبها.
كان أحدهما يحمل رشاش تومسن، بينما الآخر يحمل مسدسا
آليا مشطوف الفوهة. كان حامل رشاش تومسن زنجيا. أما
الآخر فقد كان يرتدي مئزر سائق أبيض.

كان أحد الشبان يتمدد على الرصيف، منكبا على وجهه، تماما عند النافذة الكبيرة التي تحطمت. بينما كان الآخرون خلف عربات جليد الشراب المدارية المتوقفة أمام مقهى «كونارد» المجاورة. كان أحد أحصنة عرية الجليد على الأرض بكامل عدته، ويرفس، بينما كان الآخر يجمع جموحا جنونيا.

أطلق أحد الشبان النار من الزاوية الخلفية للعربة، فارتدت الرصاصة عن الرصيف. كان وجه الزنجي صاحب رشاش تومسن يكاد يلتصق بالشارع، فرشق مؤخرة العربة من أسفل بوابل من رشاشه، وبالفعل سقط أحدهم باتجاه الرصيف، فصار رأسه فوق حرفه. راح يتخبط، ويضع يديه فوق رأسه. أطلق السائق مسدسه عليه، بينما كان الزنجي يلقم رشاشه من جديد، لكن الطلقة كانت بعيدة. كان بإمكانك أن ترى علامات الخردق على الرصيف كأنها حبات من لجين معقود.

سحب الشاب الآخر رفيقه المصاب من رجليه إلى ما وراء العربة، ورأيت الزنجي ينبطح على الرصيف ليرشقهم بوابل آخر. عندئذ رأيت صاحبنا پانشو يستدير عند زاوية العربة ويحتمي بمؤخرة الحصان الواقف. ابتعد عن الحصان وكان وجهه أبيض مثل قماشة متسخة، فأصاب السائق برشاش «لوغر» الذي كان يحمله بكلتا يديه ليحافظ على توازنه. أطلق رصاصتين مرتا من فوق رأس الزنجي، وهو يقبل نحوه، ورصاصة باتجاه الأسفل.

أصاب إحدى عجلات السيارة لأنني رأيت الغبار يثور دفقات، دفقات بينما كان الهواء يخرج من العجلة. وعلى مسافة عشر أقدام، أصابه الزنجي في بطنه، وبآخر رصاصة فيما يبدو في

رشاش تومسن، لأنني رأيته يلقيه أرضا، فراح صاحبنا پانشو يتهاوى وينكب على وجهه. كان يحاول أن ينهض، وهو لا يزال يمسك برشاش «لوغر»، لكنه لم يستطع أن يرفع رأسه، عندما جاء الزنجي وتناول المسدس الذي كان يستند على عجلة السيارة بجانب السائق، فمزق بها أحد جانبي رأسه. إنه زنجي قولا وفعلا.

أخذت جرعة سريعة من أول زجاجة رأيته مفتوحة، وليس بإمكانني أن أقول لك الآن ماذا وجدت فيها. جعلني الأمر برمته أشعر شعورا سيئا. تسللت من خلف المقهى إلى المطبخ في الخلف حتى خرجت. انسلت إلى خارج الساحة ولم أنظر حتى ورائي نحو الحشد الذي كان يتجمع بسرعة أمام المقهى، فعبرت البوابة إلى رصيف المرسى وصعدت قاربي.

كان الشخص الذي استأجر الزورق ينتظرني على متنه. أخبرته ما حدث.

«أين إدي؟». سألني جونسن هذا الذي استأجر الزورق.

«لم أره قط بعد أن بدأ إطلاق النار».

«هل تظن أنه أصيب؟».

«لا وحق الجحيم. أقول لك إن الرصاصات الوحيدة التي سددت نحو المقهى أصابت نافذة العرض. حدث هذا عندما كانت السيارة آتية خلفهما. عندئذ أصابا أول شخص أمام النافذة. كانا يسيران في زاوية....».

«بيدو أنك واثق تمام الثقة مما حدث»، قال لي.

«لقد كنت أراقب»، قلت له.

عندئذ رفعت رأسي، فرأيت إدي يسير على رصيف المرسى،
فإذا به أطول من ذي قبل وأكثر اتساخاً. كان يمشي كأن مفاصله
جميعاً ركبت في غير مواضعها.
«ها قد أتاك».

كان إدي في مظهر سيئ. لم يكن مظهره جيداً على الإطلاق
في الصباح الباكر، لكنه لم يبد بهذا السوء قط.
«أين كنت؟». سألته.
«على الأرض».

«هل رأيت ما حدث؟». سأله جونسن.
«لا تتحدث عما حدث، يا سيد جونسن»، قال له إدي. «إن
مجرد التفكير فيما حدث يسبب لي الغثيان».
«يجدر بك أن تتناول مشروباً»، قال له جونسن. ثم قال لي:
«حسن، هل سنبحر؟».

«الأمير عائد إليك».
«كيف سيكون هذا اليوم؟».
«مثل أمس، تقريباً. أو ربما أفضل».
«دعنا نبحر، إذن».
«حسن، لكن حالما يأتي الطعم».

صار لنا نبحر في هذا الكتكوت^(٢) منذ ثلاثة أسابيع نصطاد
السماك في النهر، ولم أر شيئاً من ماله حتى الآن، ما عدا مائة
دولار أعطاني إياها من أجل دفع الرسوم القنصلية ورسوم
الزورق، ومن أجل الطعام والوقود قبل أن نعبّر من الجهة

(٢) الكتكوت هو تعبير تحب للقارب [المترجم].

الأخرى^(٣)، استأجر الزورق بمبلغ خمسة وثلاثين دولارا لليوم الواحد، وكنت أنا أزوده بعدة الصيد. كان ينام في أحد الفنادق، وكان يأتي إلى الزورق كل صباح. كان إدي هو الذي رتب هذه الصفقة، فكنت أعطيه أربعة دولارات في اليوم.

«علي أن أملأه بالوقود»، قلت لجونسن.

«لا بأس».

«وأحتاج إلى بعض المال من أجل هذا».

«كم تحتاج؟».

«تكلفة الغالون الواحد ثمانية وعشرون سنتا. وعلي أن أضع أربعين غالونا. هذا يعني أحد عشر دولارا وعشرين سنتا».

أخرج خمسة عشر دولارا.

«هل تريد أن نصرف البقية على الشراب والجليد؟». سألته.

«لا بأس»، قال لي. «لكن اخصمها مما أدين لك به».

خطر لي أن مدة ثلاثة أسابيع تكفي لأجعله يمضي في سبيله، لكن إن كان فيه منفعة، فما المانع؟ في كل الأحوال كان يجب أن يدفع لي كل أسبوع. لقد أمهلتهم (الآخرين) شهرا، وحصلت على فلوس سي. كان الخطأ خطئي، لكنني كنت مسرورا بالفرصة التي أتيت لي. لم أشعر بالتوتر إزاءه إلا في الأيام الأخيرة، لكنني لم أشأ أن أقول له شيئا خشية أن تتعسر أموري معه. كلما طالبت المدة كان ذلك أفضل، إن كان فيه خير.

«هل تريد زجاجة شراب؟». قال لي وهو يفتح الصندوق.

«لا، شكرا».

(٣) يتضح هنا أن السيد جونسن استأجر الزورق من ولاية فلوريدا الأمريكية وعبر به مع الراوي مضائق فلوريدا باتجاه هاوانا جنوبا [المترجم].

في هذه اللحظة بالذات رأينا الزنجي الذي أوكلنا إليه أمر الطعوم قادما نحو رصيف المرسى، فقلت لإدي أن يستعد للإبحار.

صعد الزنجي إلى متن الزورق ومعه الطعوم، وأبحرنا خارجين من المرسى، بينما راح الزنجي يجهز طعمين من سمك الإسقمري، فكان يدخل الصنارة من فمها ثم يخرجها من خياشيمها، ثم يشق أحد الجانبين ليمرر الصنارة من هذا الشق إلى شق في الجانب الآخر، وبعدها يحكم إغلاق فم السمكة على دليل السلك ويشد الصنارة جيدا لكي لا تتفلت ولكي يجتذب الطعم فريسته بسلاسة من دون أن يلتف حول نفسه.

هذا الزنجي أسود حقيقي، حاذق عابس، تتدلى من عنقه مسبحة من خرز القودو^(٤) يدس أسفلها تحت قميصه، ويرتدي قبعة قش عتيقة. كان النوم وقراءة الجرائد أحب ما يفعله على متن الزورق. لكنه كان ماهرا وسريعا في شد الطعوم.

«ألا يمكنك أن تشد الطعوم مثله، أيها القبطان؟». سألني جونسون.

«نعم، يا سيدي».

«إذن، ما حاجتنا إلى هذا الزنجي؟».

«سترى حاجتنا إليه عندما تجمع بنا الأسماك الكبيرة»، قلت له.

«ما السر في ذلك؟».

«الزنجي أسرع مني في معالجة الأمر».

(٤) القودو: عبادة وشية أفريقية الأصل تنتشر في جزيرة هايتي وبعض جزر البحر الكاريبي، وتقوم على أساس من السحر والعرافة [المترجم].

«ألا يستطيع إدي أن يعالجه؟».

«لا، يا سيدي».

«بالنسبة إلي هذه نفقة لا مبرر لها». كان يعطي الزنجي دولارا واحدا كل يوم، وكان الزنجي يذهب ليرقص الرمبا كل ليلة^(٥)، كان النعاس باديا عليه من الآن. «نحن في حاجة إليه»، قلت له.

في هذه الأثناء كنا قد مررنا بمراكب للسماكين ذات صناديق مخزنة راسية أمام كبانيس^(٦)، وبقوارب راسية تبحث عن سمك الإلبوت^(٧) في القاع الصخري بمحاذاة إل مورو^(٨)، فوجهت الزورق إلى حيث يصنع الخليج خطا داكنا. ألقى إدي بالمتنعتين^(٩) الكبيرتين، بينما جهز الزنجي ثلاث صنارات أخرى.

كان التيار يكاد يتفرع إلى منسربين عميقين، وبينما كنا نتجه نحو الحافة أصبح لون الزورق قريبا من الأرجواني بسبب الدوامات المعهودة. كان نسيم طفيف يهب من الشرق، فجمعنا كثيرا من الأسماك الكبيرة الطائفة التي تشبه صورة لنديبرغ وهو يعبر الأطلسي^(١٠).

كانت تلك الأسماك الكبيرة الطائفة خير بشارة. كان بإمكانك أن ترى على مد النظر رقعا صغيرة من الطحالب البحرية

(٥) الرمبا: رقصة كويبة يرقصها الزوج، وتتميز بحركاتها العنيفة [المترجم].

(٦) كبانيس: اسم حصن على مدخل ميناء هافانا [المترجم].

(٧) الإلبوت: سمك صغير من فصيلة القد [المترجم].

(٨) إل مورو: اسم قلعة على مدخل ميناء هافانا [المترجم].

(٩) لم أتمكن من إيجاد مكافئ في العربية أفضل من كلمة «متمنعة» لترجمة كلمة teaser ذات الإيحاءات الجنسية، حيث تعني أصلا من تقوم بالإغواء ثم المنع. لكن همنغواي يستخدمها هنا لتعني طعاما يجتذب الأسماك إلى حيث يمكن صيدها، لكنه يستعصي على الابتلاع [المترجم].

(١٠) تشارلز أوغسطس لنديبرغ (١٩٠٢ - ١٩٧٤): طيار أمريكي أدهش العالم يوم ٢١ مايو عام ١٩٢٧ بعد أن قام بأول رحلة طيران بلا توقف من نيويورك إلى باريس [المترجم].

الصفراء الباهتة اللون، وهذا يعني أن التيار الرئيسي يذهب بعيدا، وكانت هناك أسراب من الطيور تحوم فوق تجمع لأسماك التونة الصغيرة. وكان بإمكانك أن تراها وهي تتقافز، وكانت صغيرة لا يتجاوز وزن الواحدة أكثر من رطلين.

«بإمكانك أن تبجر متى شئت»، قلت لجونسن.

ارتدى حزامه وعدة صيده، ثم ألقى بصنارته الكبيرة ذات البكرة من طراز هاردي ومعها ستمائة ياردة من خيط عيار ست وثلاثين. التفت ورائي فرأيت طعمه يجذب بشكل سلس ويتقافز فوق الأمواج، بينما كانت المتمعنتان تفوصان وتقفزان، كنا نبجر بالسرعة الملائمة تقريبا، فوجهت الزورق نحو التيار.

«ضع عقب الصنارة في محبسه على الكرسي»، قلت له. «فهكذا يخف عليك عبء الصنارة. تجنب الشد كي تتمكن من إرخاء الخيط للسمة عندما تعلق في الصنارة. لأنه لو علقت السمكة بالصنارة والخيط مشدود، فإنها ستقذف بك في الماء».

كنت أعلمه هذه الأشياء كل يوم، لكنني لم أجد غضاضة في ذلك. فواحد من خمسين شخصا تتعامل معهم يعرف كيف يصطاد. وإذا كانوا يعرفون الصيد، فتجدهم يقضون نصف الوقت في تصرفات بلهاء أو يريدون استخدام حبل لا يقوى على الإمساك بالأسماك الكبيرة.

«كيف ترى اليوم؟». سألني.

«لن تجد أفضل منه»، قلت له. وكان يوما جميلا من دون

شك.

طلبت من الزنجي أن يتولى القيادة ويبحر بمحاذاة التيار نحو الشرق، ثم رجعت إلى حيث كان جونسن جالسا يراقب طعمه الذي يفوص ويطفو وراءه.

«هل تريدني أن ألقى بصنارة أخرى؟». سألته.
«لا أظن ذلك»، قال لي. «فأنا أريد أن أصطاد أسماك، وأصارعها، وأنتشلها بنفسى».

«جيد»، قلت له. «هل تريد أن يلقي إدي بالصنارة ويناولك إياها حالما تلامسها السمكة كي تتمكن من صيدها؟».

«لا، فأنا أفضل أن ألقى بصنارة واحدة فقط».

«لا بأس».

كان الزنجي يبحر بالزورق بعيدا عن الشاطئ، فنظرت ورأيت أنه رأى تجمعاً للأسماك الطائفة تقفز من تحت الماء أمامنا باتجاه التيار قليلاً. التفت إلى الورا، فرأيت الشمس تغمر هافانا بأشعتها البهية، كما رأيت سفينة تخرج من المرسى وقد تجاوزت إل مورو.

«أعتقد أن لديك اليوم فرصة لمصارعة إحداها، يا سيد جونسن»، قلت له.

«لقد آن الأوان»، قال لي. «كم صار لنا في رحلة الصيد هذه؟».

«صار لنا اليوم ثلاثة أسابيع».

«هذه رحلة صيد طويلة».

«إنها أسماك غريبة»، قلت له. «فهي غائبة حتى تأتي، وعندما تأتي، فهي تأتي بأعداد هائلة. ولم تتوان يوما عن الإتيان. إن لم

تأت الآن، فلن تأتي أبدا. فالقمر كما يرام، والتيار على ما يرام،
وقريبا سيكون لدينا نسيم على ما يرام».

«كانت هناك بعض الأسماك الصغيرة عندما بدأنا».

«نعم»، قلت له. «إن الأمر كما قلت لك. فالأسماك الصغيرة

تتبدد وتتلاشى قبل مجيء الأسماك الكبيرة».

«أنتم أصحاب فرق الصيد ترددون ذات اللازمة. فإما يكون

الوقت مبكرا جدا أو متأخرا جدا أو الريح ليست على ما يرام أو

القمر غير ملائم للصيد. لكنكم تتقاضون أجوركم مهما كان».

«المصيبة هي أن هذا ما يحصل عادة: إما يكون الوقت مبكرا

جدا أو متأخرا جدا، وفي كثير من الأحيان لا تكون الريح مواتية.

وعندما يصادفك يوم رائع، تكون أنت على الشاطئ بلا فريق».

«وهل تعتقد أن اليوم يوم موات؟».

«حسن»، قلت له، «لقد نلت من العمل ما يكفيني اليوم، لكنني

أراهنك أنك ستشهد الكثير قريبا».

«أمل ذلك»، قال لي.

انخرطنا في العمل لجذب الأسماك. راح إدي إلى مقدمة

الزورق واستلقى. وأنا كنت أقف مراقبا لعلي أرى ذبلا يظهر.

كان الزنجي يغط في النوم من وقت إلى آخر، وكنت أراقبه أيضا.

لا بد أنه قضى ليلة وأياما ليلة.

«هل تمنع لو أعطيتني زجاجة من الشراب، أيها القبطان؟».

قال لي جونسن.

«لا، يا سيدي»، قلت له، ومددت يدي في الجليد أبحث له عن

واحدة باردة.

«ألن تشرب واحدة؟». سألني.

«لا يا سيدي، سأنتظر حتى الليل»، قلت له.

فتحت الزجاجاة، وبينما كنت أناوله إياها رأيت زطيا^(١١) بنيا كبيرا ذا رمح أطول من ذراعك، رأيته يشق سطح الماء برأسه وكثفيه وينقض على طعم الأسقمري. كان كبيرا بحجم زند خشبي معد للنشر.

«أرخ له الخيط»، صرخت به.

«لم يبتلعه بعد»، قال جونسون.

«إذن، أمسكه».

كان قد جاء من أعماق الأعماق فلم يصب الطعم. لكنني كنت أعلم أنه سيعود.

«استعد لإرخاء الخيط حالما يمسك بالصنارة».

ثم رأيت أنه يأتي من الخلف تحت الماء. كان بإمكانك أن ترى زعانفه مبسوطة كأنها أجنحة من أرجوان، وكانت خطوطه الأرجوانية تتصالب مع خطوطه البنية. أتى صائلا كأنه غواصة، يشق الماء شقا بزعنفته العليا. ثم صار خلف الطعم تماما، فخرج رمحه من الماء أيضا، وكان يهزه ذات اليمين وذات الشمال.

«لقمه إياه في فمه»، قلت له. رفع جونسون يده عن ملف

البكرة فراح تثر، بينما استدار صاحبنا الراموح^(١٢) وغاص في الأعماق، وتمكنت من رؤية طوله بكامله، وكان يلعب كاللجين الناصع عندما انقلب على جانبه وانطلق مسرعا نحو الشاطئ.

(١١) استخدمت كلمة «زطي» بوصفها لفظة شتيمة عامة لتوازي كلمة bugger التي يستخدمها همغواي، بصرف النظر عن المعنى الأصلي لكل من المفردتين العربية والإنجليزية [الترجم].

(١٢) الراموح: سمك ضخيم يعيش في المحيطات، وسمي بالراموح لأن له خطما طويلا يشبه الرمح [الترجم].

«اضغط على مشد الخيط ضغطا خفيفا»، قلت له. «ليس كثيرا».

رهص المشد بقوة.

«ليس بهذه الشدة»، قلت له. رأيت الخيط يرتفع قليلا. «أوقف المشد بقوة واضربه بالصنارة ضربا عنيفا»، قلت له. «عليك أن تضربه بعنف، فهو سيقفز لا محالة».

أحكم جونسن إغلاق المشد، وراحت قبضته تنزلق نحو الجزء الأخير من عصا الصنارة.

«اضربه»، قلت له. «اطعنه. اضربه ست مرات».

ضربه بعنف شديد مرتين، فانحنت عصا الصنارة، وراحت البكرة تولول، فإذا به ينطلق كالقذيفة في خط مستقيم طويل، لامعا كاللجين في أشعة الشمس، ليرتمي في الماء كما يرتمي حصان عن جرف.

«أرخ المشد قليلا»، قلت له.

«لقد ولى»، قال جونسن.

«إي، وحق الجحيم»، قلت له. «أرخ المشد بسرعة».

كنت أرى كيف كان حبل الصنارة ينحني، وعندما قفز ثانية قفز من خلف الزورق واتجه إلى عرض البحر، ثم شق سطح الماء ثانية فضرب الماء فأزیده، ورأيت كيف علق خطاف الصنارة بجانب فمه. كانت خطوطه واضحة. كان رائعا، ذا لون كلون اللجين الناصع، مخططا بخطوط أرجوانية، وكبيرا كزند من الخشب.

«لقد ولى»، قال جونسن. كان حبل الصنارة مرتخيا.

«اشدد الخيط عليه»، قلت له. «لقد استوثقت به الصنارة جيدا. وجه الزورق إلى الأمام بكل ما في محركه من طاقة!» صحت بالزننجي.

ثم شق الماء مرة ومرتين، واقفا، مستقيما كعمود، يقفز بكامل طوله نحونا، ثم يدفع الماء إلى الأعلى كلما ارتطم بها. توتر الخيط، فرأيت أنه راح يتجه نحو الشاطئ ثانية، ورأيتة ينعطف.

«حان الآن وقت جموحه»، قلت له. «وإن استوثقت به الصنارة جيدا، فسأطاردّه. اترك المشد مرتخيا قليلا. لديك حبل طويل».

توجه الراموح باتجاه الشمال الغربي جريا على عادة الأسماك الكبيرة، ويا أخي، استوثقت به الصنارة أيما موثق. راح يقفز قفزات طويلة، وكانت كل غطسة في الماء كأنها قارب سباق في البحر. مضينا في إثره، وأبقيناه على مقربة منا حالما انعطفنا. توليت القيادة وظللت أصرخ على جونسن ليخفف الشد قليلا وأن يسحب الصنارة بسرعة. فجأة رأيت صنارته ترتد بعنف والخيط يرتخي. لا يبدو الخيط مرتخيا إلا إذا كنت تعرف ذلك بسبب شد بطن الخيط في الماء. لكنني كنت أعرف.

«لقد ولى»، قلت له. كان الراموح لا يزال يقفز وظل يقفز بيد أنه توارى عن الأنظار. كان سمكة رائعة بحق.

«لا أزال أشعر به يسحب»، قال جونسن.

«هذا ثقل الخيط».

«لا أستطيع أن أسحبه. ربما مات».

«انظر إليه»، قلت له. «إنه لا يزال يقفز». كان على بعد نصف

ميل، وكان لا يزال يدفع الماء دقات، دقات.

تحسست المشد، فوجدت أنه أحكم إغلاقه بحيث لم يعد بإمكانك سحب الخيط. فكان لا بد أن ينقطع.
«ألم أقل لك أن تخفف الشد قليلاً؟»
«لكنه كان يسحب الخيط ويهرب به».
«وإن يكن».
«لذلك أحكمت إغلاقه».

«اسمع»، قلت له. «ما لم ترخ لها الخيط عندما تستوثق الصنارة بها، فلا بد لها أن تقطعه. لا يوجد خيط في الدنيا يمكنه أن يمسك بها. فإذا أرادت الخيط، فعليك أن تعطيها إياه. وعليك أن تبقي الشد خفيفاً. لا يستطيع صيادو الأسواق أن يشدوا الخيط على هذا النحو حتى لو كانوا يصطادون بخيط لصيد الحيتان. ما يتعين علينا فعله هو أن نستخدم الزورق لمطاردتها لكيلا تأخذه كله عندما تجمع. وبعد أن تجمع، فإنها تفوص فجأة، عندئذ يمكنك أن تشد المشد وتستعيد الخيط».
«إذن، هل كان بإمكانني أن أمسك به لو لم يقطعه؟»
«ستكون قد أتيت لك فرصة».
«ما كان بإمكانه أن يصمد طويلاً، أليس كذلك؟»
«بل بإمكانه أن يفعل أشياء كثيرة غير ذلك. والصراع لا يبدأ إلا بعد أن ينتهي جموحه».

«حسن، إذن، دعنا نمسك بواحدة».
«عليك أولاً أن تلف الخيط على البكرة»، قلت له.
«كدنا نمسك بذلك الراموح وأضعناه، ولم يستيقظ إدي. لكن صاحبنا جاء الآن إلى مؤخرة الزورق، وسألنا:

«ما بكم؟»

كان إدي في يوم من الأيام رفيقا جيدا في البحر قبل أن يصبح سكيراً، لكنه لم يعد فيه نفع الآن. نظرت إليه وهو يقف، طويلاً، غائر الخدين، متهدل الفم، أرمص العينين، باهت الشعر تحت أشعة الشمس. كنت أعلم أنه استيقظ متلهفا للمشروب. «يجدر بك أن تتناول زجاجة من الشراب»، قلت له. أخرج زجاجة من الصندوق وشربها.

«حسن، يا سيد جونسن»، قال إدي، «أعتقد أنه يجدر بي أن أكمل نومي. أنا ممتمن لك من أجل الشراب، يا سيدي». هكذا هو إدي. لم يكثرث لأمر الراموح على الإطلاق. على أي حال، كدنا نمسك بآخر حوالي الظهيرة، لكنه هرب منا. كان بإمكانك أن ترى الصنارة تندفع ثلاثين قدماً في الهواء عندما قذفها.

«ما الخطأ الذي ارتكبته؟». سألني جونسن.

«لا شيء»، قلت له. «كل ما هنالك أنه قذفها».

«سيد جونسن»، قال إدي الذي استفاق ليتناول زجاجة أخرى من الشراب. «سيد جونسن، كل ما هنالك هو أنك عاثر الحظ. قد تكون محظوظاً مع النساء. سيد جونسن، ما رأيك لو خرجنا معاً الليلة؟». ثم عاد أدراجه، واستلقى ثانية.

بينما كنا نعود ونقترب من الشاطئ في حوالي الرابعة، وكنا نبحر عكس التيار الذي كان يهدر كأنه قناة لمياه الطاحون، والشمس وراءنا، عض على طعم جونسن أكبر راموح أسود رأيته في حياتي. ألقينا بطعم من الحبار المصنوع من الريش واصطدنا

أربعا من أسماك التونة الصغيرة، فجعل الزنجي واحدة منها طعما شده على صنارته. كان ثقيلًا في الشد، لكنه يرشق الماء رشقا وراء الزورق.

نزع جونسن العدة عن البكرة لكي يتمكن من وضع عصا الصنارة على ركبتيه لأن ذراعيه تعبتا من الإمساك بها في موقعها كل هذه المدة. ولأن يديه تعبتا من الإمساك بملف البكرة الذي يشده الطعم، غافلني وأحكم إغلاق المشد. لم أكن أعلم أنه فعل ذلك. لم يعجبني إمساكه لعصا الصنارة بتلك الطريقة، لكنني سئمت من انتقاده على الدوام. ومع غياب الشد، لم يكن هناك خوف على الخيط. لكنها طريقة صيد خرقاء.

كنت أتولى القيادة وأسير على حافة التيار مقابل معمل الإسمنت القديم حيث الماء عميق قرب الشاطئ، مما يشكل دوامة تكثر فيها الطعوم. ثم رأيت الماء يندفق إلى الأعلى كأن قنبلة انفجرت في الأعماق، يتلوه رمح وعين وفك سفلي مفتوح ورأس أرجواني هائل أسود لراموح أسود. خرجت زعنفته العليا كليًا من الماء، وارتفع كأنه سفينة بكامل أشرعتها، وكان رمحه ممدودًا بكامله عندما انقض على طعم التونة. كان رمحه كبيرًا بحجم مضرب للبيسبول، ومائلًا نحو الأعلى، ولما انقض على الطعم فلق المحيط فلقتين. كان لونه أرجوانيا أسود من غير سوء. كان هائلًا. وأنا على يقين أنه يزن ألف رطل^(١٣).

صرخت على جونسن أن أعطه الخيط، لكنني قبل أن أنطق بكلمة واحدة رأيت جونسن يرتفع عن كرسيه في الهواء كأنما

(١٣) أي أكثر من ٤٥٣ كلغ [الترجم].

رُفِعَ بمرفاع آلي، بينما كان يتمسك لمدة ثانية بعضا الصنارة التي كانت تتحني كأنها قوس، وأخيرا أصابه عقبها في بطنه، فسقطت العدة بأكملها في الماء.

كان قد أحكم إغلاق المشد، وعندما عضت السمكة على الصنارة، رفعت جونسن عن كرسيه، فلم يعد قادرا على التمسك بها. كان قد وضع العقب تحت إحدى ساقيه، ووضع عصا الصنارة في حضنه. لو أنه وضع العدة فيه، لجرفته معها أيضا. أطفأت المحرك وعدت إلى مؤخرة الزورق. كان يجلس هناك ممسكا بمكان إصابته بعقب الصنارة في بطنه.

«أعتقد أن هذا يكفي اليوم»، قلت له.

«ماذا كان؟». سألني.

«راموفا أسود»، قلت له.

«كيف حدث ذلك؟».

«تحقق بنفسك»، قلت له. «لقد كلفتي تلك البكرة مائتين وخمسين دولارا. والآن ثمنها أغلى. والصنارة كلفتي خمسة وأربعين دولارا. وكان هناك ما يقرب من ستمائة ياردة من الخيط عيار ست وثلاثين».

في هذه اللحظة بالذات يخبطه إدي على ظهره ويقول، «سيد جونسن، أنت رجل عاثر الحظ لا أكثر ولا أقل. واعلم أنني لم أر في حياتي شيئا من هذا القبيل».

«أخرس، يا فاقد الوعي»، قلت له.

«أقول لك، يا سيد جونسن»، قال له إدي، «هذه أطرف حادثة أشهدها في حياتي».

«ماذا عساي أن أفعل إن علقـت بسمكة كهذه؟». قال جونسـن.

«وهذه السمكة كنت تريد أن تتصارع معها بمفردك»، قلت له. كنت حائفا أيا حنق.

«إنها هائلة جدا»، قال جونسـن. «بل، إن صيدها نقمة».

«اسمع»، قلت له. «إن صيد سمكة مثل تلك هلاك لك».

«إنها قابلة للصيد».

«أجل، من قبل الذين يتقنون الصيد. لكن لا تظن أنهم لا يجدون عنتا في ذلك».

«لقد رأيت صورة لفتاة اصطادات سمكة».

«بالتأكيد»، قلت له. «هذا صيد ميت. لقد ابتلعت السمكة الطعم، فأخرجوا معدته، فصعد إلى السطح ومات. أنا أتحدث عن الإمساك بها بعد أن تعض على الصنارة».

«حسن»، قال جونسـن، «إنها هائلة جدا. وإن لم يكن في صيدها متعة، فلماذا هذا العناء؟».

«هذا صحيح، يا سيد جونسـن»، قال له إدي. «إن لم يكن في صيدها متعة، فلماذا العناء؟ اسمع، يا سيد جونسـن. لقد أصبت كبد الحقيقة. إن لم يكن في صيدها متعة، فلماذا العناء؟».

كنت لا أزال أرتجف من رؤية تلك السمكة وأشعر بكثير من الامتعاض بسبب ضياع العدة، فلم أستطع أن أستمع إليهما. قلت للزنجي أن يتجه بالزورق نحو إل مورو. لم أكلهما بشيء، وكان الاثنان يجلسان هناك، إدي في كرسي يحمل زجاجة من الشراب وجونسـن يحمل أخرى.

«أيها القبطان»، قال لي بعد مدة، «هل لك أن تعد لي كأساً من المشروب؟».

أعددت له واحدة دون أن أكلمه، ثم أعددت لنفسي كأساً حقيقية. رحت أفكر في نفسي أن جونسن هذا خرج للصيد منذ خمسة عشر يوماً، وأخيراً يحظى بسمكة ينتظرها السماكون مدة عام، ثم يضيعها، ويضيع عدتي الثقيلة، ثم يبهدل نفسه، ومع ذلك تجده راضياً عن نفسه تمام الرضا، وينادم سكيراً. عندما وصلنا إلى رصيف المرسى، وكان الزنجي يقف منتظراً، قلت له، «ماذا عن الغد؟».

«لا أظن ذلك»، قال جونسن. «إن نفسي تعاف هذا النوع من الصيد».

«هل تريد أن تدفع للزنجي؟».

«بكم أدين له؟».

«بدولار واحد. وبإمكانك أن تعطيه إكرامية إن شئت».

وهكذا دفع جونسن للزنجي دولاراً وأربعين سنتاً كويياً.

«لماذا هذه؟» سألتني الزنجي وهو يريني النقود المعدنية.

«إكرامية»، قلت له بالإسبانية. «لقد انتهت مهمتك. وهو

يعطيك هذه».

«لا آتي غداً؟».

«لا».

يحمل الزنجي مكب الفتيل الذي كان يربط به الطعوم ونظارتيه العاتمتين، ثم يعتمر قبعته القش ويمضي في سبيله من دون أن يودعنا. كان زنجياً لم يكثرث لأي منا.

«متى تريد أن نصفي حسابنا، يا سيد جونسن؟». سألته.
«سأذهب إلى البنك صباحاً»، قال جونسن. «وبإمكاننا أن
نصفي حسابنا عصرًا».
«هل تعرف كم يوما صار عليك؟».
«خمسة عشر».
«لا. ستة عشر بما فيها هذا اليوم، زائد يومين للذهاب
والإياب، يكون المجموع ثمانية عشر يوما. أضف إلى ذلك ثمن
الصنارة والبكرة والخيط التي أضعها اليوم».
«ولكنك أنت المسؤول عن العدة».
«لا، يا سيدي. ليس عندما تضيعها كما فعلت».
«لقد دفعت إيجارها عن كل يوم. هذه مسؤوليتك أنت».
«لا، يا سيدي. لو أن السمكة قطعناها ولم تكن تلك غلطتك،
لاختلف الأمر. لكنك أضع العدة بكاملها نتيجة إهمالك».
«لقد سحبتها السمكة من بين يدي».
«لأنك أحكمت إغلاق المشد ولم تكن تضع الصنارة في
محبسها».
«لا يحق لك أن تغرمي من أجل ذلك».
«لو استأجرت سيارة، وجعلتها تسقط من فوق جرف،
ألا تعتقد أنه يتعين عليك أن تدفع ثمن غلطتك؟».
«ليس إن كنت فيها»، قال جونسن.
«رائع، يا سيد جونسن»، قال إدي. «ألا ترى قصده، أيها
القبطان؟ إن كان فيها، فسيقتل. وعندها لن يضطر إلى الدفع.
رائع، رائع».

لم أكرث لما قاله فاقد الوعي. «أنت مدين لي بمائتين وخمسة وتسعين دولارا من أجل الصنارة والبكرة والخيط»، قلت لجونسن. «أنت غير منصف»، قال لي. «لكن إن كان هذا هو رأيك، فلماذا لا نتقاسم المبلغ مناصفة؟».

«لا يمكنني أن أشتري بديلا عما ضاع بأقل من ثلاثمائة وستين دولارا. فأنا لم أحسب عليك ثمن الخيط. إذ إن سمكة مثل تلك يمكنها أن تهرب بخيطك ولن يكون هذا خطأ منك. لو كان معنا الآن شخص آخر غير هذا فاقد الوعي، لأخبرك كم أنا منصف معك. أنا أعلم أن هذا مبلغ كبير من المال، لكنني أيضا دفعت مبلغا كبيرا عندما اشتريت تلك العدة. ولا يمكنك أن تصيد الأسماك من دون أن تشتري أفضل عدة موجودة».

«يا سيد جونسن، إنه يقول إنني أشرب كثيرا. ربما أنا كذلك. لكنني أقول لك إنه محق. إنه محق ومنصف»، قال له إدي.

«لا أريد الدخول في المشاحنات»، قال جونسن أخيرا. «سأدفع ثمنها، وإن كنت لا أرى موجبا لذلك. سأدفع عن ثمانية عشر يوما خمسة وثلاثين دولارا عن كل يوم، إضافة إلى مائتين وخمسة وتسعين أخرى».

«لقد أعطيتني مائة»، قلت له. «سأعطيك قائمة بما صرفته، وسأخصم قيمة الطعام الباقي مما اشتريته أنت مؤونة لرحلة الذهاب والإياب».

«هذا معقول»، قال جونسن.

«اسمع، يا سيد جونسن»، قال له إدي. «لو عرفت الأسعار التي يطلبونها عادة من الغرياء، لأدركت أن المطلوب منك أنت

أكثر من معقول. هل تعرف ما هو؟ إنه استثنائي. فالقبطان يعاملك كما لو كنت أمه».

«سأذهب إلى البنك غدا، وسأتيك إلى هنا بعد الظهر. وبعدها نستقل الزورق بعد غد».

«يمكنك أن تعود معنا وتوفر على نفسك أجرة الزورق».

«لا»، قال لي. «سأوفر الوقت بالسفر في الزورق»^(١٤).

«لا بأس»، قلت له. «ما رأيك في شيء من الشراب؟».

«لا بأس»، قال جونسن. «هل تصافينا الآن؟».

«أجل، تصافينا»، قلت له، وهكذا جلسنا نحن الثلاثة في

مؤخرة الزورق وتناول كل منا كأسا من المشروب.

في اليوم التالي أشغلت نفسي في أمر الزورق طيلة الصباح،

فغيرت الزيت في القاعدة، وقمت بكذا وكذا. وعند الظهر

ذهبت إلى المدينة وتناولت الغداء في محل تشنكي^(١٥)، حيث

بإمكانك أن تتناول وجبة جيدة بأربعين سنتا، ثم اشترت بعض

الأشياء لزوجتي وبناتنا الثلاث: عطر، كما تعلم، وبعض المراوح

اليدوية، ومشطين بأسنان عالية. وعندما انتهيت عرجت على

مقهى دونوفن، وتحدثت مع الرجل العجوز، وبعدها عدت

ماشيا إلى رصيف سان فرانسيسكو، وقد توقفت في ثلاثة

أمكنة أو أربعة لأتناول بعض المشروبات على الطريق. قدمت

لفرانكي زجاجتين على حسابي في مقهى كونارد، وصعدت متن

الزورق يغمرني شعور بالسعادة. عندما صعدت متن الزورق

(١٤) الذي يقصده جونسن هنا هو أنه لن ينتظر إلى حين يقرر الراوي العودة إلى الولايات

المتحدة، وهكذا يعود معه مجانا، بل يدفع أجرة اليوم الثامن عشر ويعود فوراً [المترجم].

(١٥) «تشنكي»: تعبير عنصري يستخدمه الأمريكيون بدلا من كلمة «صيني» [المترجم].

لم يبق معي سوى أربعين سنتا . صعد معي أيضا فرانكي، وجلسنا ننتظر جونسون وشرينا زجاجةين باردتين من صندوق الجليد في تلك الأثناء.

لم أر إدي في الليل ولا في النهار، لكنني كنت أعلم أنه سيأتي عاجلا أو آجلا، حالما يجد من لا يدينه . أخبرني دونوفن أنه مر على المقهى في الليلة السابقة مع جونسون لمدة قصيرة، وأن إدي كان يستدين من كليهما . انتظرنا ورحت أتساءل عن سبب غياب جونسون . كنت قد أوصيت من يخبره في المرسى بأن ينتظرني على متن الزورق، لكنه قيل لي إنه لم يأت . ومع ذلك، قلت في نفسي لقد تأخر في السهرة ليلة أمس، وربما لم يستيقظ حتى منتصف النهار . كانت البنوك تفتح حتى الثالثة والنصف . رأينا الطائرة تطلع، وفي حوالي الخامسة والنصف حل القلق الشديد محل السعادة التي كانت تغمرني .

في السادسة أرسلت فرانكي إلى الفندق ليرى إن كان جونسون هناك . كنت لا أزال أظن أنه قد يكون خرج لموعد أو لا يزال في الفندق لكنه لا يشعر برغبة للنهوض . رحلت أنتظر وأنتظر حتى تأخر الوقت . لكن قلقي بدأ يتضاعف لأنه مدين لي بثمانمائة وخمسة وعشرين دولارا .

غاب فرانكي أكثر من نصف ساعة بقليل . وعندما رأيته مقبلا كان يحث الخطى ويهز رأسه .

«لقد سافر بالطائرة»، قال لي .

لا بأس . هكذا آلت الأمور . لقد أغلقت القنصلية الآن . لم يكن عندي سوى أربعين سنتا، وفي كل الأحوال لقد هبطت الطائرة الآن

في ميامي^(١٦)، لم يكن بإمكانني أن أرسل ولو برقية. نعم، إنه السيد جونسن بلا منازع. كانت غلطتي. كان علي أن آخذ حذري. «لا بأس»، قلت لفرانكي. «دعنا نتناول زجاجة من الشراب البارد التي اشتراها السيد جونسن». كانت هناك ثلاث زجاجات من الشراب المداري.

كان فرانكي ممتعضا مثلي تماما. لا أعرف كيف استطاع ذلك لكن هذا ما بدا عليه. ظل يخبطني على ظهري ويهز رأسه. إلى هذا آلت أموري: خالي الوفاض، مفلسا. لقد خسرت خمسمائة وثلاثين دولارا من أجرة الزورق، وفقدت عدة لا يمكنني أن أشتري غيرها بأقل من ثلاثمائة وخمسين دولارا وربما أكثر. آه، كم ستشمت في العصابة التي تتسكع على رصيف المرسى! بلا شك سيشتمت في بعض الكونشا^(١٧)، بالأمس فقط رفضت ثلاثة آلاف دولار لإنزال ثلاثة أجانب في الجزر^(١٨) أو في أي مكان لأخرجهم من هذه البلاد.

لا بأس، والآن ماذا سأفعل؟ لا أستطيع أن آخذ معي حملا من المشروبات لأنني لا أملك المال لشرائها، إضافة إلى أنها لم تعد تجارة رابحة^(١٩)، المدينة تفص بها وليس هناك مشترون. لكن عار علي إن عدت إلى بلادي مفلسا لا أجد ما أقيم به أودي في

(١٦) ميامي: أكبر مدينة في ولاية فلوريدا، وتقع على ساحلها الجنوبي الشرقي [المترجم].
(١٧) الكونشا: كلمة إنجليزية في الأصل وتعني «محارة»، لكنها تطلق في العامية الإنجليزية على أي من مواطني جزر البهاما والجزر المجاورة. وقد يكون منشأ هذه التسمية له علاقة بكثرة المحار في هذه الجزر [المترجم].

(١٨) الجزر المعنية هنا هي سلسلة الجزر الصغيرة الممتدة من الساحل الجنوبي الشرقي لولاية فلوريدا إلى غربها في عمق المحيط، وآخرها الجزيرة الغربية (كي وست) [المترجم].

(١٩) بعد رفع الحظر عن المشروبات الكحولية من قبل الحكومة الأمريكية العام ١٩٣٣، لم يعد تهريب هذه المشروبات تجارة رابحة [المترجم].

تلك المدينة صيفا بأكمله. كما أن لدي أسيرة أيضا. لقد دفعت رسوم الزورق عندما أتينا إلى هنا. فعادة تدفع للسمسار سلفا، وهو الذي يدخلك ويدفع عنك الرسوم. اللعنة، ليس لدي مال حتى للوقود. مأزق جهنمي حشرنني فيه هذا الذي اسمه السيد جونسن.

«علي أن أجد حملا، يا فرانكي»، قلت له. «علي أن أكسب بعض المال».

«سأستطلع لك»، قال فرانكي. يتسكع صاحبنا هذا في الواجهة البحرية عادة ويقوم بأي عمل يجده، وهو ثقيل السمع ويشرب كثيرا كل ليلة. لكنك لن تجد رفيقا أوفى منه أو قلبا أطيب من قلبه. لقد عرفته منذ أن بدأت العمل على هذا الخط. وقد ساعدني مرارا في التحميل. وعندما بدأت المتاجرة ببعض البضائع أو أشكل فرقا للصيد أو شرعت في صيد سياف البحر^(٢٠) في كوبا أصبحت أراه كثيرا إما على رصيف المرسى أو في المقهى. يبدو كأنه أبكم وهو عادة يبتسم بدلا من الحديث لكن السبب في هذا هو أنه أطرش.

«هل تحمل أي شيء؟». سألني فرانكي.

«بالتأكيد»، قلت له. «لا خيار لي الآن».

«أي شيء؟».

«بالتأكيد».

«سأستطلع لك»، قال لي. «أين ستكون؟».

«في مقهى الجوهرة»، قلت له. «علي أن أكل».

(٢٠) سياف البحر: سمك ضخمة يعيش في المحيطات له خطم طويل يشبه السيف [المترجم].

يمكنك أن تأكل وجبة جيدة في «الجوهرة» بمبلغ خمسة وعشرين سنتا. كل شيء في القائمة يكلف عشرة سنتات ما عدا الشورية، فهي تكلف خمسة سنتات. سرت إلى هناك مع فرانكي، فدخلت المقهى بينما مضى هو في سبيله. وقبل أن يمضي صافحني ثم ربت على ظهري مرة أخرى.

«لا تقلق»، قال لي. «أنا فرانكي سياسة كثير. شغل كثير. شرب كثير. فلوس ما هي. لكن صديق كبير. لا تقلق»^(٢١).

«إلى اللقاء، يا فرانكي»، قلت له. «ولا تقلق أنت أيضا، أيها الفتى».

دخلت مقهى الجوهرة وجلست إلى إحدى الطاولات. كانوا قد وضعوا لوحا جديدا من الزجاج في النافذة التي كسرها الرصاص، وأصلحوا نافذة العرض. كان هناك كثير من الغاليغوس^(٢٢) يشربون أو يأكلون. كان لعب الدومينو قائما على قدم وساق على إحدى الطاولات. تناولت شورية لوبيا سوداء ويخنة من لحم البقر ويطاطا مسلوقة بمبلغ خمسة عشر سنتا، ثم زجاجة شراب من ماركة آتوي أوصلت المبلغ إلى ربع دولار. عندما تحدثت إلى النادل عن حادثة إطلاق النار رفض أن يتفوه بكلمة. كان الجميع خائفين خوفا شديدا.

أنهيت وجبتي وأسندت ظهري على الكرسي وأشعلت سيجارة وأرهقت رأسي بالتفكير. ثم رأيت فرانكي يدخل الباب ووراءه

(٢١) هنا يتحدث فرانكي بإنجليزية مخلخلة الأوصال، لذلك حاولت أن أنقل هذه الخلطة في ترجمتي لأقواله [الترجم].

(٢٢) تعني الغاليغوس أصلا سكان منطقة غاليسيا الإسبانية، لكنها هنا تعني أي شخص ناطق بالإسبانية. ويبدو أن همنغواي استخدم هذا المصطلح الغريب (الذي فيه شيء من الذم) لغاية في نفسه [الترجم].

شخص. بضاعة صفراء، قلت في نفسي. إذن هذا ما لديه،
بضاعة صفراء^(٢٣).

«أقدم لك السيد سنغ»، قال فرانكي وهو يبتسم. كان بالفعل
سريعا وكان يعلم ذلك.

«كيف حالك؟» قال السيد سنغ.

يكاد السيد سنغ يكون أملس شيء رأيته في حياتي. كان
تشنكيا لا غبار عليه، لكنه كان يتحدث كأنه إنجليزي، وكان
يرتدي بذلة بيضاء وقميصا من حرير وربطة عنق سوداء وقبعة
بانامية^(٢٤) ثمنها مائة وخمسة وعشرون دولارا.

«هل ستتناول القهوة؟» سألتني.

«إن تناولتها أنت».

«شكرا لك»، قال السيد سنغ. «هل نحن بمفردنا هنا؟».

«فيما عدا الموجودين في المقهى»، قلت له.

«لا بأس بهؤلاء»، قال السيد سنغ. «لديك قارب؟».

«ثمان وثلاثون قدما»، قلت له. «محرك كيرمث بقوة ١٠٠

حصان».

«آه»، قال السيد سنغ. «لقد تصورت أنه جرار».

«يمكنه حمل مائتين وخمسة وستين صندوقا من دون

إرهاق».

«هل تود تأجير لي؟».

«بأي شروط؟».

(٢٣) «البضاعة الصفراء» كناية عن العرق الآسيوي الأصفر [المترجم].

(٢٤) القبعة البانامية: قبعة خفيفة مصنوعة من قش ملون [المترجم].

«لا حاجة إلى ذهابك. سأتي بقبطان وطاقم من عندي».

«لا»، قلت له. «فأنا وقاربي لا نفترق».

«لقد فهمت»، قال السيد سنغ. «هلا تركتنا وحدنا؟». قال لفرانكي. لكن فرانكي ظل مهتما كما من قبل، وابتسم له.

«إنه أطرش»، قلت له. «ولا يفهم الإنجليزية كثيرا».

«لقد فهمت»، قال السيد سنغ. «أنت تتحدث الإسبانية. قل له ينضم إلينا لاحقا».

أومأت إلى فرانكي بإبهامي، فنهض وقصد المقهى.

«ألا تتحدث الإسبانية؟». سألته.

«بلى»، قال السيد سنغ. «والآن، ما الظروف التي تدعوك أو تجعلك تعيد النظر...؟».

«لقد أفلست».

«لقد فهمت»، قال السيد سنغ. «هل على الزورق أي دين؟ هل يمكن لأحد أن يقيم عليه دعوى؟».

«لا».

«حسن، إذن»، قال السيد سنغ. «كم من أبناء بلدي التمساء يستطيع قاربك أن يؤوي؟».

«تقصد يحمل؟».

«هذا ما قصدته».

«كم المسافة؟».

«رحلة يوم».

«لا أعرف»، قلت له. «يمكنه حمل اثني عشر إن كانوا من دون أمتعة».

«لن تكون لديهم أمتعة».

«إلى أين تريد حملهم؟».

«سأترك هذا لك أنت»، قال السيد سنغ.

«تقصد أين أنزلهم؟».

«سأأخذهم إلى تورتناس^(٢٥) حيث سيلتقطهم طراد».

«اسمع»، قلت له. «هناك منارة في جزيرة لوغره^(٢٦) في تورتناس وفيها محطة إرسال تبث في الاتجاهين».

«هذا صحيح»، قال السيد سنغ. «إذن، فمن السخف أن تنزلهم هناك».

«وماذا بعد؟».

«لقد قلت لك أن تأخذهم إلى تلك النواحي. هذا ما تتطلبه رحلتهم».

«أجل»، قلت له.

«أنزلهم حيث ترتئي».

«وهل سيأتي الطراد إلى تورتناس ليأخذهم».

«بالطبع لا»، قال السيد سنغ. «هذه فكرة سخيفة».

«كم ستدفع لي عن الرأس الواحد؟».

«خمسين دولارا»، قال السيد سنغ.

«لا».

«ما رأيك في خمسة وسبعين؟».

«ماذا تأخذ أنت عن الرأس الواحد؟».

(٢٥) تورتناس (وتعني بالإسبانية «سلاحف»): جزر صغيرة متناثرة في خليج المكسيك، إلى الجنوب الغربي من ولاية فلوريدا [المترجم].

(٢٦) لوغره: تعني بالإنجليزية سلحفاة بحرية ضخمة الرأس [المترجم].

«أوه، هذا أمر آخر. أنت تعلم أن هناك عدة أوجه، أو لنقل زوايا، لعملية إصدار التذاكر من قبلي. ولا يتوقف الأمر عند ذلك الحد». «أجل»، قلت له. «وهل يفترض بي أن أنقلهم لك مجاناً؟». «لقد فهمت قصدك تماماً»، قال السيد سنغ. «ما رأيك في مائة دولار عن كل نفر؟».

«اسمع»، قلت له. «هل تعلم كم سأسجن لو أمسكوا بي متلبساً بهذه الفعلة؟».

«عشر سنوات»، قال السيد سنغ. «عشر سنوات على الأقل. لكن لا يوجد ما يدعو إلى الذهاب إلى السجن، يا قبطاني العزيز. المخاطرة الوحيدة التي أمامك هي عندما تحمل ركابك. وكل ما عدا ذلك متروك لحسن تدبيرك». «وإن عادوا إليك؟».

«الأمر في غاية البساطة. كل ما هنالك هو أنني سأتهمك بالغدر بي. وبعدها أعيد لهم جزءاً مما دفعوه وأشحنهم ثانية. وهم يدركون، طبعاً، أن الرحلة لن تكون سهلة». «وماذا عني؟».

«أعتقد أنه سيتعين علي أن أخبر القنصلية». «لقد فهمت».

«ألف ومائتا دولار، أيها القبطان، مبلغ لا يستهان به في الظروف الراهنة».

«متى سأحصل على المال؟».

«مائتان عند الاتفاق وألف عند التحميل».

«وإذا هربت بالمائتين؟».

«لا يمكنني أن أفعل شيئاً»، قال مبتسماً. «لكنني أعلم أنك لن تفعل شيئاً من هذا القبيل، أيها القبطان».

«هل لديك المائتان الآن؟».

«طبعاً».

«ضعها تحت الطبق». وضعها. «حسن»، قلت له. «سأدفع الرسوم في الصباح وأغادر بحلول الظلام. والآن، قل لي أين نحمل؟».

«ما رأيك في باكوراناو؟»^(٢٧).

«لا بأس. هل رتبت لكل شيء؟».

«طبعاً».

«والآن إلى كيفية التحميل»، قلت له. «عليك أن تشعل ضوءين، الواحد فوق الآخر، عند الرأس البحري. وعندما أراهما سأتيك. وأنت ستوافيني بقارب وسنحمل من الزورق. ستأتي شخصياً وتجلب النقود معك. لن أسمح لأحد أن يطاء متن الزورق ما لم أقبض النقود».

«لا»، قال لي. «ستقبض نصف المبلغ عند بدء التحميل والنصف الآخر عند انتهائه».

«لا بأس»، قلت له. «هذا معقول».

«هل تفاهمنا على كل شيء؟».

«أعتقد ذلك»، قلت له. «لكن علي أن أتأكد أنه لا توجد أمتعة ولا أسلحة. ولا بنادق، لا سكاكين، ولا شفرات حلاقة، لا شيء على الإطلاق».

(٢٧) باكوراناو: بلدة ساحلية إلى الشرق من مدينة هافانا بنحو أحد عشر كيلومترا [المترجم].

«أيها القبطان»، قال السيد سنغ. «ألا تثق بي؟ ألا ترى أن مصالحننا متطابقة؟».

«هل ستتأكد بنفسك؟».

«أرجوك لا تخرجني»، قال لي. «ألا ترى كيف تتفق مصالحننا؟».

«لا بأس»، قلت له. «متى موعدنا؟».

«قبل منتصف الليل».

«حسن»، قلت له. «أعتقد أن هذا كل شيء».

«كيف تريد النقود؟».

«لا بأس بفئة المائة».

هب واقفا، ورأيتَه يمضي خارجا. ابتسم له فرانكي وهو يخرج. كان تشنكيا أملس بلا منازع.

أقبل فرانكي نحو طاولتي، وقال، «والآن؟».

«من أين تعرف السيد سنغ؟».

«إنه يشحن الصينيين»، قال فرانكي. «شغل كبير».

«منذ متى وأنت تعرفه؟».

«منذ سنتين تقريبا»، قال فرانكي. «واحد غيره كان يشحنهم

قبله. واحد قتله».

«وسيقتل أحدهم السيد سنغ، أيضا».

«أكيد»، قال فرانكي. «لَمْ لا؟ شغل كبير».

«وأي شغل؟».

«شغل كبير»، قال فرانكي. «صيني يروح ما يرجع. صيني آخر

يكتب رسالة يقول كل شيء تمام».

«رائع»، قلت له.

«هذا ناس صيني ما يعرف يكتب. ناس صيني يعرف يكتب ناس غني. ما في أكل. ياكل رز. مائة ألف صيني هنا. فقط ثلاثة حرمة صيني».

«لماذا؟»

«حكومة ما يسمح».

«بئس الحظ حظهم»، قلت له.

«إنت في شغل معاه؟»

«ربما».

«شغل كويس»، قال فرانكي. «أفضل من السياسة. فلوس كثير. شغل كبير».

«اشرب زجاجة من الشراب»، قلت له.

«إنت قلق خلاص؟»

«أي، وحق الجحيم»، قلت له. «لا قلق مع الشغل الكثير. أنا ممتن لك».

«كويس»، قال فرانكي، وربت على ظهري. «أنا مبسوط كثير. أنا يحب يشوفك مبسوط. ناس صيني شغل كويس، صح؟»

«رائع».

«أنا مبسوط خلاص»، قال فرانكي. رأيت أنه يكاد يجهش بالبكاء من فرط سعادته لأن كل شيء أصبح على ما يرام، لذلك ربتُ على ظهره. هكذا هو فرانكي.

أول شيء فعلته في الصباح هو أنني ذهبت إلى السمسار وطلبت منه أن يدفع لنا الرسوم. طلب مني قائمة بأفراد الطاقم

فقلت له لا يوجد .

«هل ستعبر بمفردك، أيها القبطان؟»

«نعم» .

«وماذا حل برفيقك؟»

«إنه يشرب كثيرا ويعريد»، قلت له .

«لكن ذهابك بمفردك أمر خطير جدا» .

«إنها تسعون ميلا فقط»، قلت له . «ثم هل تظن أن رفقة فاقد

الوعي في سفر كهذا تختلف عن عدمها؟» .

* * *

اتجهت بالزورق إلى مرسى ستاندرد أويل^(٢٨) على الطرف الآخر للميناء وملأت كلا الخزانين بالوقود . كان الزورق يتسع لنحو مائتي غالون إذا ملئ بالكامل . كان يعز علي أن أشتري الغالون بثمانية وعشرين سنتا ، لكنني لا أعلم أين يمكن أن نذهب . منذ أن رأيت التشنكي وأخذت النقود ، انتابني القلق حول هذه العملية . لا أعتقد أنني نمت طوال الليل . عدت بالزورق إلى مرسى سان فرانسيسكو ، فوجدت إدي ينتظرنني هناك .

«مرحبا ، يا هاري»، قال لي وهو يلوح بيده . قذفت له حبل المؤخرة ليربط به الزورق ، ثم صعد ، وكان أكثر طولا ، وإرهاقا ، وفقدانا للوعي من أي وقت مضى . لم أقل له شيئا . «ما رأيك في هروب صاحبنا جونسن ، يا هاري؟» . قال لي . «ماذا تعرف عن الموضوع؟» .

«أخرج من هنا ، أيها السم»، قلت له .

(٢٨) ستاندرد أويل : شركة نفط أمريكية عملاقة تأسست العام ١٨٦٨ ، واقتتح فرع لها في كوبا ودول البحر الكاريبي العام ١٨٨٢ [المترجم] .

«ألا تعتقد أن مصابك هو مصابي، يا أخي؟»
«أخرج من هنا»، قلت له.
لكنه استلقى في الكرسي ومد رجله إلى الأمام. «سمعت أننا سنعبر اليوم»، قال لي. «لذلك أظن أنه لا فائدة من بقائي هنا».
«أنت لست ذاهبا».
«ما بك، يا هاري؟ لا أرى ما يوجب غضبك مني».
«حقا؟ أخرج من هنا».
«أوه، هوّن عليك».
صفعته في وجهه، فهب واقفا، ثم تسلق إلى رصيف المرسى.
«ما كنت لأفعل بك شيئا من هذا القبيل، يا هاري»، قال لي.
«لن آخذك معي»، قلت له. «هذا كل ما عندي».
«لا بأس، لكن لماذا ضربيتي؟»
«لكي تصدق».
«ماذا تريدني أن أفعل؟ أبقى هنا وأموت جوعا؟»
«ولماذا تموت جوعا؟». قلت له. «يمكنك أن تجد عملا على متن العبارة. يمكنك أن تجد عملا يؤمن لك أجرة العودة».
«أنت لا تعاملني بإنصاف»، قال لي.
«من الذي عاملك بإنصاف، يا فاقد الوعي؟». قلت له. «أنت تغدر بأمك».
وهذه فعلا هي الحقيقة، لكنني ندمت على ضربه. أنت تعلم ما هو شعورك إن ضربت فاقد الوعي. لكنني لن أحمله معي في الظروف الراهنة، حتى لو أردت ذلك.
مضى في سبيله على رصيف المرسى، طويلا كأنه يوم بلا

إفطار. ثم استدار وعاد إلي.

«ما رأيك لو أقرضتني دولارا أو دولارين، يا هاري؟».

أعطيته خمسة دولارات من نقود التشكي.

«ما أعرفه هو أنك كنت دائما صديقي. فلماذا لا تأخذني

معك، يا هاري؟».

«أنت مجلبة للنحس».

«أنت غاضب ليس إلا»، قال لي. «لكن لا عليك، يا صديقي

القديم. أنا واثق بأنك ستسعد برؤيتي في قادم الأيام».

أما وقد حصل على النقود الآن فقد مضى على نحو أسرع

من ذي قبل، لكنني أؤكد لك أن مجرد رؤيته يمشي هي سم لي.

كان يمشي كأن مفاصله مركبة بالمقلوب.

ذهبت إلى مقهى الجوهرة، وقابلت السمسار، فأعطاني

الأوراق، وسقيته كأسا على حسابي. بعد ذلك تناولت طعام

الغداء، وجاء فرانكي.

«أعطاني أحدهم هذه من أجلك»، قال لي وناولني شيئا

ملفوفًا كأنه أنبوب ملفوف بورق ومربوط بخيط أحمر. بدت

اللفافة كأنها صورة عندما حللت رباطها، ثم رحت أفتحها فلنا

أنها صورة للقارب التقطها أحد العاملين في المرسى.

لا بأس. كانت صورة مقربة لرأس زنجي ميت وصدره، وقد

جز عنقه من الوريد إلى الوريد، ثم أعيدت خياطته بشكل أنيق،

وقد كتب بالإسبانية على بطاقة على صدره: «إلى هذا يؤول

مصير لنفواس لارغس».

«من أعطاك هذه؟». سألت فرانكي.

أشار إلى صبي إسباني يعمل في المراسي، ولما يمتهن النصب والاحتيال بعد. كان هذا الصبي يقف عند منضدة الأطعمة. «قل له أن يأتي إلى هنا».

جاء إليّ. قال إن اثنين ناولاه إياها في حوالي الحادية عشرة. سألاه إن كان يعرفني فقال لهما نعم. ثم أعطاهما لفرانكي كي يعطيني إياها. أعطياه دولارا كي يضمنا وصولها إليّ. قال إنهما كانا متأنقين في ملابسهما. «سياسة»، قال فرانكي. «نعم»، قلت له.

«يعتقدان أنك أخبرت الشرطة أنك ستقابل أولئك الصبيان في ذلك الصباح».

«هل أوصياك أن تبلغني شيئا؟». سألت الصبي الإسباني. «لا، فقط أن أعطيك تلك»، قال لي. «أنا مضطر إلى تركك الآن»، قلت لفرانكي. «سياسة تعبانة»، قال فرانكي. «تعبانة جدا».

للمت الأوراق التي أعطاني إياها السمسار، ودفعت الحساب وخرجت من المقهى، ثم عبرت الساحة واجتازت البوابة، وكنت سعيدا لأنني خرجت من المستودع إلى المرسى. لقد أرعبني ذاك الصبيان أيما رعب. لقد جعلهما الغباء يظنان أنني وشيت بتلك الشلة الأخرى. لا يختلف هذان الصبيان عن پانشو في شيء. لقد قادهما الخوف إلى الانفعال، والانفعال جعلهما يريدان أن يقتلا شخصا.

امتطيت الزورق وأحميت المحرك. وقف فرانكي على رصيف

المراسي يراقب. وكان يبتسم ابتسامة الأطرش المضحكة. عدت إليه وقلت:

«اسمع، لا تتورط في المتاعب من أجل هذا الأمر».

لم يسمعني، لذلك اضطررت إلى أن أصرخ.

«أنا مع سياسة كويس»، قال فرانكي، ثم حرر الزورق من المرساة، وقذف الحبل على متنه.

لوحث لفرانكي، واتجهت بالزورق من مزلق السفن نحو القنال. كانت هناك سفينة شحن بريطانية تخرج أيضا، فحاذيتها إلى أن تجاوزتها. خرجت من الميناء وتجاوزت إل مورو، ووجهت الزورق شمالا باتجاه كي وست (الجزيرة الغربية). تركت المقود ومضيت إلى مقدمة الزورق ولففت الحبل، ثم عدت لأبقي الزورق على مساره، بينما راحت هافانا تمتد وراءنا إلى أن حالت بيننا وبينها الجبال.

وبعد مدة اختفت إل مورو عن الأنظار، يليها الفندق الوطني، وأخيرا لم أعد أرى سوى قبة الكابيتول. لم يكن هناك تيار يذكر بالمقارنة مع آخر يوم اصطدنا فيه، ولم يكن هناك إلا نسيم خفيف. رأيت مركبي صيد يتجهان نحو هافانا، وكانا قادمين من جهة الغرب لذلك عرفت أن التيار خفيف.

قطعت الدارة وأطفأت المحرك. إذ لا مبرر لإهدار الوقود. تركت الزورق يسير على رسله. ومع حلول الظلام سأتمكن من الاهتمام بمصاييح إل مورو، أو إن جرفني التيار بعيدا، فبمصاييح كوخيمار، وعندها يمكنني أن أتجه بالزورق وأنطلق باتجاه باكوراناو. قدرت أن التيار سيجرف الزورق مسافة الاثني

عشر ميلا إلى باكوراناو مع حلول الظلام حيث سأتمكن من رؤية مصابيح باراكوا.

على أي حال، أطفأت المحرك وصعدت إلى المقدمة لكي ألقى نظرة من حولي. لم أر سوى هذين المركبين المتجهين شرقا إلى الميناء، وقبة الكابيتول وراء ذلك في الأفق البعيد، التي كانت تتصب ببيضاء عند طرف البحر. كانت هناك بعض الطحالب في الماء وبضعة طيور تحوم فوقها. جلست مدة في ركن الريان أطلع وأراقب، فلم أر سوى أسماك بنية صغيرة تحوم حول الطحالب. لا تصدق، يا أخي، من يقول لك إنه لا يوجد ماء كثير بين هافانا وكوي وست. فأنا كنت أقف على حافته فقط.

وبعد مدة عدت إلى ركن الريان، فإذا بإيدي هناك!
«ما الأمر؟ ماذا جرى للمحرك؟».

«لقد تعطل».

«لماذا لم تغلق الباب؟».

«أوه، اخرس بحق الجحيم!» قلت له.

هل تعرف ماذا فعل؟ عاد إلى الزورق وتسلسل من الباب الأمامي ونزل إلى القمرة ثم نام. كان قد جلب معه ربيعيتين من المشروب. كان قد ذهب إلى أول مقهى رآه، فاشتراهما، وعاد إلى الزورق. كان قد استيقظ عندما شغلت المحرك، لكنه عاد للنوم. وعندما أوقفت الزورق في عرض الخليج وراح الموج يهدده قليلا، استيقظ ثانية.

«كنت أعرف أنك ستأخذني معك، يا هاري»، قال لي.

«سأخذك إلى الجحيم»، قلت له. «أنت لست حتى على قائمة

الطاقم. يخطر ببالي أن ألقى بك هنا في البحر». «أنت صاحب نكتة قديم، يا هاري»، قال لسي. «علينا، نحن محار البحر، أن نساند بعضنا بعضا عندما تضيق بنا السبل». «أنت، أيها الثرثار؟ ومن سيثق بك بعد اليوم عندما تغضب وتنفعل؟».

«أنا رجل طيب، يا هاري. ضعني على المحك وسترى أي رجل طيب أنا».

«أعطني الربيعتين»، قلت له. كنت أفكر في شيء آخر. أخرجتهما فأخذت جرعة من الربعية المفتوحة، ثم وضعتهما بجانب المقود. ظل واقفا في مكانه، ونظرت إليه. أشفقت عليه مما أنا مقدم عليه لا محالة. اللعنة، لقد كنت أعرفه عندما كان رجلا طيبا.

«ما به الزورق، يا هاري؟».

«إنه على ما يرام».

«إذن، ما الأمر؟ لماذا تنظر إليّ على هذا النحو؟».

«أنت في ورطة كبيرة، يا أخي»، قلت له وأنا مشفق عليه.

«ماذا تقصد، يا هاري؟».

«لا أعرف بعد»، قلت له. «لم أخطط لكل شيء بعد».

بقينا جالسين مدة ولم تعد لدي رغبة في الحديث إليه. إذ بعد أن اتضحت الخطة في رأسي، صار عسيرا علي أن أحدثه. بعد ذلك نزلت إلى أسفل وأخرجت بندقية الضغط وبندقية ونشستر ٣٠ - ٣٠ اللتين كنت دائما أحفظ بهما في قمرة الركاب، وعلقتهما من جرابيهما في ركن الريان في المكان

الذي كنا نعلق فيه الصنارات عادة، فوق المقود حيث يسهل علي تناولهما. كنت أحفظهما مزيتتين في جرابين طويلين من جلد الخراف المقصوص صوفه. فهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنك أن تحميها بها من الصدأ في الزورق.

حللت بندقية الضغط وحركتها عدة مرات، ثم ملأت المخزن وألقمت واحدة في حجرة النار. بعد ذلك وضعت طلقة في حجرة الونتشستر وملأت مخزنها. ثم أخرجت من تحت الفراش مسدسا من طراز سمث آندوسون ٣٨ خصوصي، أحفظ به من أيام خدمتي في شرطة ميامي، ثم نظفته وزيته وملأته ووضعت تحت نطاقي.

«ما الأمر؟» قال إدي. «قل لي بحق الجحيم ما الأمر؟»

«لا شيء»، قلت له.

«ولماذا كل هذه الأسلحة اللينة؟»

«أنا دائما أحملها على متن الزورق»، قلت له. «لقتل الطيور التي تنقض على الطعوم، أو لقتل أسماك القرش التي تجوب سواحل الجزر الصغيرة».

«اللينة، قل لي ما الأمر؟» قال إدي. «ما الأمر؟»

«لا شيء»، قلت له. جلست وبندقية ونتشستر القديمة تخبط ساقي عندما تتمايل، ورحت أنظر إليه. قلت في نفسي: لا معنى للقيام بالأمر الآن. فأنا في حاجة إليه الآن.

«سننفذ مهمة بسيطة»، قلت له. «في باكوراناو. سأخبرك بما

هو مطلوب حين يحين الوقت».

لم أرغب في إخباره قبل الأوان بوقت طويل لأن القلق سينتابه،

وسيضطرب من الرعب فيصبح عديم الفائدة.

«لن تجد خيرا مني، يا هاري»، قال لي. «أنا لها. أنا معك في كل شيء».

نظرت إليه، طويلا، مرهقا، مرتعدا، فلم أقل شيئا.

«اسمع، يا هاري. هل لك أن تعطيني واحدة فقط؟». قال

لي^(٢٩)، «لا أريد أن ينتابني الرجفان».

أعطيته واحدة ورحنا ننتظر حلول الظلام. كان الغروب رائعا، وكان هناك نسيم لطيف عليل، وبعد غروب الشمس بمدة، شغلت المحرك واتجهت بالزورق ببطء نحو البر.

انتظرنا في الظلام على مسافة ميل تقريبا عن الشاطئ. تجدد التيار مع غروب الشمس، وقد رأيته يتدفق باتجاه الشاطئ. صار بإمكانني أن أرى منارة إل مورو إلى الجهة الغربية وأنوار هافانا المتوهجة، وأمامنا تماما كنت أرى أنوار رنكون وباراكوا. وجهت الزورق بعكس التيار إلى أن تجاوزت باكوراناو واقتربت من كوخيمار. ثم تركت التيار يجرفه معه. كان الظلام حالكا، لكنني كنت أعرف أين نحن. وكنت قد أطفأت جميع الأنوار.

«ما الذي تتويه، يا هاري؟». سألني إدي، وقد انتابه الرعب ثانية.

«ماذا ترى أنت؟».

«لا أعرف. لقد أفلقتني». كان قاب قوسين أو أدنى من الانهيار، وعندما اقترب مني كان يتنفس كالرعيد.

«كم الساعة؟».

(٢٩) ما يطلبه إدي هنا هو جرعة من المشروب، وليس بندقية، كما قد يتبادر للذهن [المترجم].

«سأنزل لأرى»، قال لي. صعد إلى السطح ثانية وقال إنها التاسعة والنصف.

«هل أنت جائع؟».

«لا. أنت تعلم أنني لا أستطيع أن أكل، يا هاري».

«حسن»، قلت له. «يمكنك أن تأخذ واحدة».

وبعد أن تناولها سألته كيف صار، فقال إنه بخير.

«سأعطيك المزيد بعد قليل»، قلت له. «فأنا أعلم أنك جبان

ما لم تشرب، وليس لدينا في هذا الزورق الكثير مما تشربه.

لذلك يجدر بك أن تهون على نفسك».

«قل لي ماذا تتوي»، قال إدي.

«اسمع»، قلت له في الظلام. «سنذهب إلى باكوراننا ولنلتقط

اثني عشر تشنكيا. ستتولى قيادة الزورق عندما أقول لك، وستفد

ما أقوله لك. سننقل التشنكيين الاثني عشر على متن الزورق، ثم

سننزلهم إلى الأسفل حيث سنغلق عليهم في مقدمته. اذهب الآن

إلى مقدمة الزورق وأحكم إغلاق الباب من الخارج».

ذهب ورأيت ظله يرتسم في الظلام. عاد وقال، «هاري، هل

لي بواحدة من تلك الآن؟».

«لا»، قلت له. «فأنا أريد أن يجعلك المشروب شجاعا لا عديم

النفع».

«أنا رجل طيب، يا هاري. وسترى».

«بل أنت تشرب كثيرا»، قلت له. «اسمع. سيقوم أحد

التشنكيين بإحضار أولئك الاثني عشر. وسيعطيني بعض المال

في البداية. وعندما يصبح الجميع على متن الزورق، سيعطيني

بقية المبلغ. فعندما تراه يناولني المال في المرة الثانية، عليك أن تدير رأس الزورق وتنطلق به بأقصى سرعة إلى عرض البحر. ولا تكثرث بما يجري. عليك أن تبقى منطلقا مهما كان. مفهوم؟»

«نعم».

«إن حاول أحد التشنكيين الخروج من قمرة الركاب أو من خلال ذلك الباب ونحن في عرض البحر، فخذ بندقية الضغط تلك وأعدهم إلى أماكنهم بأسرع ما تستطيع. هل تعرف كيف تستخدم بندقية الضغط؟»

«لا. لكنك ستريني».

«لن نتذكر. هل تعرف كيف تستخدم بندقية ونتشستر؟»

«ما عليّ إلا أن أضغط العتلة وأطلق».

«هذا صحيح»، قلت له. «لكن إياك أن تخرق بدن الزورق».

«يجدر بك أن تعطيني جرعة أخرى»، قال إدي.

«لا بأس. سأعطيك جرعة قليلة».

أعطيته جرعة لا بأس بها. كنت أعلم أنه لن يشرب كثيرا الآن وهو على هذه الحال من الهلع. لكن مفعول الجرعة لن يدوم طويلا. وبعد أن تناول إدي هذه الجرعة، قال كما لو كان سعيدا: «إذن، سنهرب تشنكيين. لقد أقسمت في يوم من الأيام أنني سأهرب الصينيين لو أفلست».

«وأنت لم تفلس حتى الآن، أليس كذلك؟». كان مضحكا

بلا منازع.

قبل العاشرة والنصف أعطيته ثلاث جرعات أخرى لأحافظ

على شجاعته. كنت أضحك وأنا أراقبه، كما أنه ألهاني عن التفكير في الأمر. لم أحسب حساباً لكل هذا الانتظار. كنت قد خططت للمغادرة بعد حلول الظلام، ثم أنطلق، بعيداً عن الأضواء، بمحاذاة الشاطئ حتى كوخيمار.

قبيل الحادية عشرة رأيت النورين عند الرأس البحري. انتظرت قليلاً، ثم توجهت بالزورق ببطء. باكوراناو خليج صغير كان فيه مرسى كبير لتحميل الرمل. هناك نهر يسيل عندما تفتح الأمطار السد الذي يعترض فم الخليج. في الشتاء تجمع الرياح الشمالية الرمال فتغلقه.

كان أصحاب الطرادات يدخلون لتحميل الجوافة من النهر، كما كانت هناك بلدة. لكن الإعصار دمرها فلم يبق منها سوى بيت واحد بناه بعض الغاليفوس من بقايا الأكواخ التي عصف بها الإعصار، وجعلوه نادياً يرتادونه أيام الأحد عندما يأتون من هافانا للسباحة والتتزه. هناك بيت آخر يعيش فيه مندوب الحكومة، لكنه بعيد عن الشاطئ.

في كل محلة صغيرة على طول الشاطئ يوجد مندوب حكومي، لكنني تصورت أن التشنكي لا بد أن يستخدم زورقاً خاصاً به وأن يكون قد رشاه. عندما اقتربنا شممت رائحة الطحالب وتلك الرائحة العذبة التي تهب عليك من شجيرات البر.

«تقدم باتجاه الشاطئ»، قلت لإدي.

«لا يوجد ما ترتطم به من هذه الجهة»، قال لي. «فالحيد^(٢٠) موجود على الطرف الآخر عندما تدخل». لقد كان، كما ترى،

(٢٠) الحيد: حرف صخري، إما مغمور تحت سطح الماء بقليل أو بارز فوقه بقليل [المترجم].

رجلا طيبا في يوم من الأيام.

«راقبه»، قلت له ورحت أوجه الزورق إلى حيث يمكنهم أن يرونا. ومع غياب الأمواج المتكسرة، كان بإمكانهم أن يسمعو صوت المحرك. لم أكن راغبا في الانتظار، إذ لم أكن أعرف إن كانوا قد رأونا أو لا، لهذا غمزت لهما مرة واحدة فقط بغمازي التوجيه الأحمر والأخضر، ثم أطفأتها. وبعد ذلك أدت رأس الزورق باتجاه عرض البحر، ثم انتظرت بعيدا عن الخليج، بينما المحرك يتكتك ببطء. كان البحر يموج بعيدا عن الشاطئ.

«تعال إلى هنا»، قلت لإدي، ثم ناولته جرعة لا بأس بها. «هل تصليها أولا بإبهامك؟». سألني همسا. كان يجلس خلف المقود الآن، وكنت قد تناولت الجرابين وفتحتهما وأخرجت أخمصي البندقيتين مسافة ست بوصات تقريبا. «هذا صحيح».

«يا حبيبي!» قال إدي.

كان المشروب يجترح العجائب معه وبسرعة. انتظرنا هناك وكان بإمكانني أن أرى مصباحا من بيت المندوب يومض من بين الشجيرات. رأيت المصباحين ينخفضان عند الرأس البحري، بينما استدار أحدهما حوله. لا بد أنهما أطفأوا أحدهما.

وبعد قليل رأيت قاربا يخرج من الخليج ويتجه صوبنا، وكان رجل يسيره بمجداف. عرفت ذلك من حركة القارب إلى الأمام والخلف. وعرفت أن لديه مجدافا كبيرا. سعدت كثيرا. فالتجديف يعني أنه لا يوجد سوى رجل واحد.

صاروا بمحاذاتنا، فقال السيد سنغ:

«مساء الخير، أيها القبطان».

«أذهب إلى مؤخرة الزورق وضعه بشكل عرضاني»، قلت له.
قال شيئاً للرجل الذي كان يجدف لكنه كان عاجزاً
عن توجيه القارب إلى الوراء، لذلك أمسكت بشفيره
وسحبته إلى مؤخرة زورقنا. كان هناك ثمانية رجال في
القارب. ستة تشنكيين، والسيد سنغ، والصبي وراء المجداف.
بينما كنت أسحب القارب إلى مؤخرة زورقنا كنت أتوقع أن
يضريني أحدهم على رأسي، لكن شيئاً من هذا القبيل لم
يحدث. اعتدلت واقفا وتركت السيد سنغ يمسك بمؤخرة
الزورق.

«دعنا نر ماذا لديك»، قلت له.

ناولنا إيها فأخذتها إلى حيث كان إدي يتولى القيادة، فأشعلت
ضوء البوصلة. نظرت إليها بتمعن. كانت على ما يرام، فأطفأت
الضوء. كان إدي يرتعد.

«صب لنفسك واحدة»، قلت له. رأيته يتناول الزجاجاة
ويرفعها.

عدت إلى مؤخرة الزورق.

«حسن، دع ستة يركبوا»، قلت له.

كان السيد سنغ والمجدف الكوبي يكابدان لمنع قاربهما
من الانقلاب بسبب الأمواج. سمعت السيد سنغ يقول شيئاً
بالتشنكية، فبدأ التشنكيون يتسلقون مؤخرة الزورق.

«واحد، فواحد»، قلت له.

قال شيئاً مرة أخرى، فتسلق التشنكيون الستة مؤخرة الزورق،

الواحد تلو الآخر. وكانوا من مختلف الأطوال والأحجام.
«خذهم إلى المقدمة»، قلت لإدي.
«تفضلوا معي، أيها السادة»، قال إدي، فعلمت، علم اليقين،
أنه تناول جرعة كبيرة.
«أغلق قمرة الركاب»، قلت له بعد أن دخلوا جميعاً.
«نعم، يا سيدي»، قال إدي.
«سأذهب لآتي بالبقية»، قال السيد سنغ.
«لا بأس»، قلت له.
دفعت قاربهما حتى أبعدته عن الزورق، فراح الصبي الذي
معه يجدف.
«اسمع»، قلت لإدي. «اترك تلك الزجاجاة. فأنت شجاع الآن
بما يكفي».
«حسن، أيها الرئيس»، قال إدي.
«ماذا جرى لك؟»
«هذا ما أحب أن أفعله»، قال إدي. «كل ما هنالك هو أن
ترجعه إلى الخلف بإبهامك؟»
«أعطني جرعة من تلك الزجاجاة، أيها القذر يا فاقد
الوعي».
«لم يعد فيها شيء»، قال إدي. «آسف، أيها الرئيس».
«اسمع. كل ما عليك أن تفعله الآن هو أن تتولى أمر الزورق
عندما يناولني المال وتتطلق به بسرعة إلى عرض البحر».
«حسن، أيها الرئيس»، قال إدي.
تناولت الزجاجاة الأخرى وفتحتها بالمفتاح. أخذت منها

جرعة جيدة ثم عدت إلى مؤخرة الزورق، بعد أن أحكمت إغلاق الزجاجاة ووضعتها خلف الإبريقين المليئين بالماء.

«ها قد أتى السيد سنغ»، قلت لإدي.

«نعم، يا سيدي»، قال إدي.

أقبل القارب نحونا.

وجهه هو إلى مؤخرة الزورق وتركتهما يقومان بتثبيته إلى زورقنا. أمسك السيد سنغ بالمرداس الذي نستخدمه في مؤخرة

الزورق لسحب الأسماك الكبيرة إلى سطح المركب.

«دعهم يركبوا، الواحد تلو الآخر»، قلت له.

تسلق ستة تشنكيين مفروزين الزورق من مؤخرته.

«افتح وخذهم إلى المقدمة»، قلت لإدي.

«نعم، يا سيدي».

«أقفل قمرة الركاب».

«نعم، يا سيدي».

رأيت خلف المقود.

«والآن، يا سيد سنغ، دعنا نر البقية».

مد يده في جيبه وأخرج النقود. مددت يدي نحوها

وأمسكت به من رسغه والنقود في يده، وعندما سحبته إلى

سطح المركب أمسكت به من حلقه باليد الأخرى. شعرت

بالمحرك يشتغل ثم يتحرك باضطراب بعد تعشيق ناقل

السرعة. وبينما أنا منشغل بمعالجة السيد سنغ، رأيت الكوبي

يقف في مؤخرة قاربه ممسكا بمجدافه لا يأتي بحركة بينما

السيد سنغ يخيبط ويقفز. كان يخيبط ويقفز أسوأ من دلفين

شك برمح صياد .

لويت ذراعه وراء ظهره ثم سحبته إلى فوق، لكنني تماديت في سحبها فشعرت بها تتخلع. وعندما انخلعت سمعته يصدر صوتا خفيضا مضحكا، ثم انكفأ إلى الأمام، بينما أنا أمسك به من حلقه وكل شيء، فعرضني من كتفي. لكن عندما شعرت بذراعه تتخلع، تركتها. لم تعد تتفعه بشيء، فأمسكت به من حلقه بكلتا يدي، وراح السيد سنغ، يا أخي، يقفز تاما كالسمكة، وكانت يده المخلوعة تتأرجح، ثم جعلته يجثو على ركبتيه وقد غرزت إبهامي وراء حنجرته ولويتها إلى الخلف حتى طقطقت. لا تقل لي إنك لا تسمعها تطقطق.

أمسكته بلا حراك لحظة ثم مددته على مؤخرة الزورق. تركته يتمدد لا يأتي بحركة، بكامل حلتة، ووجهه إلى الأعلى، بينما قدماه في ركن الريان.

التقطت النقود من الأرض وحملتها إلى ضوء البوصلة وعددتها. ثم أخذت المقود من إدي وأمرته أن يبحث في مؤخرة الزورق عن قطع من الحديد كنا نستخدمها مراسي عندما كنا نصطاد السمك في الأعماق في بعض الأماكن أو في القيعان الصخرية حيث لا تريد أن تجازف بالمرساة التي لديك.

«لم أجد شيئا»، قال إدي. وكان يرتعد من وجوده قريبا من السيد سنغ.

«خذ المقود»، قلت له. «ابق متجها نحو عرض البحر».

كان هناك قدر من الحركة في قمرة الركاب لكنني لم أفزع

منها.

وجدت قطعتين مما كنت أريد - قطعتي حديد من مرسى الفحم القديم في تورتناس - وتناولت خيط صنارة وربطت به القطعتين إلى كاحلي السيد سنغ. وبعد أن ابتعدنا مسافة ميلين عن الشاطئ دحرجته في الماء. انزلق بسلاسة فوق المرءاس. ولم أفتش جيوبه أبدا. لم أشعر برغبة في العبث به.

كان قد نزع قليلا من أنفه وفمه ولطخ مؤخرة الزورق، فغرفت دلو من الماء كاد يسحبني من فوق الزورق بسبب السرعة، ونظفت الزورق تنظيفا جيدا بفرشاة قاسية.

«خفف السرعة»، قلت لإدي.

«لكنه قد يطفو»، قال إدي.

«لقد قذفته في مياه يبلغ عمقها سبعمائة قامة»، قلت له^(٣١)

«وسينزل كل هذا العمق. وهي مسافة طويلة، يا أخي. ولن يصعد حتى ترفعه الغازات، وقد جرفه التيار معه، وصار طعاما للأسماك. أستحلفك بحق الجحيم ألا تقلق على السيد سنغ».

«ماذا كان لك عليه؟». سألني إدي.

«لا شيء». لقد كان أسهل رجل تعاملت معه في حياتي. لكنني

لم أتمكن إطلاقا من الاطمئنان إليه».

«لماذا قتلته؟».

«لأمنع نفسي من قتل اثني عشر تشنكيا آخر»، قلت له.

«هاري، عليك أن تعطيني واحدة لأنني أشعر بالنوبة قادمة

(٣١) القامة: مقياس تسير به أعماق المياه ويساوي ست أقدام. بمعنى آخر، يبلغ عمق المياه التي قذف فيها السيد سنغ ١٢٨٠ مترا [المترجم].

إلي. لقد أصابتي رؤية رأسه يتدلى على ذلك النحو بالغثيان». أعطيته واحدة.

«وماذا سنفعل بالتشنكيين؟». سألتني إدي.

«أريد أن أخرجهم بأقصى سرعة ممكنة»، قلت له. «قبل أن يشموا الرائحة».

«أين تريد أن تلقي بهم؟».

«سننطلق بهم إلى الشاطئ الطويل»، قلت له.

«نذهب الآن؟».

«أجل، نذهب الآن ببطء»، قلت له.

عبرنا بهدوء فوق الحيد إلى حيث تمكنت من رؤية خط الشاطئ يلمع. كان الماء كثيرا فوق الحيد، وبعد ذلك يصبح القاع رمليا ينحدر باتجاه الشاطئ.

«انهض واسبر لي العمق من مقدمة الزورق».

راح يسبر العمق بالمسبار، ويومئ لي به. ثم عاد وأشار لي أن توقف. ذهبت إلى مؤخرة الزورق.

«لديك نحو خمس أقدام».

«علينا أن نلقي بالمرساة»، قلت له. «وإن حدث شيء وليس

لدينا الوقت، فإما نرفعها أو نقطعها».

دلى إدي حبل المرساة إلى أن أيقن رسو الزورق جيدا، ثم ربطه. راحت مؤخرة الزورق تتمايل.

«القاع رملي هنا، كما تعلم»، قال لي.

«كم عمق المياه عند المؤخرة؟».

«ليس أكثر من خمسة أقدام».

«خذ البندقية»، قلت له. «وكن حذرا».

«دعني أتناول واحدة»، قال لي، وكان شديد التوتر.

أعطيته واحدة، وتناولت بندقية الضغط. فتحت باب قمرة الركاب، وقلت لهم: «هيا اخرجوا».

لكن لا حياة لمن تنادي.

ثم أخرج تشنكي رأسه، ورأى إدي يطل فوّه ببندقية، فتراجع مسرعا.

«هيا اخرجوا، وعليكم الأمان»، قلت لهم.

لكن لا حياة لمن تنادي. فقط كثير من اللغط بالتشنكية.

«هيا، اخرجوا أيها الـ...»، قال لهم إدي، فعلمت علم اليقين أنه شرب الزجاجة.

«اترك الزجاجة»، قلت له، «وإلا نسفتك من فوق القارب بطلقة واحدة».

«هيا اخرجوا»، قلت لهم، «وإلا أطلقت النار عليكم».

رأيت أحدهم ينظر إلى زاوية الباب، واتضح لي أنه رأى الشاطئ لأنه راح يكركر.

«هيا، وإلا أطلقت النار»، قلت لهم.

فخرجوا.

دعني أقل لك إنه لن يقتل مجموعة من التشنكيين إلا رجل لثيم، وأؤكد لك أنه ستتجم عن ذلك المتاعب الكثيرة، إضافة إلى التورط في أمر له أول وليس له آخر.

خرجوا مذعورين ولا أسلحة لديهم، لكنهم كانوا اثني عشر.

مشيت القهقري حتى بلغت مؤخرة الزورق، وأنا أمسك ببندقية

الضغط. «هيا، اقفزوا في الماء»، قلت لهم. «لن تغمر رؤوسكم». لا حياة لمن تتادي.

«اقفزوا في الماء، أيها الأغراب الصفر، أكلة الجردان»، قال لهم إدي.

«اخرس أنت، يا فاقد الوعي»، قلت له.

«لا نسبح»، قال أحد التشنكيين.

«لست في حاجة للسباحة»، قلت له. «ليست عميقة».

«هيا، اقفزوا في الماء»، قال لهم إدي.

«تعال إلى مؤخرة الزورق»، قلت له. «خذ البندقية بيد،

والمسبار باليد الأخرى، وأرهم كم عمق الماء».

ففضل.

«لا حاجة للسباحة؟». سألني التشنكي.

«لا حاجة».

«حقا؟».

«حقا».

«أين نحن؟».

«في كوبا».

«أيها النصاب اللعين»، قال وهو يتعلق بحافة الزورق، ثم

تركها. غاص رأسه في الماء، لكنه صعد وصار ذقنه فوق الماء.

«نصاب لعين»، قال. «نصاب لعين».

كان شديد الغضب والشجاعة أيضا. قال شيئا بالتشنكية،

فراح الآخرون يقفزون من مؤخرة الزورق إلى الماء.

«حسن»، قلت لإدي. «ارفع المرساة».

وبينما نحن نتجه إلى عرض البحر، راح القمر يطلع وكان بإمكانك أن ترى رؤوس التشنكيين بارزة فوق الماء بقليل، وهم يسيرون نحو الشاطئ، ومن ورائهم لمعان الشاطئ والشجيرات. تجاوزنا الحيد فالتفت ورائي ورأيت الشاطئ والجبال تبرز رويدا رويدا، عندئذ وجهت الزورق نحو كي وست.

«يمكنك الآن أن تنام»، قلت لإدي. «بل انتظر. انزل وافتح جميع النوافذ لتخرج الرائحة المنتنة، ثم اجلب لي اليهود.»

«ما بك؟» قال لي عندما جاء به.

«لقد جرحت إصبعي.»

«هل تريدني أن أقود؟»

«بل اذهب للنوم»، قلت له. «سأوقظك بنفسي.»

استلقى على السرير في قمرة الريان الكائن فوق خزان الوقود، ثم نام بعد قليل.

وضعت ركبتي على المقود لأثبتته وفتحت قميصي ورأيت أين عضني السيد سنغ. كانت عضه لا بأس بها، فوضعت اليود عليها، ثم جلست أوجه الزورق ورحت أتساءل إن كانت عضه الصيني سامه، وكنت أستمع لهدير الزورق السلس، وكان الماء ينساب من حوله، ثم جزمت أن عضه الصيني ليست سامه. فمن الأرجح أن رجلا مثل السيد سنغ كان يفرك أسنانه مرتين أو ثلاثا في اليوم الواحد^(٣٢)، نعم، هكذا هو السيد سنغ. لم يكن بالتأكيد رجل أعمال ناجح. ومن يدري، لعله كان كذلك. لعله

(٣٢) لا يفرن القارئ هذا المديح الظاهري، لأن الكلمة التي يستخدمها الراوي (scrubbed) ليست مما يستخدم عادة لفرك الأسنان، بل لفرك كل ما هو شديد الاتساخ ويحتاج إلى تنظيف بفرشاة قاسية [المترجم].

وثق بي. لكنني أقول لك إنني لم أستطع سبر غوره.
على أي حال، هانت الأمور الآن لولا إدي. فلأنه يشرب كثيرا
سيحدث عندما ينفعل. وأنا جالس أقود الزورق نظرت إليه،
ورحت أفكر: وحق الجحيم، إن حياته هذه هي وموته سيان عندي،
وبعدها تنتهي متاعبي. عندما وجدته على متن الزورق، قررت أن
أتخلص منه، لكن عندما آلت الأمور إلى هذه النهاية الحسنة لم
يطاوعني قلبي. لكن وجوده مستلقيا أمام ناظري أمر مفر. لكنني
فكرت وقلت في نفسي، لا فائدة من إفساد الأمر بشيء ستندم
عليه لاحقا. ثم خطر لي أنه لم يكن حتى على قائمة الطاقم، مما
يوجب أن أدفع غرامة عنه، فاحترت في أمره.

على أي حال، لا زال أمامي متسع من الوقت للتفكير في
مصيره، ورحت أوجه الزورق إلى مساره، وكنت بين الفينة
والأخرى أتناول جرعة من الزجاجة التي جلبها معه. لم يكن
فيها كثير، وعندما انتهت، فتحت الزجاجة الوحيدة التي تركتها،
وصدقني إنني كنت منتشيا وأنا أقود الزورق، وكانت ليلة مواتية
للمبور. لقد كانت رحلة رائعة، في نهاية المطاف، رغم ما شابها
من متاعب في كثير من الأحيان.

عندما أشرق الصبح، استيقظ إدي وقال إنه على غير
ما يرام.

«خذ المقود لحظة»، قلت له. «أريد أن أستطلع الأمور».

عدت إلى مؤخرة الزورق ورششت قليلا من الماء عليها. لكنها
كانت في غاية النظافة. فركت جانب الزورق بالفرشاة. أفرغت
البندقيتين من الطلقات وخبأتها في الداخل. لكنني احتفظت

بالمسددس الذي تحت نطاقي. كان الجو منعشا ورائعا كما تريده في الداخل، بلا رائحة على الإطلاق. لقد دخل قليل من الماء من النوافذ في ميمنة الزورق، لا أكثر ولا أقل. لذلك أغلقت جميع النوافذ. فالآن لن يستطيع أي ضابط جمارك في العالم أن يشم رائحة تشنكية في هذا الزورق.

رأيت أوراق التخليص في الحقيبة الشبكية التي تتدلى من تحت رخصة الزورق الموضوعة في إطار حيث دسستها عندما ركبت الزورق، فأخذتها لأراجعها. ثم ذهبت إلى قمرة الريان.

«اسمع»، قلت له. «كيف وضعت اسمك على قائمة الطاقم؟»
«قابلت السمسار عندما كان في طريقه إلى القنصلية وقلت له إنني سأذهب معك».

«إن الله يعتني بفاقدي الوعي»، قلت له، ثم نزع الثمانية والثلاثين^(٢٣) وخبأته في الداخل.

صنعت قهوة في الداخل، ثم صعدت وتوليت القيادة.

«هناك قهوة في الداخل»، قلت له.

«إن القهوة لا تصلح لي، يا أخي». لا مناص لك من الإشفاق عليه. لقد كان مظهره يرثى له حقا.

في حوالي التاسعة رأينا منارة ساند كي (جزيرة الرمال) وقد أوشكت على الانطفاء. صار لنا مدة ونحن نرى ناقلات بحرية تتجه نحو الخليج.

«سندخل الآن»، قلت له. «سأعطيك أربعة دولارات عن كل يوم

(٢٣) الإشارة هنا إلى مسددس من طراز سمث آند وسون ٢٨، وقد مر ذكره سابقا في هذه القصة [المترجم].

كما كان يعطيك جونسن».

«كم كسبت من ليلة أمس؟». سألتني.

«ستمائة فقط»، قلت له.

لا أعرف إن صدقني أو لا.

«أليس لي فيها حصة؟».

«هذه هي حصتك»، قلت له. «ليس لك إلا ما قلته لك، وإن

تفوهت بشيء عما حدث ليلة أمس، ستصلني الأخبار وسأخلص منك».

«أنت تعلم، يا هاري، أن الخيانة ليست من طبعي».

«أنت تشرب كثيرا. لكن حتى إن انطلق عثار لسانك بسبب

كثرة الشراب وتحدثت عما جرى، فسأنفذ ما وعدتك به».

«أنا رجل طيب، ولا يجوز لك أن تكلمني بهذه الطريقة»، قال

لي.

«ومن يضمن لي أنك ستبقى رجلا طيبا؟». قلت له.

لكنه لم يعد يقلقني، إذ من سيصدق فاقد الوعي؟ والسيد

سنغ لن يرفع دعوى. وكذلك لن يفعل التشنكيون. وكذلك لن

يفعل الصبي صاحب القارب. سيثرثر إدي إن عاجلا أو آجلا،

لكن من سيصدق فاقد الوعي؟

بالأحرى، أين الدليل ضدي؟ لا شك في أن وجوده على قائمة

الطاقم ستثير مزيدا من القيل والقال. ها قد جد حظي، بلا منازع.

بإمكانني أن أقول إنه سقط من الزورق، لكن هذا سيثير الثرثرة.

وها قد جد حظ إدي، أيضا. نعم، جد حظنا نحن الاثنين.

وبعد ذلك بلغنا طرف التيار وتلاشى لون الماء الأزرق وصار

يميل نحو الاخضرار الفاتح، ولما دخلنا رأيت الأوتاد التي تعلم
الحيد الطويل والصخور الغريبة الجافة، كما رأيت أيضا أعمدة
اللاسلكي في كي وست وفندق لاونشا ينتصب عاليا فوق
البيوت، والدخان يرتفع من محرقة القمامة. اقتربنا الآن من
منارة ساند كي، وصار بإمكانك أن ترى عنبر الزوارق والمرسى
الصغير بمحاذاة المنارة، فأيقنت أننا أصبحنا على مسافة أربعين
دقيقة، فانتشيت بعودتي ولدي ما أقيم به أودي في الصيف.
«ما رأيك في جرعة، يا إدي؟». قلت له.
«آه، هاري، لم أشك قط في كونك صديقي»، قال لي.

عودة التاجر (١٩٣٦)

عبرا من الطرف الآخر ليلا، وكانت الريح العاتية تهب من الشمال الغربي. ولما ارتفعت الشمس رأى ناقلة نفط تتهاذى في الخليج، فتتنصب بيضاء شامخة تحت أشعة الشمس وبرودة الهواء كأنها مبان تشمخ سامقة وسط البحر، فقال للزنجي، «قل لي بحق السماء أين نحن؟».

نهض الزنجي لينظر.

«لا تشبه هذه ميامي في شيء».

«أنت تعلم جيدا أن قاربنا لم يحملنا إلى ميامي»، قال للزنجي.

«كل ما أقوله هو أنه لا توجد مثل هذه المباني في جزر فلوريدا».

«كنا نتجه صوب جزيرة الرمال».

«إذن، لا بد أن نراها. إما هي أو المياه الأمريكية الضحلة».

وبعد هنيهة تبين له أنها ناقلة نفط وليسست مباني، وبعد أقل من ساعة رأى منارة جزيرة الرمال تتنصب، سمراء رفيعة، وسط البحر حيث يجب أن تكون.

«يجب أن تكون لديك الثقة لتتمكن من القيادة»، قال للزنجي.

«الثقة موجودة»، قال له الزنجي، «لكنني فقدتها نتيجة لهذه الرحلة».

«كيف أصبحت ساقك؟».

«إنها تؤلمني باستمرار».

«إصابتك خفيفة»، قال له الرجل. «أحرص على نظافتها
واتركها ملفوفة وستشفى من تلقاء ذاتها».

كان يتجه نحو الغرب ليستريح طوال اليوم بين أشجار
المانغروف القريبة من «جزيرة المرأة» حيث لا يرى أحداً وحيث
سيأتي القارب للملاقاتهما.
«ستكون بخير»، قال للزنجي.

«لا أعرف»، قال الزنجي، «ولكنها تؤلمني ألماً شديداً».
«سأعالجك عندما نصل إلى المكان»، قال له. «ليست إصابتك
خطرة. كف عن القلق».
«لقد أصبتُ بطلق ناري. لم أتعرض لمثل هذه الإصابات من
قبل. وكيفما أصبت فهي خطيرة»، قال له.
«أنت خائف ليس إلا».

«لا يا سيدي. لقد أصبت بطلق ناري. وأنا أتألم ألماً شديداً.
وقلبي ظل يخفق طوال الليل».
ظل الزنجي يتذمر على هذه الحالة وكان ينزع الضماد
باستمرار لينظر إلى الإصابة.

«اتركها وشأنها»، قال له الرجل الذي كان يقود القارب.
كان الزنجي يستلقي على سطح القارب بين أكوام من صناديق
المشروب المتناثرة هنا وهناك، ولها شكل فخذ الخنزير. وكان كلما
تحرك سمع فرقعة الزجاج المتكسر في العبوات، كما تفوح رائحة
الشراب المسفوح. كان المشروب مسفوحاً في كل مكان. راح الرجل

الآن يتجه نحو «جزيرة المرأة» التي أصبح يراها بجلاء.
«إني أتألم»، قال الزنجي. «والألم يزداد باستمرار».
«أنا آسف، يا وزلي»، قال له الرجل. «لكن علي أن أقود القارب».

«إنك تعامل البشر كمعاملة الكلاب»، قال له الزنجي. ورغم أن الزنجي راح يشاكسه، فإن الرجل ظل يشعر بالأسى من أجله.
«سأجعلك ترتاح، يا وزلي»، قال له. «لكن عليك أن تستلقي بهدوء الآن».

«أنت لا يهمك ماذا يحدث للإنسان»، قال الزنجي. «تكاد لا تكون بشرا».

«سأعالجك علاجا يشفيك»، قال له الرجل. «لكن عليك أن تستلقي بهدوء الآن».

«لن تعالجني ولن تشفيني»، قال الزنجي. لم يقل الرجل المدعو هاري شيئا لأنه كان يحب الزنجي، ولم يعد أمامه خيار سوى أن يضربه، لكنه لا يستطيع أن يضربه. وواصل الزنجي حديثه.
«لماذا لم نتوقف عندما بدأوا إطلاق النار علينا؟»
لم يرد عليه الرجل.

«أليست حياة الإنسان أغلى من حمولة مشروب؟»
كان الرجل منهمكا في قيادة القارب.
«كل ما في الأمر هو أن نتوقف ونتركهم يأخذون المشروب».
«لا»، قال له الرجل. «بل يأخذون المشروب والقارب وأنت تذهب للسجن».

«السجن أهون من أن أصاب بطلقة»، قال الزنجي.

ضاق الرجل ذرعا بهذه المناكدة وسئم حديثه، فسأله:
«من إصابته أسوأ من الآخر، أنت أم أنا؟».

«إصابتك أنت»، قال الزنجي. «لكنني لم أصب بطلق ناري من قبل. لم يدخل هذا في حسابي. لا أحد يدفع لي لكي أصاب بطلق ناري. ولا أريد أن أصاب بطلق ناري».

«هون عليك، يا وزلي»، قال له الرجل. «إذ لا طائل من هذا الحديث».

كانا يقتربان من الجزيرة، أصبحا داخل المياه الضحلة، وبينما هو يوجه القارب نحو القناة، أصبحت الرؤية عسيرة بسبب انعكاس الشمس على الماء. أما الزنجي فقد فقد صوابه، أو دخل في نوبة روحية بسبب الألم. على أي حال، راح يهذي بلا كلل.

«لماذا يهريون المشروب الآن؟ لقد انتهى الحظر. لماذا يواصلون هذه التجارة؟ لماذا لا يجلبون المشروب معهم في العبارة؟».

كان الرجل يقود القارب ويراقب القناة مراقبة دقيقة.

«لماذا لا يكون الناس نزيهين شرفاء، ويعيشون عيشة نزيهة شريفة؟».

رأى الرجل الماء يتهاذى رقراقا بمحاذاة الضفة التي لم يرها بسبب الشمس، فانعطف بالقارب. ظل يدير موجّه القارب بيد واحدة إلى أن رأى القناة تنفتح أمامه، فقاد القارب ببطء حتى بلغ حافة أشجار المانغروف. توجه إلى مؤخرة القارب حيث المحرك، ثم ألقى بالمرساتين في الماء.

«يمكنني أن ألقى بالمرسة، لكنني لا أستطيع أن أرفعها»، قال الرجل.

«أما أنا فلا أقوى حتى على الحراك»، قال الزنجي.
«إنك فعلا في حال يرثى لها»، قال له الرجل.

لاقى الأمرين وهو يحل حبل المرساة التي كان يحملها فترتمي منه، لكنه تمكن من رفعها فوق حرف القارب وأرعى لها الحبل بوفرة، فأنجذب القارب نحو أشجار المانغروف حتى أصبحت تتدلى فوق سطحه. ثم عاد إلى حيث كان على سطح القارب، فسأه ما رأى.

وبعد أن ضمد جرح الزنجي والزنجي ضمد ذراعه ظل طوال الليلة التالية يراقب البوصلة ويوجه القارب، فلما انبلج الفجر رأى الزنجي مستلقيا بين العبوات في منتصف سطح القارب، لكنه كان يراقب البحر والبوصلة ويبحث عن منارة جزيرة الرمال، فلم يكن ينتبه إلى كيف آلت الأمور، لكنها آلت مآلا سيئا.

كان الزنجي يستلقي في منتصف حمولة المشروب المهرب ويرفع ساقه نحو الأعلى. كان الرصاص قد خلف ثمانية ثقوب واسعة اخترقت سطح المركب. وكان زجاج قمرة القبطان قد تحطم. لم يكن يعرف مدى الدمار، ولم تكن هناك من بقعة لم تتجلل بنجيئه أو نجيع الزنجي. لكن أسوأ ما في الأمر، أو هذا هو شعوره الآن، كان رائحة المشروب المسفوح على كل شيء. كان المركب الآن يرقد بسكينة بين أشجار المانغروف، لكنه ظل يشعر بدوار البحر الذي قضيا فيه ليلة كاملة في ذلك الخليج.

«سأعد بعض القهوة، وبعدها سأعالجك مرة أخرى»، قال للزنجي.

«لا أريد قهوة».

«أنا أريدها»، قال له الرجل. لكنه عندما هبط إلى بطن المركب أحس بالدوخة فصعد إلى السطح ثانية.
«يبدو أننا لن نتناول القهوة»، قال للزنجي.
«أريد ماء».

«حسن».

صب كأساً من الماء من زجاجة ضخمة وأعطاهما للزنجي.
«لماذا أصررت على الهرب عندما راخوا يطلقون النار؟»
«ولماذا يطلقون النار؟». رد عليه.

«أريد طبيباً»، قال له الزنجي.

«وماذا سيفعل لك الطبيب غير الذي فعلته لك؟»
«الطبيب سيشفيني».

«سترى طبيباً الليلة عندما يأتي المركب لملاقاتنا».
«لا أريد الانتظار حتى يأتينا المركب».

«حسن»، قال الرجل. «سنلقي هذه الحمولة الآن».

ثم راح يلقي بها، ولم يكن إلقاؤها بيد واحدة بالأمر الهين. كان وزن العبوة نحو أربعين رطلاً، لكنه بمجرد أن ألقى قليلاً منها شعر بالدوخة مرة أخرى. قعد ثم استلقى على سطح المركب.
«إنك تقتل نفسك»، قال له الزنجي.

ظل الرجل يستلقي بهدوء ورأسه على إحدى العبوات. كانت أغصان المانغروف تتدلى فوق سطح المركب وتظلل المكان الذي يستلقي فيه. كان يسمع الريح تهب فوق الأشجار، وإذا تطلع إلى السماء الباردة الشاهقة يرى تلك الغيوم البنية المتفرقة التي تجلبها رياح الشمال.

«لن يأتي أحد لملاقاتنا مع هذه الريح»، قال في نفسه. «لن يبحثوا عنا مع هذا الهبوب».

«هل تظن أنهم سيأتون لملاقاتنا؟». سأله الزنجي.

«بالتأكيد»، قال له الرجل. «لم لا؟».

«إن الريح يشتد هبوبها».

«إنهم يبحثون عنا».

«ليس في مثل هذا الطقس. لماذا تكذب علي؟». كان الزنجي

يتكلم وهمه يكاد يلتصق بإحدى العبوات.

«هون عليك، يا وزلي»، قال له الرجل.

«يقول لي هون عليك»، واصل الزنجي حديثه. «هون عليك!»

كيف؟ أتريدني أن أموت كالكلب ولا أجزع؟ لقد جئت بي إلى هذا

المكان، فأخرجني منه».

«هون عليك»، قال له الرجل بشيء من اللطف.

«لن يأتوا»، قال الزنجي. «أنا أعرف أنهم لن يأتوا. ليكن في

علمك أنني أشعر بالبرد. وليكن بعلمك أيضا أنني لا أحتمل هذا

الوجع والبرد».

اعتدل الرجل في جلسته وكان يشعر بالخواء والدوار. راحت

عينها الزنجي تراقبانه وهو ينهض على ركبة واحدة، وذراعه

اليمنى تتدلى، ثم يأخذ يده اليمنى ببسراه ويضعها بين ركبتيه،

ثم يتحامل على اللوح الخشبي المثبت على حافة المركب حتى

نهض واقفا، وحقق في الزنجي تحته، بينما لا تزال يده اليمنى

بين فخذيه. كان يجول في خاطره أنه في الواقع لم يشعر بالألم

من قبل.

«لو أبقيتها ممدودة بشكل مستقيم، فلن تؤلني كثيرا»، قال الرجل.

«دعني أعلقها لك على حمالة عنقك»، قال الزنجي.
«لا يمكنني أن أطويها من عند المرفق»، قال الرجل. «لقد تخشبت على هذا النحو». «ماذا سنفعل؟»

«سننتخلص من هذه الحمولة من المشروب»، قال له الرجل.
«ألا يمكنك أن تلقي ببعض العبوات التي في متناول يدك من فوق الحافة، يا وزلي؟»
حاول الزنجي أن يتحرك لكي يتناول عبوة، لكنه أن من الألم وعاد إلى استلقائه.

«هل تتألم إلى هذه الدرجة، يا وزلي؟»
«يا إلهي»، قال الزنجي.
«ألا تعتقد أنه متى حركتها، فلن تؤلك كثيرا؟»
«أنا مصاب بطلق ناري»، قال الزنجي. «لن أتحرك. يا رجل، تريدني أن ألقى بالمشروب وأنا مصاب؟»
«هون عليك».

«لو قلت هذا القول مرة أخرى، لفقدت صوابي».
«هون عليك»، قال له الرجل بهدوء.
أطلق الزنجي صرخة مدوية ثم راح يخبط يديه يميناً وشمالاً فوق ظهر المركب، ثم تناول حجر الشحذ من تحت الحتار^(٢٤).
«سأقتلك»، قال للرجل. «سأنتزع قلبك وأقطعته».

(٢٤) الحتار: حافة مرتفعة حول فتحة في سطح المركب لمنع تسرب المياه إليها [المترجم].

«ليس بحجر الشحذ هذا»، قال له الرجل. «هون عليك، يا وزلي».

انتحب الزنجي ووجهه ملتصق بأحد الصناديق. واصل الرجل ببطء حمل عبوات المشروب المهرية وقذفها من فوق حرف المركب.

وبينما هو يلقي بالحمولة سمع صوت محرك، فالتفت فرأى قارباً ينعطف عند طرف الجزيرة ويتجه عبر القناة نحوهما. كان قارباً أبيض له قمرة صفراء برتقالية وواقية ريح. «ها قد أتى القارب»، قال الرجل. «هيا يا وزلي». «لا أستطيع».

«لقد أصبحت أتذكر الآن»، قال الرجل. «أما من قبل فالأمر مختلف».

«تفضل وتذكر»، قال له الزنجي. «أما أنا فلم أنس شيئاً». راح يعمل بسرعة، والعرق يتصبب على وجهه، دون أن يتوقف ليراقب القارب القادم نحوهما ببطء عبر القناة، وكان يحمل عبوات المشروب المهرية بيده السليمة ويلقي بها من فوق حافة المركب.

«هيا ترحزح». ثم تناول العبوة من تحت رأس الزنجي وطوح بها من فوق الحافة. نهض الزنجي وتطلع. «ها قد أتوا»، قال. كان المركب يكاد يوازي قاربهم. «إنه الكابتن ولي، ومعه جماعة»، قال الزنجي.

في مؤخرة القارب الأبيض جلس رجلان بملابسهما الداخلية ويعتمران قبعتين من النسيج الأبيض على كراسي صيد ويشدان

خيطي صنارة، بينما كان رجل عجوز يلبس طاقية من اللباد وسترة جلدية قصيرة، ويمسك بدفة التوجيه ويقود المركب بمحاذاة أشجار المانغروف متجاوزا إياها إلى حيث يرسو قارب المشروب.

«ما الأخبار يا هاري؟». نادى العجوز وهو يمر. لوح له هاري بيده السليمة محييا. مضى المركب في سبيله، وكان الرجلان اللذان كانا يصيدان ينظران إلى قارب المشروب ويتحدثان إلى العجوز. لم يسمع هاري ما يقولان.

«سينعطف عند المصب ويعود»، قال هاري للزنجي. نزل إلى داخل المركب وعاد ببطانية. «دعني أغطك».

«لقد آن الأوان لأن تغطيني. لا بد أنهما شاهدا المشروب. فماذا سنفعل؟».

«إن ولي شخص طيب»، قال الرجل. «سيخبرهم في المدينة أننا هنا. وهذان الصيادان لن يتحرشا بنا. فماذا يهمهما من أمرنا؟».

صار يرتجف أكثر الآن، ثم جلس على مقعد التوجيه وظل يمسك ذراعه اليمنى بين فخذه. كانت ركبته ترتجفان، وبسبب هذا الارتجاف كان يشعر بأن أطراف عظامه في أعلى الذراع تصطك بعضها ببعض. فتح ركبتيه، وأخرج ذراعه من بينهما، وجعلها تتدلى بجانبه. وبينما هو يجلس وذراعه تتدلى، مر بهما المركب عائدا من الطرف الأعلى للقناة. كان الرجلان الجالسان في كرسيي الصيد يتحدثان. كانا قد رفعوا صنارتي الصيد وكان أحدهما يتفحصهما بزوج من العدسات. لم يكن بإمكانه أن

يسمع ما يقولان بسبب بعدهما عنه. وحتى لو سمعهما لما كان ذلك في صالحه.

على متن المركب «ساوث فلوريدا» المستأجر الذي كان يجوب القناة في «جزيرة المرأة» بحثاً عن الصيد لاستحالة الخروج إلى الحيد البحري بسبب الأنواء، كان الكابتن ولي آدمز يقول في نفسه: إذن لقد عبر هاري في الليلة الماضية. هذا الفتى جريء. لا بد أنه ذاق العاصفة كلها. ومركبه مركب بحري بلا جدال. وإلا كيف تتوقع أن تتحطم واقية الريح؟ اللعنة علي لو عبرت في ليلة كليلة أمس. اللعنة علي لو هربت المشروب من كوبا. إنهم يجلبونه الآن بكل أنواعه من ماريل. لا يكلف الأمر سوى دخول وخروج. يفترض أن يكون الطريق سالكا. «ماذا تقول، أيها الكابتن؟».

«ما ذاك القارب؟». سأله أحد الرجلين الجالسين في كرسيي الصيد.

«ذاك القارب؟».

«نعم، ذاك القارب».

«أوه، إنه أحد قوارب الجزيرة الغربية».

«سؤالي كان: لمن ذلك القارب؟».

«لا علم لي أيها الكابتن».

«هل ماله صياد؟».

«حسن، يقول البعض إنه كذلك».

«ماذا تقصد؟».

«إنه يعمل في كل شيء».

«ألا تعرف اسمه؟».

«لا، يا سيدي».

«لكنك ناديتَه باسم هاري».

«ليس أنا».

«أنا سمعتك تتاديه هاري».

تمعن الكابتن ولي آدمز مليا في الرجل الذي كان يكلمه، فرأى رجلا عالي الوجنتين، رقيق الشفتين، منتفخ الوجه قليلا، غائر العينين، رماديهما، ذا فم يتدفق ازدياء، رجلا يرنو إليه من تحت قبعة قنب. ما كان يخطر في بال الكابتن ولي آدمز أن كثيرا من النساء في واشنطن كن يحسبن هذا الرجل وسيما إلى درجة لا تقاوم.

«لا بد أنني ناديتَه كذلك عن طريق الخطأ»، قال الكابتن ولي.

«من الواضح أن الرجل جريح، يا دكتور»، قال الرجل الآخر وهو يناول العدسات إلى رفيقه.

«أستطيع أن أرى ذلك من دون عدسات»، قال الرجل الذي خوطب بلقب دكتور. «من ذلك الرجل؟».

«لا علم لي»، قال الكابتن ولي.

«حسن، سيكون عندك علم»، قال له الرجل ذو الفم المزدري.

«اكتب الأرقام على مقدمة القارب».

«لقد فعلت يا دكتور».

«سنذهب ونلقي نظرة»، قال الدكتور.

«هل أنت دكتور؟». سأله الكابتن ولي.

«ليس في الطب»، قال له الرجل ذو العينين الرماديتين.

«إن لم تكن طبيبياً فلا أنصحك بالذهاب».
«لماذا؟».

«لو كان يريدنا لأوماً إلينا. وإن كان لا يريدنا، فهذا ليس من شغلنا. في هذه النواحي كل إنسان يهتم بشغله».
«لا بأس. ما رأيك لو اهتممت بشغلك؟ خذنا إلى ذلك القارب».

ظل الكابتن يشق طريقه عبر القناة، بينما كان محرك «المرو» ذو الأسطوانتين يهدر بثبات.
«ألم تسمعني؟»
«أجل يا سيدي».
«إذن، لماذا لا تطيع أوامري؟»
«قل لي بحق السماء، من تظن نفسك؟». قال له الكابتن ولي.

«ليس هذا هو السؤال. بل افعل كما أقول لك».
«من تظن نفسك؟». سأله الكابتن ولي ثانية.
«حسن. ليكون في علمك أنني واحد من بين أهم ثلاثة رجال في الولايات المتحدة اليوم».
«إذن قل لي بحق السماء ما الذي تفعله هنا في الجزيرة الغربية؟».

مال نحوه الرجل الآخر وقال بنبرة جياشة بالإعجاب، «إنه.....».

«لم أسمع به قط»، قال الكابتن ولي.
«حسن، ستسمع به»، قال الرجل الملقب بالدكتور.

«وكذلك سيفعل كل واحد في هذه البليدة التافهة المعفنة ولو
تطلب الأمر اجتثاثها من جذورها».

«كلك لطف»، قال له الكابتن ولي. «لكن قل لي: كيف أصبحت
مهما إلى هذه الدرجة؟».

«إنه أعز صديق وأقرب مستشار لـ.....»، قال الرجل الآخر.
«هذا هراء»، قال الكابتن ولي. «إن كان كذلك، فما الذي يفعله
هنا في الجزيرة الغريبة؟».

«إنه هنا ليرتاح»، قال السكرتير. «سيصبح.....».
«كفى، يا هارس»، قال الرجل الملقب بالدكتور. «والآن سوف
تأخذنا إلى ذلك القارب»، قال هذا وهو يبتسم. كانت لديه
ابتسامة يحتفظ بها لمثل هذه المناسبات.
«لا يا سيدي».

«اسمع، أيها الصياد المعتوه. سأحول حياتك إلى جحيم
.....».

«أجل»، قال الكابتن ولي.
«أنت لا تعرف من أنا».
«كل هذا لا يعني»، قال له الكابتن ولي. «وأنت لا تعرف أين
أنت».

«ذلك الرجل مهرب مشروبات، أليس كذلك؟».

«وماذا تظن؟».

«قد تكون هناك جائزة من ورائه».

«أشك في ذلك».

«إنه منتهك للقانون».

«بل لديه عائلة، وعليه أن يأكل ويطعمها. أما أنت، فقل لي بحق السماء ممن تأكل؟ أليس من موظفي الحكومة هنا في الجزيرة الغريبة الذين يعملون مقابل ستة دولارات ونصف الدولار أسبوعياً؟»

«إنه جريح. وهذا معناه أنه كان في ورطة».

«ما لم يطلق النار على نفسه للتسلية».

«يمكنك أن توفر تلك السخرية لنفسك. ستمضي بنا إلى ذلك القارب حيث سنحتجزه مع صاحبه».

«أين ستحتجزه؟»

«في الجزيرة الغريبة».

«هل أنت شرطي؟»

«لقد قلت لك من هو»، قال السكرتير.

«لا بأس»، قال الكابتن ولي، ثم أدار ذراع الدفة بعنف وانعطف بالقارب مقترباً كثيراً من حافة القناة مما جعل الداسر يثير زوبعة من الطين.

ثم أسرع عبر القناة باتجاه القارب الآخر حيث كان يرسو تحت أشجار المانفروف.

«هل لديك سلاح في هذا المركب؟» قال الرجل الملقب بالدكتور للكابتن ولي.

«لا يا سيدي».

وقف الآن الرجلان في ملابسهما الداخلية يراقبان قارب المشروبات.

«أليس هذا أكثر إمتاعاً من صيد الأسماك، يا دكتور؟» قال السكرتير.

«بل الصيد مهزلة»، قال الدكتور. «فحتى لو اصطدت سمكة ذات شراع، ماذا يمكنك أن تفعل بها؟ لا تستطيع أن تأكلها. أما هذا الأمر ففيه متعة وإثارة. وأنا سعيد لأنني رأيته بأمر عيني. هذا الرجل جريح ولن يتمكن من الهرب. فالبحر هائج مائج. ونحن نعرف قاربه».

«وها أنت تمسك به بمفردك»، قال السكرتير بنبرة طافحة بالإعجاب.

«ومن غير سلاح، أيضا»، قال الدكتور.

«أو هراء شرطة المباحث»، قال السكرتير.

«إن إدغر هوفر يبالغ في الدعاية لنفسه»، قال الدكتور^(٣٥)، «أعتقد أننا أعطيناها صلاحيات واسعة». ثم التفت إلى الكابتن ولي قائلا: «توقف هنا».

حرر الكابتن ولي جهاز التعشيق من المحرك وترك القارب يسير على رسله. ثم نادى على القارب الآخر قائلا: «اخفضوا رؤوسكم».

«ماذا تفعل؟». سأله الدكتور غاضبا.

«أخرس أنت»، قال له الكابتن ولي، ثم نادى ثانية على القارب الآخر. «اسمعوا. اذهبوا إلى المدينة ولا تقلقوا. لا تشغلوا أنفسكم بشأن القارب لأنهم سيأخذونه. أفرغوا حمولتكم وامضوا إلى المدينة. لدي شخص هنا، مجرد شخص تافه من واشنطن. ليس رجل مباحث. بل شخص تافه. أحد الذوات. أكثر أهمية من الرئيس، حسب زعمه. يريد أن يعتقلك لأنه يظن أنك مهرب

(٣٥) جون إدغر هوفر (١٨٩٥-١٩٧٢): مدير مكتب التحقيقات الفدرالي (١٩٢٤ - ١٩٧٢)، وقد عرف بكفاءته في كشف الجرائم [المترجم].

مشروبات. وقد سجل أرقام القارب. لم أرك من قبل، لذلك لا أعلم من أنت. ولا أستطيع أن أعرف من أنت».

افترق القاريان. وظل الكابتن ولي يصيح، «لا أعرف هذا المكان الذي رأيتك فيه. لذلك لا أعرف كيف سأعود إلى هنا».

«طيب»، جاء صوت من قارب المشروب.

«سأخذ هذا الرجل المهم ليصطاد حتى المساء»، صاح الكابتن ولي.

«طيب».

«إنه يحب صيد السمك»، صاح الكابتن بصوت شبه متهدج.

«لكن ابن العاهرة يدعي أنك لا تستطيع أن تأكل السمك».

«شكرا يا أخي».

«ذاك الرجل أخوك؟». سأل الدكتور، ووجهه يحمر، لكن فضوله لم يرتو بعد.

«لا يا سيدي»، قال الكابتن ولي. «لكن معظم أصحاب القوارب ينادون بعضهم بعضا بهذا اللقب».

«سنذهب إلى الجزيرة الغربية»، قال الدكتور، لكنه قال ذلك بلا قناعة.

«لا يا سيدي»، قال الكابتن ولي. «لقد استأجرت ماني أيها السيدان يوما كاملا. لذلك سأعمل على إعطائكما قيمة ما دفعتما. لقد نعتُمانِي بالمعتوه لكنني سألتزم بالإيجار معكما لمدة يوم بأكمله».

«إنه رجل عجوز»، قال الدكتور لسكرتيره. «ما رأيك لو هجمنا عليه؟».

«لا تحاول»، قال الكابتن ولي. «سأضربك على رأسك بهذه». ثم أراهما أنبوبا حديديا كان يضرب به أسماك القرش. «لماذا أيها السيدان لا تصطادان السمك وتروحان عن نفسيكما؟ أنتما لم تأتيا إلى هنا للدخول في المتاعب. بل أتيتما للراحة. تقولان إنكما لا تأكلان الأسماك ذات الشراع، لكنكما لن تعثرا عليها في هذه المياه الضحلة. ستكونان محظوظين إن استطعتما أن تصطادا سمكة الأخفس»^(٣٦). «ما رأيك؟» قال الدكتور.

«يجدر بنا أن نتركه وشأنه»، قال السكرتير وهو يرمق الأنبوب الحديدي.

«كما أنكما ارتكبتما خطأ آخر»، واصل الكابتن حديثه. «فالسماك ذو الشراع صالح للأكل مثل ملك السمك. فعندما كان ريوس يشتريه منا لبيعه في أسواق هافانا، كنا نبيع الرطل بعشرة سنتات كما نبيع الرطل الواحد من ملك السمك». «أوه، اخرس»، قال الدكتور.

«ظننت أن هذه الأشياء ستهلك، بوصفك رجل دولة. أليس لك ضلع في وضع أسعار الأشياء التي نأكلها أو ما شابهها؟ أليست الحقيقة أنكم تجعلون الأشياء باهظة الثمن؟ أليست الحقيقة أنكم ترفعون من ثمن لقمة العيش وتخفضون من قيمة عرق الجبين؟ انظر إلى أسعار السمك، فهي في هبوط مستمر». «قلت لك اخرس»، قال الدكتور.

في هذه الأثناء أتم هاري إفراغ حمولته من المشروب.

(٣٦) الأخفس: سمك كبير يالف قيعان البحار الدافئة، وله تسميات أخرى مثل القشر أو اللوز [المترجم].

«أعطني سكين السمك»، قال للزنجي.
«لقد ضاعت».

ضغط هاري على أزرار التشغيل الذاتي وشغل المحركات. تناول البلطة ثم قطع حبل المرساة بيده اليسرى. قال في نفسه إن الحبل سيغطس لكنهم سينتشلون عندما ينتشلون الحمولة. سأتوجه بالقارب إلى خليج الحصن، وإن شاءوا أخذه فسيأخذونه. علي أن أرى طبيبا. لا أريد أن أفقد ذراعي وقاربي معا. الحمولة تساوي قيمة القارب. لم تتكسر كثير من الصناديق. إذا انكسر شيء قليل فاحت منه رائحة هائلة.

دفع جهاز التعشيق إلى الأمام ثم انعطف مبتعدا عن أشجار المانغروف سائرا مع المد. كانت المحركات تعمل بسلاسة. في هذه الأثناء كان مركب الكابتن ولي قد سبقه مسافة ميلين ويتوجه نحو بوكا غراند. قال هاري في نفسه، أعتقد أن المد عال علوا يسمح بالإبحار بين البحيرات. عشق جهاز التعشيق على ميمنة القارب وراحت المحركات تهدر عندما رفع ذراع المخنق. شعر بمقدمة القارب ترتفع بينما راحت أشجار المانغروف الخضراء تبتعد سريعا بينما كان القارب يسحب الماء وراءه فيعري جذورها. أتمنى ألا يأخذوه، قال في نفسه. أمل أن يتمكنوا من مداواة ذراعي. وما الذي أدرانا أنهم سيطلقون النار علينا في مارييل بعد أن صار لنا ستة أشهر ونحن نروح ونجيء علنا؟ هكذا هم الكوبيون. لم يدفع أحدهم لأحدهم، فراحوا يطلقون النار علينا. هكذا هم الكوبيون دائما.

«قل لي يا وزلي»، قال وهو ينظر داخل قمرة القبطان حيث كان الزنجي يرقد ملتجأ بالبطانية. «كيف تشعر يا بوجي؟»^(٣٧).
«يا إلهي، ليس هناك أفضع من هذا الألم»، قال وزلي.
«سيكون الألم أفضع عندما يتحسس الطبيب العتيد مكانها»،
رد عليه هاري^(٣٨).

«أنت لست بشرا»، قال له الزنجي. «ليست لديك مشاعر البشر».

ذلك العجوز ولي شخص طيب، كان هاري يقول في نفسه. أجل، إن ذلك العجوز ولي شخص طيب. لقد أحسنا صنعا بمجيئنا. كان ذلك خيرا من الانتظار. لو انتظرنا لكان ذلك حماقة. لقد شعرت بالدوخة والغثيان ففقدت صوابي.

صار الآن بإمكانه أن يرى ماثلا أمامه بياض فندق لاكونشا، وأعمدة اللاسلكي، وبيوت المدينة، وعبارات السيارات راسية في حوض ترامبو الذي سينعطف من عنده قاصدا خليج الحصن. ما أدهى ذلك العجوز ولي، قال في نفسه. لقد أذاقهما الأمرين. ترى، من كان هذان المعتوهان؟ اللعنة علي إن لم أكن في أسوأ حال الآن. أشعر بالدوار. لقد أحسنا صنعا حين جئنا. لقد أحسنا صنعا لأننا لم ننتظر.

«مستر هاري»، قال الزنجي. «أنا آسف لأنني عجزت عن مساعدتك في إفراغ الحموله».

(٣٧) بوجي (تلفظ الجيم هنا كالجيم القاهرية): هو لقب تحبب يستخدمه هاري لمناداة زميله الأسود [المترجم].

(٣٨) يبدو أن رصاصه استقرت في جسد وزلي [المترجم].

«لا عليك»، قال هاري. «لا خير في زنجي أصيب بطلق نارى.
أما أنت، يا وزلى، فلا بأس بك من زنجى».
رغم هدير المحركات وارتطام القارب العنيف بالماء، شعر
بخواء غريب يفنى فى قلبه. هكذا هو شعوره دائماً عند يعود إلى
بيته من رحلة. آمل أن يتمكنوا من إصلاح تلك الذراع، قال فى
نفسه. إن لى فيها نفعا كثيراً.

الوشاية (١٩٣٨)

فيما مضى من الزمن كان مقهى تشيكوته في مدريد شبيها بـستورك، من دون موسيقى أو فتيات المجتمع الراقى، أو مقهى الرجال في فندق والدورف لو سمح للفتيات بارتياها. طبعاً، كن يدخلن، لكن المقهى كان للرجال وهن بلا منزلة تذكر. كان بيدرو تشيكوته هو صاحب المقهى وكان ذا شخصية تملأ المكان بحضورها. وكان دائم البهجة والبشاشة، طافحاً بالحيوية. أما هذه الأيام، فالحيوية شيء نادر، وإن وجدت عند أحدهم فهي لا تدوم. ويجب ألا يخلط بينها وبين الحركات الاستعراضية. أما تشيكوته فقد ملكها، وما كانت مزيفة ولا مصطنعة. وكان أيضاً متواضعاً، بسيطاً، ودوداً. لقد كان في الحقيقة لطيفاً وظريفاً، وكفواً إلى درجة عجيبة مثل جورج، ذلك النادل في مقهى الرتز في باريس. وهذه تكاد تكون أفضل مقارنة يمكنك أن تتفوه بها لشخص مجرب. لقد كان مقهى رائعاً.

في تلك الأيام كان المتعجرفون من الشبان الأغنياء في مدريد يرتادون مكاناً اسمه النادي الجديد بينما يأتي الطيبون إلى مقهى تشيكوته. لم يعجبني كثير ممن جاء إلى هذا المقهى، كما لم يعجبني كثير ممن يرتادون ستورك، لكنني لم أذهب إلى مقهى تشيكوته أبداً إلا وجدته بهيجا. أحد الأسباب هو أنك لا تتحدث في السياسة هناك. هناك مقاهٍ مخصصة حصراً للسياسة، لكنك لا تتحدث في السياسة في مقهى تشيكوته.

بيد أنك تتحدث كثيرا في أي من الموضوعات الخمسة الأخرى، وفي المساء تتقاطر أجمل فتيات المدينة، ومقهى تشيكوته أفضل مكان يمكن أن تبدأ به سهرتك، وكلنا كانت له أمسيات جميلة بدأها من هناك.

ثم إنها مكان يمكنك أن ترتاده لتستطلع أخبار القادمين إلى المدينة أو المغادرين. وفي الصيف حين تخلو المدينة من الناس يمكنك أن تأتي للجلوس والتمتع بشراب يقدمه إليك ندل رائعون.

كان المقهى بمنزلة ناد إلا أننا لا ندفع رسوم اشتراك، ويمكنك أن تتعرف على فتاة هناك. ومن المؤكد أنه كان أفضل مقهى في إسبانيا، بل إنني أعتقد أنه أفضل مقهى في العالم، وكل من يرتاده يكن له مودة عظيمة.

والمشروبات رائعة أيضا. إذا طلبت كأس شراب فإنها تخلط مع أفضل أنواع الشراب الذي يمكن شراؤه بالمال، وكان لدى تشيكوته مشروب إسكتلندي بالبراميل وهو أفضل بكثير من النوعيات المعروفة، بل إنه من الإجحاف مقارنته بالمشروب الإسكتلندي العادي. على أي حال، عندما بدأت الثورة، كان تشيكوته في سان سباستيان يدير المقهى الصيفي هناك. إنه لا يزال يديره ويقولون إنه أفضل مقهى في إسبانيا فرانكو. تولى الندل مقهى مدريد ولا يزالون يديرونه، لكنه لم يعد فيها شراب جيد الآن.

معظم زبائن تشيكوته القدامى من أنصار فرانكو، لكن بعضهم موالون للحكومة. لأن المقهى مكان بهيج، ولأن المبتهجين

الحقيقيين هم الأشجع عادة، والأشجع يقتلون قبل غيرهم، فإن جزءا كبيرا من زبائن تشيكوته القدامى من عداد الأموات الآن. لقد انتهى مشروب البراميل منذ عدة أشهر، وأتينا على آخر الشراب الأصفر في مايو ١٩٣٨، لم يعد في المكان ما يغري بالذهاب إليه، لذلك أعتقد أنه لو تأخر لويس دلفادو في مجيئه إلى مدريد قليلا لبقى بعيدا عن المكان ولما تورط في تلك المشكلة. لكنه عندما جاء إلى مدريد في شهر نوفمبر من عام ١٩٣٧ كان لا يزال هناك شراب أصفر وماء الكينين الهندي^(٣٩)، وهذان لا يستحقان أن يجازف المرء بحياته من أجلهما، لذلك أعتقد أنه أراد أن يتناول مشروبا في ذلك المكان العتيق. ومن يعرفه ويعرف المكان في الماضي من الأيام يستطيع أن يفهم هذا تماما. ذهبت بقرة عند السفارة في ذلك اليوم وجاء البواب إلى فندق فلوريدا ليقول لنا إنهم تركوا لنا عشرة أرطال من اللحم الطازج. توجهت على قدمي لجلبها عند الفسق في ذلك الشتاء المديدي. كان مسلحان من حرس المغاوير يجلسان على كرسيين خارج بوابة السفارة، وكان اللحم ينتظر في مسكن البواب.

قال البواب إن قطعة اللحم جيدة لكن البقرة هزيلة. أخرجت له من جيب سترتي بذورا محمصة من عباد الشمس وجوز البلوط، وتمازحنا قليلا بينما كنا نقف خارج مسكنه عند مدخل السفارة المرصوف بالحصى. رحت أشق طريقي عبر المدينة، متأبطا قطعة اللحم الثقيلة.

(٣٩) ماء الكينين: شراب منه قليل من الكينين (مادة قلوية شديدة المرارة) والليمون الحامض [المترجم].

كان هناك قصف في آخر الشارع الكبير، فعرجت على مقهى تشيكوته إلى أن ينجلي القصف. كان المقهى يفس بالناس والضجيج، فجلست إلى طاولة صغيرة في إحدى الزوايا تحت نافذة محشوة بأكياس الرمل، ثم وضعت اللحم على المقعد بجانبني وطلبت مشروباً من الجن والماء المقوي. لقد اكتشفنا في هذا الأسبوع بالذات أن المقهى ما زال فيه ماء مقو. فمنذ بداية الحرب لم يطلب أحد هذا المشروب، لذلك ظل سعره كما كان قبل الثورة. لم تكن صحف المساء قد صدرت بعد، لذلك اشتريت ثلاثة منشورات حزبية من إحدى العجائز. كان سعر المنشور الواحد عشرة سنتا، فقلت لها أن تحتفظ بما تبقى من البيزيتا. فدعت الله أن يبارك لي. لا أظن أنه سيفعل، لكنني قرأت المنشورات الثلاثة وشريت المشروب والماء المقوي. جاء إلى طاولتي نادل أعرفه منذ زمن وأخبرني ببعض الأشياء.

«لا»، قلت له. «لا أصدق ذلك».

«بل صدقني»، قال لي بالحاح، ثم أمال صينيته ورأسه في الاتجاه نفسه. «لا تنتظر الآن. هاهو ذاك».

«ليس هذا من شأني»، قلت له.

«ولا من شأني».

ابتعد عني واشتريت من عجوز أخرى صحف المساء التي صدرت للتو وقرأتها. لم يكن يساورني الشك فيما قاله النادل عن الرجل الذي أشار إليه. فكلانا يعرفه تمام المعرفة. وكل ما كان يدور في رأسي هو: يا له من مغفل! يا له من مغفل أحرق!

في هذه اللحظة بالذات جاء إلى طاولتي رفيق يوناني. كان قائد سرية في اللواء الخامس عشر، وكانت طائفة قد أُلقت عليه قبله فدفنته تحت التراب وقتلت أربعة آخرين، فوضع تحت المراقبة الطبية، ثم أرسل إلى بيت للراحة أو ما شابهه.

«كيف حالك، يا جون؟». سألته. «جرب أحد هذين».

«ماذا تسمي هذا المشروب، يا سيد إيموندرز؟».

«أسمه مشروب مقو».

«لكن من أي المقويات هو؟».

«كينين. جربه».

«اسمع، أنا لا أشرب كثيرا، لكن الكينين مفيد للحمى. سأجرب قليلا منه».

«ماذا قال الطبيب عن حالتك، يا جون؟».

«لا حاجة لرؤية الطبيب. أنا بخير. كل ما هنالك هو أن في رأسي طنين لا ينقطع».

«عليك أن تراجع، يا جون».

«لا بأس من ذلك. لكنه لا يفهمني. يقول لي إنني لا أملك أوراقا تخولني دخول المصححة».

«سأتصل بهم بهذا الخصوص. فأنا أعرف العاملين هناك».

قلت له. «هل الطبيب ألماني؟».

«نعم»، قال جون. «ألماني. هو ما في كلام إنجليزي كويس»^(٤٠).

(٤٠) من المفارقة أن يتحدث جون بلغة إنجليزية مهشمة عن عدم كفاءة الطبيب الألماني في الإنجليزية. لذلك نقلت كلامه المفكك إلى لغة عربية فيها رطانة واضحة [الترجم].

في هذه اللحظة بالذات جاء النادل إلى طاولتنا . كان عجوزا
ذا رأس أصلع وأخلاق محافظة لم تستطع الحرب أن تغيرها .
كان شديد القلق .

«لدي ابن في الجبهة . ومات آخر . والآن انظر إلى هذا
الوضع» .

«إنها مشكلتك» .

«وماذا عنك أنت ؟ لقد قلت لك» .

«أنا جئت إلى هنا لأتاول المشروب قبل أن أكل» .

«وأنا أعمل هنا . فقل لي ما العمل ؟» .

«إنها مشكلتك» ، قلت له . «فأنا لست رجل سياسة» .

«هل تفهم الإسبانية ، يا جون ؟» . سألت الرفيق اليوناني .

«لا أفهم منها سوى بضع كلمات ، لكنني أتحدث اليونانية
والإنجليزية والعربية . في يوم من الأيام كنت أتحدث العربية
بشكل جيد . هل تعرف كيف دفنت ؟» .

«لا . فكل ما أعرف هو أنك دفنت» .

كان له وجه أسمر وسيم ويدان شديدا السمرة لا تكفان عن
الحركة حينما يتكلم . كان ابن إحدى الجزر [اليونانية] وكان إذا
تكلم ، تكلم بانفعال شديد .

«إذن ، أخبرك الآن . أنا ، كما تعلم ، محارب متمرس . وقد كنت
من قبل نقيباً في الجيش اليوناني أيضاً . أنا محارب جيد . وعندما
رأيت الطائرة مقبلة ونحن في خنادقنا عند فوينتس دل إبرو
راقبتها من كثب . رأيت الطائرة متجهة نحونا ، ثم تميل ، وتتعطف
هكذا» (ثم يستدير ويميل يديه الاثنتين) «ثم تنقض نحونا ، فقلت

آها، إنها تريد الأركان العامة. لقد جاءت للاستطلاع. وفي الحال جاءت طائرات أخرى.

«وهكذا، كما قلت، جاءت طائرات أخرى. فوقفت وراقبت. راقبت من كُتب. أتطلع إلى فوق ثم أبين للسرية ماذا يجري. كانت الطائرات تأتي ثلاثا، ثلاثا. واحدة في المقدمة تتلوها اثنتان. وعندما مرت مجموعة من ثلاث طائرات، قلت للسرية، هل ترون؟ لقد مر تشكيل واحد.

«ثم جاءت ثلاث أخرى فقلت للسرية، لا بأس الآن. زال الخطر. لا داعي للقلق الآن. آخر شيء أذكره منذ أسبوعين.»
«متى حدث هذا؟»

«منذ شهر تقريبا. لقد حشر وجهي داخل الخوذة عندما دفنتي القنبلة تحت التراب، وكان في الخوذة هواء ظللت أتففس منه إلى أن أخرجوني، لكنني لا أذكر شيئا من هذا. كان الهواء الذي كنت أتففسه قد امتزج مع دخان الانفجار، فمرضت وقتا طويلا. لكنني الآن بخير، لولا ذلك الطنين في رأسي. ماذا يسمى هذا المشروب؟»

«مشروب مقو. ماء إشبوس الهندي المقوي. كان هذا المقهى في غاية الفخامة قبل الحرب، وكان هذا المشروب يكلف خمس بيزيتات عندما كانت السبع بيزيتات تساوي دولارا واحدا. لقد اكتشفنا لتونا أنه لا يزال لديهم الماء المقوي، وأن سعره لا يزال كما كان. لم يتبق سوى صندوق واحد.»

«لا بأس به من مشروب. قل لي، كيف كانت هذه المدينة قبل الحرب؟»

«رائعة. تماما كما هي الآن، لكن الطعام كان متوافرا بكثرة». جاء النادل وانحنى فوق الطاولة وقال، «وإن لم أفعل، أليست هذه مسؤوليتي؟».

«إذا شئت، فاذهب إلى الهاتف واتصل بهذا الرقم. سجله». سجله، فقلت له، «اطلب بيبه».

«ليس بيني وبينه عداوة شخصية»، قال النادل. «ولكنها القضية. بلا شك، إن مثل هذا الرجل خطر على قضيتنا».

«ألا يعرفه النُّدل الآخرون؟».

«أظن ذلك، لكن لم يقل أي منهم شيئا. إنه زبون قديم».

«وأنا زبون قديم أيضا».

«لعله الآن صار إلى جانبنا أيضا».

«لا»، قلت له. «أنا أعلم أنه ليس كذلك».

«لكنني لم أش بأحد من قبل».

«إنها مشكلتك. لعل أحد الندل الآخرين يشي به».

«لا. إذ لا يعرفه إلا الندل القدامى والندل القدامى لا يشون بأحد».

«هات واحدة من المشروب الأصفر وشيئا من المر»، قلت له^(٤١).

«فلا يزال هناك ماء مقو في الزجاج».

«عم يتحدث؟». سألتني جون. «فأنا لا أفهمه إلا قليلا».

«يوجد هنا رجل نعرفه من قديم الأيام. كان صياد حمام رائعا، وكنت أراه في مباريات الصيد. أما الآن فهو فاشي، ومجيئه الآن،

(٤١) المقصود بالمر هو ماء الكينين؛ إذ إنه شديد المرارة [المترجم].

مهما كانت دوافعه، في غاية الحماسة. لكنه كان دائما في غاية الشجاعة والحماسة أيضا».

«أرني إياه».

«هناك على تلك الطاولة مع الطيارين».

«أي واحد منهم؟».

«ذو الوجه الأسمر جدا، الذي يضع قبعته على إحدى عينيه،

ويضحك الآن».

«هذا فاشي؟».

«نعم».

«هذه أول مرة أرى فيها فاشيا من كتب منذ فوينتس دل إيبرو.

هل يوجد كثير من الفاشيين هنا؟».

«تجد عددا منهم بين الحين والآخر».

«إنه يشرب ذات الشراب الذي تشربه»، قال جون. «هل

تظن أن الناس يعتقدون أننا فاشيون بسبب ما نشرب؟ قل لي:

هل سبق لك أن زرت أمريكا الجنوبية، أو الساحل الغربي، أو

ماغلانيس؟»^(٤٢).

«لا».

«لا بأس بها من بلاد، لولا الأخطبوط».

«لولا ماذا؟».

«الأخطبوط». لفظ الكلمة واضعا التشديد على الباء. «ذو

الأرجل الثمانية».

«أوه، الأخطبوط»، قلت له.

(٤٢) تقع ماغلانيس في مقاطعة تشيلينا في جمهورية تشيلي [المترجم].

«نعم، الأخطبوط»، قال جون. «كما تعلم، فأنا غواص أيضا. وتلك البلاد لا بأس بها للعمل وجني المال الكثير، لولا الأخطبوط».

«هل كن يضايقنك؟»

«لا أعرف. لكنني رأيت الأخطبوط عندما نزلت أول مرة إلى ميناء ماغلانيس. ثم وقف على أقدامه هكذا». راح جون يشير بأصابعه على الطاولة، ويرفع يديه، وفي الوقت ذاته يرفع كتفيه وحاجبيه. «كان يقف أطول مني ويتفرس في عيني. جذبت الحبل بقوة أن انتشلوني».

«كم كان حجمه، يا جون؟»

«لا أستطيع أن أصف حجمه بدقة، لأن زجاج الخوذة يشوه الصورة قليلا. لكن محيط رأسه كان أكثر من أربع أقدام في كل الأحوال. وكان يقف كأنما على رؤوس أقدامه وينظر إلي هكذا». (ثم راح يبخلق في). «وعندما خرجت من الماء، نزعوا عني الخوذة، وقلت لهم لن أنزل في الماء بعد الآن. فقال لي رب العمل: ماذا دهالك يا جون؟ إن خوف الأخطبوط منك أكثر من خوفك من الأخطبوط، فقلت له، هذا مستحيل. ما قولك في أن نشرب مزيدا من هذا المشروب الفاشي؟».

«لا بأس»، قلت له.

كنت أراقب الرجل الجالس إلى الطاولة. كان اسمه لويس دلفادو وكانت آخر مرة رأيته فيها في العام ١٩٣٣ وهو يصطاد الحمام في سانت سباستيان، فتذكرت وقوفي معه على قمة المنصة نراقب انتهاء المباراة الكبرى. تراهنا أنا وهو على مبلغ

لا طاقة لي به، ولا طاقة له به إن خسره في تلك السنة. ثم تذكرت ابتهاجه عندما دفع لي المبلغ ونحن ننزل الدرج، وكيف جعل الأمر يبدو كأنه امتياز عظيم له. ثم تذكرت أيضا وقوفنا أمام المقهى ونحن نتناول كأسا من المارتيني، وكيف غمرني شعور رائع من الارتياح إذ أخرجت نفسي سالما من مأزق الرهان، وكنت أتساءل عن أثر الخسارة الذي تركه الرهان في نفسه. كانت رماياتي سيئة طوال الأسبوع، أما رماياته فكانت رائعة وكان يصيب طيورا تكاد إصابتها تكون مستحيلة، وراح يراهن على نفسه بهمة واعتداد.

«ما رأيك في ترتيب مباراة حامية؟». سألني.

«أتريد ذلك حقا؟».

«نعم، إن أحببت ذلك».

«كم المبلغ؟».

أخرج محفظة نقود، ثم تفحص ما فيها وضحك قائلا: «أنا أقول المبلغ الذي تريده. لكن ما رأيك لو اتفقنا على ثمانية آلاف پيزيتا؟ فهذا هو المبلغ الموجود».

كان ذلك يساوي ألف دولار تقريبا في تلك الأيام.

«لا بأس»، قلت له، وقد غادرتني تلك الطمأنينة الداخلية الرائعة ليحل محلها ذلك الخواء الذي يلزم لاعب الورق. «من سيتبارى مع من؟».

«أنا وأنت».

خض كل منا قطعة الخمس پيزيتات الثقيلة في يده المضمومة، ثم وضع القطعة على ظهر يده اليسرى، ويده اليمنى تغطيها.

«ماذا لديك؟». سألتني.

رفعت يدي عن القطعة الفضية فإذا بوجه أيفونسو الثامن
الطفولي يطل علي.

«رؤوس»، قلت له.

«خذ هذه الأشياء اللينة، وكن كريما واسقني كأسا من
المشروب على حسابك». ثم أفرغ المحفظة من النقود. «قل لي،
ألا تريد شراء بندقية بيردي جيدة؟».

«لا»، قلت له. «لكن انظر، يا لويس، إن كنت في حاجة إلى
بعض المال

كانت أوراق النقود من فئة الألف بيزيتا في يدي تمتد نحوه،
خضراء، مطوية، لامعة، ثقيلة.

«لا تكن سخيفا، يا إنريك»، قال لي. «لقد كنا نلعب الورق،
أليس كذلك؟».

«نعم، ولكننا يعرف بعضنا بعضا جيدا».

«ليس إلى الحد الذي تظن».

«حسن»، قلت له. «أنت أدري مني بهذا. لكن ماذا تود أن
تشرب؟».

«ما رأيك في المشروب وشراب مقو؟ إنه مشروب رائع، كما
تعلم».

وهكذا تناولنا المشروب مع الشراب المقوي، وشعرت بالأسى
لأنني هزمت، وبالفرحة الكبرى لأنني ربحت الرهان، ولم أذق
في حياتي مشروبا ألذ من ذلك المشروب والمقوي. إذ لا فائدة
من الكذب في هذه الأمور أو التظاهر بأنك لا تتمتع بالريح. لكن

هذا الولد لويس دلفادو كان لاعب ورق في غاية الروعة.
«لو أن الناس لعبوا بما يطيقون احتماله، فلا أظن أنهم
سيجدون متعة في ذلك. ما رأيك، يا إنريك؟»
«لا أعرف. فأنا لم تكن لي طاقة به قط».
«لا تكن سخيفاً. لديك مال كثير».
«لا، ليس لدي ما تقول. حقاً»، قلت له.
«بل كل إنسان عنده مال. وكل ما هنالك هو أن تباع هذا
الشيء أو ذاك لتحصل عليه».
«ليس لدي الكثير، حقاً».
«أوه، لا تكن سخيفاً. فأنا لم أعرف في حياتي أمريكيا إلا
وكان غنيا».

ربما لم يجانبه الصواب. فأنى له أن يلتقي بهؤلاء في مقهى
الريتز أو تشيكوته في تلك الأيام؟ أما وقد عاد الآن إلى تشيكوته،
فإن الأمريكيين الذين سيقابلهم الآن ليسوا من الصنف الذي
اعتاد رؤيته، فيما عداي، وأنا كنت غلطة. كان بودي أن أعطي ما
في وسعي لكي لا أراه هناك.

ومع ذلك فإذا رغب في ارتكاب حماقة كهذه التي ارتكبتها،
فهذا شأنه. لكنني عندما نظرت إلى الطاولة وتذكرت الأيام
الخوالي، أسفت لحاله وندمت على إعطائي النادل رقم مكتب
مكافحة التجسس في مقر الأمن. كان بإمكانه أن يحصل على
رقم الأمن من عامل المقسم. لكنني وفرت له أقصر طريق لاعتقال
دلفادو، وذلك في سورة من النزاهة والاستقامة والفرعنة وتلك
الرغبة القذرة في رؤية كيف يتصرف الناس تحت وطأة الصراع

العاطفي الذي يجعل الكتاب رفاقاً جذابين.

جاءني النادل وقال، «ما رأيك؟».

«ما كنت لأشي به شخصياً»، قلت له، محاولاً أن أكفر
لنفسي عن خطأ إعطائه الرقم. «لكنني أجنبي، وهذه حريكم
ومشكلتكم».

«ولكنك معنا».

«دائماً وأبداً. لكن هذا لا يعني الوشاية بالأصدقاء
القدامى».

«وماذا عني أنا؟».

«الأمر مختلف بالنسبة إليك».

كنت أعلم أن هذا صحيح، ولم يكن لدي ما أقوله سوى ما
قلت، وكم كنت أتمنى ألا أسمع بهذا الأمر إطلاقاً.

لقد ارتوى فضولي بمعرفة كيف يتصرف الناس في مثل هذه
الأحوال، ارتوى منذ زمن بعيد وبطريقة يندى لها الجبين. التفتُ
إلى جون، فلم أنظر إلى الطاولة التي يجلس إليها لويس دلفادو.
كنت أعلم أنه منذ سنة وهو يرافق الطيارين الفاشيين، وها هو
الآن يرتدي زي الموالين ويتحدث مع ثلاثة من الطيارين الموالين
الشباب ممن تخرجوا في آخر دفعة تدريب في فرنسا^(٤٣).

ما كان في وسع أي من هؤلاء الشباب الأغرار أن يعرفوه،
فكنت أتساءل إن كان قد جاء لعله يسرق طائرة أو شيئاً من هذا

(٤٣) دارت الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦-١٩٣٩) التي أطاحت، تحت قيادة الجنرال فرانكو، بالجمهورية الإسبانية الثانية بين فريقين هما القوميون (وقد ضم فريقهم الإقطاعيين، والكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وقادة الجيش، وحزب الكتائب الفاشي) والموالون (وقد ضم فريقهم الليبراليين، والفوضويين، والاشتراكيين، والشيوعيين) [المترجم].

القبيل. ومهما كان دافعه إلى المجيء فقد ارتكب حماقة كبرى في مجيئه الآن إلى تشيكوته.

«كيف تشعر الآن، يا جون؟». سألته.

«بخير»، قال جون. «إنه شراب لا بأس به. ربما يجعلني غير صاح قليلا. إنه يصلح لعلاج الطنين الذي في رأسي».

جاء النادل، وعلامات الإثارة بادية عليه.

«لقد وشيت به»، قال النادل.

«إذن، لم تعد لديك مشكلة»، قلت له.

«نعم، لم تعد»، قال باعتداد. «لقد وشيت به، وهم في طريقهم الآن لاعتقاله».

«دعنا نذهب»، قلت لجون. «لن نسلم من بعض المتاعب هنا».

«إذن، فالأفضل أن نذهب»، قال جون. «دائما تحصل متاعب كثيرة حتى عندما تبذل أقصى ما في وسعك لتفاديها. كم الحساب؟».

«ألن تبقوا؟». سألنا النادل.

«لا».

«لكنك أعطيتني رقم الهاتف».

«أعلم ذلك. لو مكثت في هذه المدينة طويلا لعرفت كثيرا من أرقام الهواتف».

«لكن ذلك كان واجبي».

«أجل. ولم لا؟ فالواجب دافع قوي جدا».

«والآن؟».

«حسن، ألم تشعر بالرضا عما فعلت الآن؟ ربما ستشعر
بالرضا عما فعلت مرة أخرى. وربما ستحب ما فعلت».
«لقد نسيت الصرة»، قال لي النادل. ثم ناولني اللحم الملفوف
بمغلفين وصلت بهما نسخ من مجلة «سبير» لتتكدس بين أكوام
المجلات في أحد مكاتب السفارة.
«أنا متفهم للأمر»، قلت له. «أقول لك الحق».
«لقد كان زيونا قديما، وزيونا جيدا. ثم إنني لم أش بإنسان
قط. لم أش به من أجل المتعة».
«ولا أريد أنا أن أتحدث بما يوحي بالتشكيك أو التوحش.
قل له إنني أنا الذي وشيت به. إنه يكرهني الآن بسبب خلافات
سياسية. وسوف يشعر بالحزن إن علم أنك وشيت به».
«لا. فكل إنسان يتحمل مسؤولية أفعاله. لكنك متفهم؟».
«نعم»، قلت له. ثم كذبت، قائلًا، «إنني أتفهم ما فعلت
وأستحسنه». غالبا ما يتعين عليك أن تكذب في ظروف الحرب،
لكن إن اضطررت إلى ذلك فعليك أن تكذب بسرعة وإتقان.
صافحته وخرجت مع جون. التفت إلى الوراء، وأنا خارج،
لأنظر إلى الطاولة التي كان يجلس إليها لويس دلفادو. كانت
أمامه كأس أخرى من الجن والمقوي، وكان كل من يجلس إلى
طاولته يضحك بسبب شيء قاله. كان ذا وجه أسمر بشوش،
وعيني صياد، وكنت أتساءل عن الصفة التي انتحلها لنفسه.
لقد ارتكب حماقة بمجيئه إلى تشيكوته. لكن مثل هذا الفعل
بالذات سيكون مدعاة للتفاخر بين أهله وأصحابه عندما يعود
إليهم. وبينما كنا نخرج من الباب وننعطف نحو الشارع، توقفت

سيارة أمن كبيرة أمام تشيكوته وخرج منها ثمانية رجال. أخذ ستة مواقعهم عند الباب، وهم يحملون بنادق نصف آلية، بينما دخل اثنان وهما بالزي المدني. سألنا أحد الرجال عن هويتنا، فقلت له «أجانب» فسمح لنا بمتابعة مسيرنا من غير اعتراض أو ممانعة^(٤٤).

وبينما نحن نصعد الشارع الكبير في الظلام، رأينا الكثير من الزجاج المحطم حديثا على الرصيف والأنقاض تحت أقدامنا بسبب القصف. كان الجو لا يزال يعج بالدخان ورائحة المتفجرات والغرائيت المدمر.

«أين ستأكل؟». سألني جون.

«عندي لحم يكفي للجميع، ويمكننا أن نطبخه في الغرفة». «أنا سأطبخه»، قال جون. «أنا طباخ جيد. أذكر إحدى المرات عندما كنت أطبخ على متن سفينة».

«إنه في غاية المتانة»، قلت له. «إنه لحم طازج».

«لا، لا»، قال جون. «فالحرب لا تعرف لحما متينا».

كان الناس يحثون الخطى في الظلام، عائدين إلى بيوتهم من دور السينما حيث كانوا يلتجئون إلى أن ينتهي القصف.

«ماذا دهي ذلك الفاشي ليأتي إلى ذلك المقهى حيث الكل يعرفه؟».

«لقد كان مجيئه ضربا من الجنون».

«وهذه هي مشكلة الحرب»، قال جون، «إذ يكثر فيها

المجانين».

(٤٤) شكل المتطوعون الأجانب، ومنهم بعض المغاربة، «الألوية الدولية» للقتال إلى جانب الموالين [المترجم].

«أعتقد أنك أصبت في هذا، يا جون»، قلت له.
عدنا إلى الفندق ودخلنا من الباب عبر أكياس الرمال المقدسة
لحماية مكتب البواب، وطلبت منه المفتاح، لكنه قال إن اثنين من
الرفاق صعدا إلى الغرفة ليستحما، فأعطاهما المفتاح.
«اصعد، يا جون، فأنا أريد أن أتصل بالهاتف».
توجهت إلى حجيرة الهاتف واتصلت بذات الرقم الذي أعطيته
للنادل.
«ألو؟ بيبه؟»

جاءني صوت رفيع عبر الهاتف، «كيف حالك، يا إنريك؟»
«قل لي يا بيبه، هل اعتقلتم شخصا اسمه لويس دلفادو في
مقهى تشيكوته؟»

«نعم، يا رجل، نعم. كالعادة. بلا متاعب».
«هل قلتم له أي شيء عن النادل؟»
«لا، يا رجل، لا».
«إذن، لا تقولوا له. قولوا له إنني أنا الذي وشى به. لا تذكروا
له النادل».

«ولماذا نقول له ذلك؟ إنه جاسوس، وسيعدم. لا خيار لنا في
الأمر».

«أعرف ذلك»، قلت له. «لكن هناك فرقا».
«كما تريد، يا رجل. كما تريد. متى سأراك؟»
«على الغداء غدا. لدينا بعض اللحم».
«والمشروب قبله. حسن، يا رجل، حسن».
«إلى اللقاء، يا بيبه، وشكرا لك».

«إلى اللقاء، إنريك. لا داعي للشكر. إلى اللقاء».

كان صوتا غريبا ومرعبا جدا، ولم آلف سماعه قط، لكنني شعرت بتحسن كبير وأنا أصعد الدرج.

كان لمقهى تشيكوته علينا، نحن زبائنه القدامى، شيء من السحر يجذبنا إليه. وكنت أعلم أن هذا هو ما شد لويس دلغادو للعودة إليه. كان بإمكانه أن يقضي عمله في مكان آخر. لكن إن جاء إلى مدريد، فعليه أن يذهب إلى هناك. كان واحدا من الزبائن الجيدين، كما قال النادل، وكنا أصدقاء. ومما لا شك فيه أن أي بادرة من الكياسة تأتي بها في هذه الدنيا، مهما صغرت، فهي جديرة بأن تفعل. لهذا سررت لأنني اتصلت بصديقي بيبه في مقر الأمن، لأن لويس دلغادو كان أحد زبائن مقهى تشيكوته القدامى ولم أكن أرغب في أن يصاب بالصدمة أو المرارة إزاء النذل قبل أن يموت.

الفراشة والديابة [١٩٣٨]

كنت عائدا هذا المساء إلى فندق فلوريدا مشيا على قدمي من مكتب الرقابة وكانت السماء تمطر. وفي منتصف الطريق سئمت من المطر، فخرجت على مقهى تشيكوته لأتناول مشروباً على عجل. كان هذا ثاني شتاء من القصف في حصار مدريد، وكان النقص في كل شيء حتى في التبغ وأمزجة الناس، وكان الجوع يصاحبك دائماً، فتتضايق فجأة وبلا مبرر من أشياء لا حول لك ولا قوة إزاءها كالطقس مثلاً. كان الأجر بي أن أتابع مسيري إلى الفندق. لم يكن يبعد سوى خمس حارات، لكنني عندما رأيت باب المقهى خطر لي أن أتناول مشروباً على عجل، وبعدها أقطع الحارات الست في الشارع الكبير عبر الوحل وأنقاض الشوارع التي دمرها القصف.

كان المقهى مكتظاً، وكانت جميع الطاولات مزدحم بالزبائن. كانت ملأى بالدخان والغناء ورجال في الزي العسكري ورائحة المعاطف الجلدية المبللة، وكانت الكؤوس تدار من فوق حشود بلغ عمقها حول المشرب ثلاثة صفوف.

جلب لي نادل أعرفه كرسيًا من طاولة أخرى، فجلست مع ألماني نحيف، أبيض الوجه، ذي حنجرة ناتئة. كنت أعرف هذا الألماني، إذ كان يعمل في مكتب الرقابة، وكان يجلس معنا اثنان آخران لا أعرفهما. كانت الطاولة في منتصف الصالة وإلى يمين المدخل قليلاً.

كان الغناء يجعل من المستحيل عليك أن تسمع نفسك عندما تتحدث، فطلبت كأساً من المشروب، عليها تقيني من شر البرد. كان المكان مزدحماً، وكان الجميع مبتهجين، وربما يكون سبب ابتهاجهم المفرط عائداً إلى تناول معظمهم للمشروب الكاتالوني المصنَّع حديثاً. صفعني على ظهري شخصان لا أعرفهما، وعندما كلمتي الفتاة الجالسة معنا لم أسمعها، فقلت لها، «بالتأكيد».

أما وقد توقفت عن النظر حولي وركزت أنظاري على طاولتنا، تبين لي الآن مدى بشاعة الفتاة الجالسة أمامي. يا إلهي، ما أبشعها! كما تبين لي أيضاً، عندما أتى النادل، أن ما طلبته هو أن تتناول مشروباً على حسابي. لم تبد على رفيقها علامة من علامات الجراحة، لكن جراتها هي كانت كافية لكليهما. كان لها وجه صارم، كلاسيكي تقريبا، وكأنه وجه مروضة للأسود، أما الصبي الذي معها فبدا جديراً بلبس ربطة عنق مدرسية عتيقة. لكنه لم يكن كذلك. بل كان يرتدي معطفاً جلدياً مثلنا تماماً، وإن لم يكن مبللاً لأنهما جاءا إلى المقهى قبل هطول المطر. وهي أيضاً كانت ترتدي معطفاً جلدياً، وكان ملائماً لنوع وجهها.

في هذه الأثناء كنت أتمنى لو أنني لم أعرج على مقهى تشيكوته، بل لو تابعت طريقي إلى الفندق حيث بمقدوري أن أبدل ملابسني، وأن أنشف نفسي، وأن أستمتع بمشروبي وأنا في السرير وقدمائي مرفوعتان، فقد سئمت من النظر إلى هذين الشابين. إن الحياة قصيرة جداً، بعكس النساء القبيحات تماماً، وبرغم كوني كاتباً يفترض أن يكون لديه فضول عارم للتعرف على كل أنواع البشر، قررت وأنا جالس أنني لا أريد أن أعرف

حقا إن كان هذان الشابان متزوجين، أو ما الذي رآه كل منهما في الآخر، أو ما خطهما السياسي، أو إن كان لدى أي منهما قليل من المال، أو أن أعرف أي شيء عنهما. قلت في نفسي لا بد أنهما يعملان في الإذاعة. ففي كل مرة ترى فيها مدنيين شاذي المنظر في مدريد، تجد أنهما يعملان في الإذاعة. ولكي أقول شيئا، رفعت صوتي فوق صوت الضجيج وسألتهما، «هل أنتما في الإذاعة؟».

«نحن كذلك»، قالت الفتاة. إذن، لقد حررت. إنهما في الإذاعة.

«كيف حالك، يا رفيق؟». قلت للألماني.

«بخير. وأنت؟».

«مبلل»، قلت له، فضحك ورأسه مائل على أحد الجانبين.

«أليس عندك سجائر؟». سألني، فناولته علبتي ما قبل الأخيرة، فأخذ سيجارتين. أخذت الفتاة الجريئة سيجارتين، أما الشاب ذو الوجه الذي يليق بربطة عنق مدرسية عتيقة فأخذ واحدة.

«خذ واحدة أخرى»، صحت به.

«لا، شكرا»، قال لي، فأخذها الألماني بدلا منه.

«هل عندك مانع؟». سألني مبتسما.

«طبعاً، لا»، قلت له. كان فعلاً لدي مانع، وكان يعلم ذلك. لكن رغبته في الحصول على السجائر كانت عارمة إلى درجة جعلته لا يكثر بممانعتي. هدايا الغناء مؤقتة، أو ربما كان هناك فاصل كما في العواصف، فتمكنوا جميعاً من سماع ما نقول.

«هل صار لك مدة طويلة هنا؟». سألتني الفتاة الجريئة.

«تقريبا»، قلت لها.

«يجب أن نتحدث بجدية»، قال لي الألماني. «أريد أن أتحدث معك بجدية، فمتى يمكننا ذلك؟».

«سأتصل بك»، قلت له. كان هذا الألماني غريب الأطوار فعلا، ولم يكن أي من الألمان الجيدين يحبونه. كان يتوهم أنه يستطيع العزف على البيانو، لكن لو حبسته عن تلك الآلات فلا مشكلة لديه، ما لم يتوافر لديه المشروب أو فرصة للثرثرة، وحتى الآن لم يتمكن أحد من منعه من هاتين.

كانت الثرثرة أفضل صنعة يتقنها، فهو دائما يعرف أخبارا لا تصدق إطلاقا عن أي شخص يخطر في بالك في مدريد، أو بنسبا، أو برشلونة، أو في أي مركز سياسي آخر.

في تلك اللحظة بالذات استؤنف الغناء مجددا، فلم تعد الثرثرة بصوت عال مجدية، وهكذا بدا قضاء ذلك العصر في المقهى مملا، فقررت أن أغادر حالما أشتري جرعة من الشراب لنفسي.

في تلك اللحظة بالذات حدث ما حدث. قام مدني يرتدي بذلة بنية، وقميصا أبيض، وربطة عنق سوداء، له شعر ينكفئ باستقامة نحو الخلف من جبين عال نوعا ما، وكان يطوف من قبل بين الطاولات بحركات تهريجية، قام هذا المدني بزرق أحد الندل بمسدس مائي. ضحك الجميع ما عدا النادل الذي كان يحمل آنية ممتلئة بالمشروبات في تلك اللحظة.

«نو آي دريتشو»، قال له النادل ساخطا . وهذا معناه، «ليس لك الحق في أن تفعل هذا»، وهذه أبسط عبارة احتجاج وأقواها في إسبانيا .

انتشى صاحب المسدس بنجاحه، غير آبه بكون الحرب مستمرة للسنة الثانية، أو بكونه في مدينة محاصرة حيث أعصاب الجميع مشدودة، أو بكونه واحدا من بين أربعة فقط في ذلك المكان يرددون ملابس مدنية، فقام بزرق نادل آخر بمسدسه .
تطلعت حولي أبحث عن مكان أنبطح فيه . ثار سخط هذا النادل أيضا، فزرقه صاحب المسدس مرتين أخريين بلا مبالاة . ومع ذلك وجد بعض الناس، بمن فيهم الفتاة الجريئة، أن الأمر مضحك . أما النادل فقد تسممر مكانه، وهو يهز برأسه، وكانت شفتاه ترتجفان . كان رجلا عجوزا ومنذ أن عرفت مقهى تشيكوته منذ عشر سنوات وهو يعمل فيه .

«نو آي دريتشو»، قال له النادل بوقار .

لكن الناس ضحكوا، فقام صاحب المسدس، الذي لم ينتبه إلى خفوت صوت الغناء، بزرق نادل آخر على رقبتة من الخلف . التفت النادل، وهو يحمل آنيته، وقال، «نو آي دريتشو» .

لم يعد هذا القول مجرد احتجاج هذه المرة، بل صار اتهاما . رأيت ثلاثة رجال بزي عسكري ينهضون من إحدى الطاولات ويتجهون نحو صاحب المسدس، وفي لمح البصر خرج الأربعة من الباب الدوار، وسمعنا أحدهم يصفع صاحب المسدس على فمه . حمل شخص آخر المسدس ورماه من الباب خلفه .

عاد الرجال الثلاثة صارمين، متجهمين، راضين بما فعلوا .

ثم استدار الباب ودخل صاحب المسدس. كان شعره منكفئاً نحو عينيه، والدم يسيل على وجهه، وربطة عنقه مشدودة إلى أحد الجانبين، وقميصه ممزقاً. كان يمسك بالمسدس، وبينما كان يندفع في الصالة، ساخط العينين، أبيض الوجه، راح يسدد مسدسه من غير هدف نحو الحشد، متحدياً.

رأيت أحد الرجال الثلاثة يتجه نحوه ورأيت وجه هذا الرجل. انضم إليه رجال آخرون الآن، فحاصروا صاحب المسدس بين طاولتين على يسار المدخل، وراح صاحب المسدس يصارع باهتياج، وعندما أطلقت النار أمسكت بالفتاة الجريئة من ذراعها وركضت نحو باب المطبخ.

كان باب المطبخ مغلقاً، وعندما حاولت فتحه بكتفي، لم يتحرك.

«انزلي هنا خلف هذه الزاوية»، قلت لها، فركعت.

«انبطحي»، قلت لها ثم دفعتها نحو الأرض، فراحت تتميزز من الفيظ.

سحب كل رجل في الصالة مسدسه، ما عدا الألماني، الذي اختبأ وراء إحدى الطاولات، والصبي الذي يبدو كطالب في مدرسة حكومية، حيث وقف يتناول مع الجدار في إحدى الزوايا. كانت ثلاث فتيات ذوات شقرة زائفة، حيث بدا شعرهن أسود عند الجذور، يقفن على رؤوس أصابعهن على مقعد بجدار ليشاهدن ما يجري، وكن يصرخن بلا انقطاع.

«لست خائفة»، قالت الجريئة. «هذا شيء سخيف».

«لا داعي لأن تقتلي بسبب شجار في مقهى»، قلت لها. «يمكن أن تجري الأمور على نحو سيئ إن كان لصاحب المسدس المائي أي أنصار هنا».

لكن اتضح أنه بلا أنصار، حيث أعاد الجميع أسلحتهم إلى أماكنها، وأنزل أحدهم الشقراوات الصارخات عن المقعد، وعاد الجميع إلى أماكنهم، تاركين صاحب المسدس يستلقي على ظهره على الأرض.

«لن يبرح أحد مكانه حتى تأتي الشرطة»، صاح أحدهم من عند الباب.

كان شرطيان مسلحان من دورية كانت تجوب الشوارع يقفان عند الباب، وعند هذا الإعلان رأيت ستة رجال يصطفون، كما لو يصطف فريق لكرة القدم، ثم يخرجون من الباب. ثلاثة من هؤلاء كانوا الرجال الذين رموا صاحب المسدس خارج الباب في البداية. وواحد كان الذي أطلق عليه النار. تسللوا من بين الشرطيين المسلحين، فتعثرت جهودهما وأفشل هدفهما. وبعد أن خرجوا، وضع أحد الشرطيين بندقيته بشكل متعامد على الباب وقال، «لا يمكن لأحد أن يغادر. لا أحد على الإطلاق».

«لماذا خرج أولئك الرجال إذن؟ لماذا تحتجزنا عندما يغادر غيرنا؟».

«إنهم ميكانيكيون يعملون في المطارات وعليهم أن يعودوا إلى عملهم»، قال شخص ما.

«لكنه من السخف أن تحتجزنا عندما يغادر غيرنا».

«على الجميع أن ينتظر حضور الأمن. يجب أن تجري الأمور بشكل قانوني ومنظم».

«لكن ألا تعتقد أنه من السخف أن تحتجز الناس عندما يغادر غيرهم؟».

«لا أحد يستطيع أن يغادر، وعلى الجميع أن ينتظر».

«هذه مهزلة»، قلت للفتاة الجريئة.

«لا، ليست كذلك. إنها فظاعة».

وقفنا على أقدامنا الآن، فراحت تحرق بسخط باتجاه صاحب المسدس المسجى على ظهره. كانت ذراعه مبسوطتين إلى أقصاهما، وكانت إحدى ساقيه مضمومة نحو الأعلى.

«أنا ذاهبة لمساعدة ذلك المسكين الجريح. لماذا لم يساعده أحد أو يفعل له شيئاً؟».

«أقترح عليك أن تتركه وشأنه، عليك ألا تتورطي في هذا الأمر».

«ولكن الأمر في غاية الوحشية. أنا ممرضة وسأعطيه الإسعافات الأولية».

«لا تفعلي، ولا تقتربي منه»، قلت لها.

«ولم لا»، سألتني بنبرة حانقة تقترب من الهستيريا.

«لأنه ميت»، قلت لها.

عندما وصلت الشرطة، احتجزوا الجميع لمدة ثلاث ساعات. بدأوا أولاً بشم جميع المسدسات، لعلهم يتمكنون من اكتشاف أي مسدس أطلقت منه النار أخيراً. وبعد أن شموا نحو أربعين مسدساً، سئموا من هذا الأمر، إذ لا يمكن للمرء أن يشم سوى

رائحة المعاطف الجلدية المبللة. بعد ذلك جلسوا إلى طاولة نصبوها وراء الفقيد الراحل المستلقي على الأرض كأنه صورة كاريكاتيرية من الشمع الشاحب، ويداه ووجهه كأنها قدت من شمع. جلسوا هناك ليدققوا هويات الناس.

كان ظاهرا للعيان من خلال قميصه الممزق أن صاحب المسدس لم يكن يرتدي قميصا داخليا، كما أن نعلي حذائه كانا مهترئين. بدا صغيرا جدا، وكان منظره وهو مسجى على الأرض مثيرا للشفقة. كان علينا أن نخطو من فوقه كي نصل إلى الطاولة التي كان يجلس وراءها شرطيان بملابس مدنية ليدققا هوياتنا. أضع الزوج أوراقه مرات عدة من شدة التوتر ثم وجدها. كان يحمل جواز عبور في مكان ما، لكنه أضعاه في أحد جيوبه، فيظل يبحث عنه ويتقصّد عرقا إلى أن يجده. وبعد أن يجده يضعه في جيب آخر، ما يوجب عليه البحث من جديد. كان عرقه يتصبّب بغزارة أثناء بحثه هذا، فصار شعره شديد التجدد ووجهه شديد الاحمرار. صار منظره الآن يستحق أن يلبس ليس ربطة عنق مدرسية قديمة فقط، بل واحدة من القبعات الصغيرة التي يلبسها الأولاد في الصفوف الدنيا أيضا. لا بد أنكم سمعتم أن الأحداث تشيب لهولها الولدان. حسنا، صاحبنا هذا عاد عشر سنين إلى الوراء نتيجة إطلاق النار!

وبينما نحن ننتظر قلت للفتاة الجريئة إن ما حدث يشكل، في رأيي، قصة جيدة جدا وإنني سأكتبها في يوم من الأيام. فالطريقة التي اصطف بها الرجال الستة وكيفية خروجهم من ذلك الباب كانت جديرة بالإعجاب. أصيبت بالصدمة وقالت إنني

لا يمكن أن أكتبها لأن في كتابتها إساءة إلى قضية الجمهورية الإسبانية. قلت لها إنني أمضيت وقتا طويلا في إسبانيا، وإن عهد الملكية المندثرة شهد عددا هائلا من حوادث إطلاق النار في بلنسيا، وأنه قبل قيام الجمهورية بمئات السنين كان الناس في الأندلس يقطعون بعضهم بعضا بسكاكين تسمى نافاخا، وإن شهدت حادث إطلاق نار مضحكا في مقهى تشيكوته خلال الحرب فإنني سأكتب عنه كأنه حدث في نيويورك، أو شيكاغو، أو كي وست، أو مارسيليا. فالأمر لا علاقة له بالسياسة. أشارت إليّ بآلا أفعل. ومن المرجح أن كثيرا من الناس سيشير إليّ بذات الرأي. لكن الألماني يعتقد، فيما يبدو، أن ما حدث قصة جيدة جدا، فأعطيته ما تبقى لدي من سجائر «الجمال». على أي حال، سمحت لنا الشرطة بالمغادرة بعد نحو ثلاث ساعات.

كان رفاقي في فندق فلوريدا قلقين عليّ إلى حد ما، لأن القصف يجعل الناس يقلقون إذا انطلقت إلى بيتك على الأقدام في تلك الأيام ولم تصل بعد إغلاق الحانات في الساعة والنصف. سررت بوصولي سالما وبينما كنا نعد العشاء على طباخ كهربائي رويت لهم القصة فلاقت رواجاً كبيراً.

على أي حال، توقف المطر ليلا، وكان صباح اليوم التالي يوما جميلا ناصعا في ذلك الشتاء البارد، وفي الواحدة إلا ربعا دخلت مقهى تشيكوته لتناول قليل من الشراب قبل الغداء. لم يكن في المقهى في تلك الساعة سوى بضعة أناس، فجاء إلى طاولتي نادلان ومدير المقهى، وكانوا جميعا يتسمون. «هل أمسكوا بالقاتل؟». سألتهم.

«لا تمزح والنهار لا يزال في أوله»، قال لي المدير. «هل رأيته أنت والنار تطلق عليه؟».

«نعم»، قلت له.

«وأنا كذلك»، قال لي. «لقد كنت هنا تماما عندما حدث الإطلاق». ثم أشار إلى طاولة في الزاوية. «لقد وضع المسدس في صدر الرجل تماما عندما أطلق النار عليه».

«إلى متى ظلوا يحتجزون الناس؟».

«أوه، إلى ما بعد الثانية من هذا الصباح».

«لقد جاءوا فقط من أجل الفيامبري»^(*)، «جاءوا في الحادية عشرة صباحا».

«لكنك لا تعرف شيئا عن هذا بعد»، قال لي المدير.

«لا. إنه لا يعرف»، رد أحد النادلين.

«إنه أمر نادر جدا»، قال نادل آخر.

«ومحزن أيضا»، قال المدير وهو يهز رأسه.

«أجل، محزن وغريب»، قال النادل. «محزن جدا».

«قل لي».

«إنه أمر نادر جدا»، قال المدير.

«أخبرني. هيا، أخبرني».

انحنى المدير فوق الطاولة كمن يريد أن يفشي سرا عظيما،

وقال، «كان المسكين يضع ماء الكولونيا في المسدس».

«وكما ترى، لم تكن مزحته تفتقر إلى الذوق»، قال النادل.

(*) وهذه الكلمة تعني الجبّة في العامية الإسبانية، وهي ذات الكلمة المستخدمة في قائمة الأطعمة في المطاعم. أي اللحم البارد.

«لم يكن في الأمر سوى المرح. كان الأجدر ألا ينزعج منه أحد. يا له من مسكين».

«لقد فهمت»، قلت له. «إذن، كان يريد أن يدخل البهجة إلى قلوب الجميع».

«أجل»، قال المدير. «لقد كان الأمر مجرد سوء فهم منحوس».

«وماذا حل بالمسندس المائي؟».

«أخذته الشرطة ثم أرسلته إلى أسرته».

«أظن أنهم سيسرون به»، قلت له.

«أجل»، قال المدير. «بلا شك. فالمسندس المائي مفيد دائما».

«ماذا يعمل ذلك الرجل؟».

«نجار موبيليا».

«متزوج؟».

«نعم، وقد جاءت زوجته إلى هنا مع الشرطة صباح هذا

اليوم».

«ركعت إلى جانبه وقالت، بيدرو، ما الذي فعلوه بك، يا بيدرو؟

من فعل بك هذا؟ أوه، يا بيدرو؟».

«بعد ذلك أبعدها الشرطة لأنها لم تتمكن من السيطرة على

نفسها»، قال النادل.

«يبدو أنه كان يعاني وجعا في صدره»، قال المدير.

«كان يقاتل في صفوف الحركة في انطلاقته الأولى. يقال

إنه قاتل في الجبال لكن وجعا في صدره حال دون مواصلته

القتال».

«لهذا خرج عصر أمس ليوزع البهجة على المدينة»، قلت على سبيل الشرح.

«لا»، قال المدير. «كما ترى، فالأمر نادر الحدوث. كل شيء نادر. هذا ما أتعلمه من الشرطة التي يمكن أن تكون كفوءة إن أتيح لها الوقت الكافي. لقد استجوبوا بعض الرفاق الذين يعملون معه في المحل. وقد استطاعوا أن يستدلوا على المحل من بطاقته النقابية التي كانت في جيبه. لقد اشترى المسدس المائي وماء الكولونيا ليستخدماه في مزحة في حفلة زفاف. وكان قد صرح بنيته علنا. لقد اشتراهما من الجهة المقابلة للمقهى. كانت على قنينة الكولونيا قسيمة تحمل العنوان. كانت القنينة في مرحاض المطعم، إذ ذهب إلى هناك ليملأ مسدسه. بعد شرائهما لا بد أنه أتى إلى هنا عندما بدأ المطر يهطل».

«أنا أذكر عندما دخل»، قال أحد النادلين.

«لقد انجرف مع تيار الفرح والغناء».

«نعم، لقد كان فرحا بما لا يدع مجالا للشك»، قلت له. «لقد

كان في الواقع يطير من الفرح».

واصل المدير منطقه الإسباني الذي لا يتزحزح، وقال، «لقد

اجتمعت بهجة النشوة مع وهن في الصدر».

«لا تعجبني هذه القصة كثيرا»، قلت له.

«أقول لك إنها نادرة»، قال المدير. «لقد التحم المرح عنده

بجدية الحرب كما تلتحم فراشة».

«أجل، كما تلتحم فراشة»، قلت له. «تماما كما تلتحم

فراشة».

«أنا لا أمزح»، قال المدير. «هل ترى؟ إن الأمر أشبه بالفراشة والدبابة».

لقد سره هذا القول سرورا عظيما، إذ تمكن من الغوص في أعماق الميتافيزيقيا الإسبانية الحقيقية. «اشرب على حساب المقهى»، قال لي. «عليك أن تكتب قصة عن هذه الحادثة».

تذكرت صاحب المسدس ويديه ووجهه الشمعيين، وذراعيه الممدودتين إلى أقصاهما، وساقيه المضمومتين إلى الأعلى، فبدا إلى حد ما، ليس كثيرا، كأنه فراشة. ولكنه من جهة أخرى لم يكن يشبه البشر. في الواقع كان أكثر ما يذكرني بعصفور ميت. «أريد كأسا من الشراب»، قلت له.

«عليك أن تكتب قصة عن الأمر»، قال لي المدير. «هذا هو الحظ يأتيك إلى هنا».

«الخط»، قلت له. «لقد أشارت عليّ فتاة إنجليزية ليلة أمس ألا أكتب عن الموضوع، لأن في ذلك إساءة إلى القضية». «أي هراء هذا!» قال المدير. «عندما يلتقي المرح الذي يساء فهمه مع الجدية القاتلة الضاربة أطنابها دوما هنا، فإن الأمر في غاية المتعة والأهمية. إن الأمر بالنسبة إلي أمتع شيء وأندر شيء رأيته منذ سنين. لا مناص لك من الكتابة عنه».

«لا بأس»، قلت له. «بالتأكيد. هل لديه أولاد؟». «لا، لقد سألت الشرطة. لكن عليك أن تكتب القصة وعليك أن تسميها الفراشة والدبابة»، قال لي. «لا بأس»، قلت له. «بالتأكيد. لكن العنوان لا يعجبني كثيرا».

«بل إنه أنيق جدا»، قال لي المدير. «إنه الأدب بعينه».
«لا بأس»، قلت له. «بالتأكيد. هذا ما سنسميها. الفراشة
والدبابة»

وأنا جالس في ذلك الصباح المرح الساطع^(٤٥) في ذلك المقهى
النظيف الجيد التهوية، مع صديقي القديم، مدير المقهى الذي
ابتهج كثيرا بالأدب الذي سنشترك في كتابته، أخذت رشفة من
الشراب، ونظرت من النافذة المحاطة بأكياس الرمل، وفكرت في
الزوجة الراكعة إلى جانب زوجها وهي تناديه: «بيدرو، بيدرو،
من فعل بك هذا يا بيدرو؟». خطر لي أن الشرطة لن تتمكن
من إخبارها حتى لو حصلوا على اسم الرجل الذي أطلق عليه
النار.

(٤٥) يبدو أن همنغواي نسي أن راوي القصة قد صرح من قبل أنه جاء إلى المقهى في الواحدة
إلا ربما، أي أنه جاء بعد انقضاء الصباح بمدة [الترجم].

تحت سفح الجبل [١٩٣٩]

كان يوما قائظا والغبار يعصف، فخرجنا من المعركة وقد جفت أفواهنا، وسدت أنوفنا، وأثقلت كواهلنا بما حملت، عائدین إلى سلسلة الجبال الطويلة المطلة على النهر حيث تتجمع قوات الاحتياط الإسبانية.

جلست مسندا ظهري على جدار الخندق الضئيل، بينما أسندت كتفي ومؤخرة رأسي على التراب الذي صار بمنجاة الآن حتى من الرصاص الطائش، ونظرت إلى المشهد الممتد في الفجوة أمامنا. كانت هناك دبابات الاحتياط المغطاة بأغصان الزيتون، وإلى يسارها سيارات الأركان المموهة بالطين والأغصان، وبين هذه وتلك كان هناك خط طويل من الرجال يحملون نقالات ثم يهبطون في شعب متعرج إلى منبسط السلسلة الجبلية حيث سيارات الإسعاف تحمل. كانت بغال المؤن المحملة بأكياس الخبز وبراميل المشروب، تتبعها بغال محملة بالذخيرة، تصعد الأخدود وراء سائقها، ويرافقها في رحلة صعودها البطيء رجال يحملون نقالات فارغة.

على يميني، وتحت منعطف السلسلة، كنت أرى مدخل الكهف الذي يعمل فيه أركان اللواء، وأسلاك الإشارة خارجة من أعلى الكهف ثم تتلوى من فوق السلسلة إلى الملجأ الذي كنا نحتمي به. كان سائقو الدراجات النارية في ملابسهم الجلدية وخوذاتهم يصعدون في الأخدود أو يهبطون على دراجاتهم، وعندما يشق

عليهم الصعود أو الهبوط، كانوا يمشون بمحاذاتها إلى أن يصلوا إلى مدخل الكهف حيث ينحنون للدخول. وبينما كنت أراقب المشهد، رأيت هنفاريا ضخما من معارفي يخرج من الكهف، وهو يحشو بعض الأوراق في محفظة جيبه، ويتجه إلى دراجته. أخذ يدفع دراجته من بين سيل البغال وحملة النقلات، ثم قذف بإحدى ساقيه فوق السرج، وانطلق هادرا من فوق السلسلة، مثيرا خلفه عاصفة من الغبار.

في الأسفل كان شريط أخضر يعبر المنبسط الذي تجوبه سيارات الإسعاف ذهابا وإيابا، فيرسم مسار النهر. وكان هناك منزل كبير ذو سقف قرميدي أحمر، وطاحونة حجرية باهتة اللون، ومن بين الأشجار المحيطة بالبيت الكبير وراء النهر، كانت بنادقنا تومض. كانوا يسددون إصابات مباشرة نحونا، حيث تتوالى ومضات مزدوجة، يتلوها دوي الأسلحة النارية ذات البوصات الثلاث قصيرا، مجلجلا، يعقبها دوي القذائف قادمة نحونا ثم يمر فوق رؤوسنا. وكعادتنا، كانت تعوزنا المدفعية. لم يكن لدينا سوى أربع بطاريات منها، في حين يجب أن يكون لدينا أربعون، ولم نكن نستخدم سوى رشاشين في آن واحد. لقد فشل الهجوم قبل أن نهبط.

«هل أنتم روس؟». سألني جندي إسباني.

«بل أمريكيان»، قلت له. «هل لديك ماء؟».

«نعم، يا رفيق». ثم ناولني قربة مصنوعة من جلد الخنزير. كانت قوات الاحتياط هذه لا تعرف من الجندية سوى اسمها وزياها الرسمي الموحد. لم يكن من المفترض أن يشاركوا في

الهجوم، لذلك انتشروا في نسق محاذ لسفح الجبل، على شكل مجموعات، إما يأكلون، أو يشربون، أو يتحدثون، أو يجلسون منتظرين كالبلهاء. كان الهجوم تقوم به أحد الألوية الدولية. شرب كلانا، وكان للماء طعم الإسفلت وشعر الخنازير. «المشروب أفضل»، قال لي الجندي. «سأجلب المشروب». «نعم، لكن لا شيء يروي الغليل كالماء». «لا عطش كعطش المعركة. حتى أنا، جندي الاحتياط، شديد العطش».

«هذا هو الخوف»، قال جندي آخر. «العطش يعني الخوف». «لا»، رد جندي آخر. «العطش ملازم دائم للخوف. لكن العطش يشتد في المعركة حتى عندما ينعدم الخوف». «لا تخلو الحرب قط من الخوف»، قال الجندي الأول. «بالنسبة إليك»، قال الجندي الثاني. «إنه شيء طبيعي»، قال الجندي الأول. «بالنسبة إليك». «سد فمك القدر»، قال الجندي الأول. «أنا بكل بساطة رجل يقول الحق».

كان يوما من أيام أبريل الناصعة، وكانت الريح تهب بعنف جعلت كل بغل يصعد الأخدود يثير زوبعة من الغبار. وكذلك كان كل واحد من حاملي النقاله يثير زوبعة من عنده، فتلتقيان لتشكلا زوبعة أكبر، وبدورها كانت سيارات الإسعاف التي تعبر المنبسط أسفل السفح تخلف وراءها ضفائر طويلة من الغبار تتبعثر نتفا في الريح.

أيقنت الآن أنني لن أقتل في ذلك اليوم، ومنبع يقيني هذا من كوننا قمنا بواجبنا خير قيام، إضافة إلى ذلك أن موتنا استحق مرتين في المراحل الأولى من الهجوم لكننا لم نمت. كانت المرة الأولى عندما رافقنا الدبابات واخترنا مكانا نصور منه الهجوم. بعد ذلك انتابني شعور من الريبة حول المكان، فنقلنا الكاميرات مسافة مائتي ياردة إلى اليسار. وقبل أن أغادر المكان، قمت بتعليمه بأقدم الطرق المعروفة^(٤٦)، وخلال عشر دقائق سقطت قذيفة طولها ست بوصات في ذات المكان، فإذا به أثر بعد عين، وخلفت القذيفة حفرة كبيرة في الأرض.

ثم بعد ساعتين جاءنا ضابط بولندي فُرز أخيرا من الكتيبة إلى هيئة الأركان، وتطوع ليطلعنا على المواقع التي استولى عليها البولنديون توا، فخرجنا نحتمي بثنية إحدى الروابي لنزحف من تحت وابل نيران المدافع الرشاشة، ندس ذقوننا في التراب ونلتهم الغبار بأنوفنا، لنكتشف أن البولنديين لم يستولوا على أي موقع في ذلك اليوم إطلاقا، بل تراجعوا قليلا عن الأماكن التي كانوا قد انطلقوا منها. وبينما كنت أجلس محتميا بالخندق، راح العرق يتصبب مني والجوع يقرصني، والعطش يكويني، والخواء يملأ كياني بعد أن زال خطر الهجوم.

«هل أنت متأكد أنك لم تستم روسيا؟». سألني أحد الجنود.
«فالروس موجودون هنا اليوم».
«أجل، لكننا لسنا روسيا».
«إن وجهك كوجه الروسي».

(٤٦) أي بالتبول، وهي الطريقة التي تتبعها ذكور الحيوانات لتعليم حرم أراضيها [المترجم].

«لا»، قلت له. «أنت مخطئ، أيها الرفيق. إن لدي وجهها مضحكا، لكنه ليس وجهها روسيا».

«إن وجهه كوجه الروسي»، قال وهو يشير إلى أحدنا الذي كان يصلح الكاميرا.

«ربما، لكنه ليس روسيا. من أين أنت؟»

«من إكستريماديورا»، قال باعتزاز^(٤٧).

«هل يوجد روس في إكستريماديورا؟». سألته.

«لا»، قال باعتزاز أكبر. «لا يوجد روس في إكستريماديورا، ولا يوجد إكستريماديوريون في روسيا».

«ما هو اتجاهك السياسي؟»

«أنا أكره كل الأجانب»، قال لي.

«هذا برنامج سياسي عريض».

«أكره المغاربة، والإنجليز، والفرنسيين، والإيطاليين، والألمان، والأمريكيين الشماليين، والروس».

«وهل تكرههم بهذا الترتيب؟»

«نعم، لكن كرهى للروس ربما يكون أشد».

«يا رجل، أنت صاحب أفكار ظريفة»، قلت له. «هل أنت فاشي؟»

«لا، أنا إكستريماديوري وأكره الأجانب».

«إنه صاحب أفكار نادرة»، قال جندي آخر. «لكن لا تعرف أي اهتمام. أنا أحب الأجانب. أنا من بلنسيا. تناول كأسا أخرى من المشروب، أرجوك».

(٤٧) إكستريماديورا: منطقة في الجنوب الغربي من إسبانيا [المترجم].

تناولت الكأس، وكان طعم الكأس السابقة لا يزال لازعا في فمي. نظرت إلى الإكستريماديوري، فكان طويلا ونحيفا. كان وجهه مرهقا، غير حليق، وكان خداه غائرين. كان يقف منتصب القامة، غاضبا، متدثرا ببطانية مسدلة على منكبيه.

«أخفض رأسك»، قلت له. «هناك كثير من الرصاص الطائش يمر من فوقنا».

«لا خوف عندي من الرصاص وأكره كل الأجانب»، رد علي بعنف.

«لا داعي لأن تخشى الرصاص»، قلت له. «بل عليك أن تتفاداه عندما تكون في الاحتياط. فليس من الذكاء أن تجرح عندما يكون تفادي ذلك ممكنا».

«لست أخاف من شيء»، قال الإكستريماديوري.

«أنت محظوظ، أيها الرفيق».

«هذا صحيح»، قال الآخر، صاحب كأس الشراب. «إنه لا يخاف حتى من الطائرات».

«إنه مجنون»، قال جندي آخر. «الكل يخاف من الطائرات. إنها تقتل القليل لكنها تبث الرعب».

«أنا لا أخاف من الطائرات ولا من أي شيء»، قال الإكستريماديوري. «وأكره كل أجنبي على وجه الأرض».

رأيت رجلا طويلا بزي الألوية الدولية يمشي في أدنى الأخدود إلى جانب اثنين من حملة النقالات، غير آبه، فيما يبدو، للمكان الذي هو فيه، ويحمل فوق كتفه بطانية مربوطة عند خصره. كان يمشي مرفوع الرأس وبدا مثل رجل يمشي في حلمه. كان في

منتصف العمر. لم يكن يحمل بندقية، ولم يتضح لي من موقعي إن كان جريحا.

راقبته وهو يمشي وحيدا، خارجا لتوه من الحرب. وقبل أن يصل إلى سيارات الأركان، انعطف نحو اليسار مرفوع الرأس بذات الطريقة الغربية، ثم واصل مسيره فوق حافة السلسلة إلى أن توارى عن الأنظار.

لم ينتبه إليه رفيقي الذي كان يبدل الفيلم في الكاميرات اليدوية.

جاءت قذيفة وحيدة من فوق السلسلة وسقطت قبيل دبابات الاحتياط، ناثرة التراب ودخانا أسود.

أطل أحدهم برأسه من الكهف، حيث قيادة أركان اللواء، ثم اندس إلى الداخل. خطر لي أن أتوجه إليهم، لكنني كنت أعلم أنهم غاضبون بسبب الهجوم الفاشل، ولم أكن راغبا في مواجهتهم. فلو نجحت عملية ما، فإنهم سيكونون سعداء بتصويرها. لكن إن فشلت، سيفضب الجميع إلى درجة أنهم قد يضعونني قيد الاعتقال.

«قد يقصفوننا الآن»، قلت.

«لا فرق عندي»، قال الإكستريماديوري. بدأت أضيق ذرعا بهذا الإكستريماديوري.

«هل ما زال عندك مشروب؟». سألت، والجفاف لم يفارق فمي.

«نعم، يا رجل. هناك عدة غالونات منه»، قال الجندي الودود، وكان قصيرا، شديد الاتساخ، له قبضتان كبيرتان، تكاد لحيته

تكون بطول شعر رأسه المقصوص قصيرا. «هل تظن أنهم سيقصفوننا؟».

«يجب أن يفعلوا»، قلت له. «لكن التنبؤ في هذه الحرب أمر مستحيل».

«وما مشكلة هذه الحرب؟». سأل الإكستريماديوري غاضبا. «ألا تحب هذه الحرب؟».

«أخرس!» زجره الجندي الودود. «أنا القائد هنا، وهؤلاء الرفاق ضيوفنا».

«إذن، قل له ألا ينتقص من حرينا».

«قل لي يا رفيق، من أي بلدة أنت؟». سألت الإكستريماديوري.

«بداغوث»، قال لي. «أنا من بداغوث. لقد تعرضنا في بداغوث للسلب والنهب، واغتصبت نساؤنا من قبل الإنجليز والفرنسيين، وهن الآن يفتصبين من قبل المغاربة. ما فعله المغاربة الآن ليس أسوأ مما فعله الإنجليز تحت قيادة ولنغتون^(٤٨). عليك أن تقرأ التاريخ. لقد قتل الإنجليز جدة أبي. والبيت الذي كانت تسكنه أسرتي أحرقه الإنجليز».

«يؤسفني ذلك»، قلت له. «لكن لماذا تكره الأمريكيين الشماليين؟».

«لقد قتلوا أبي في كوبا عندما زج به إلى الجندية هناك».

(٤٨) يبدو أن الإشارة هنا إلى آرثر ولزي، دوق ولنغتون (١٧٦٩ - ١٨٥٢)، وهو قائد عسكري وسياسي بريطاني مخضرم، خاض الحرب في الهند، وأخرج الفرنسيين من إسبانيا وهزم نابليون الأول في معركة واترلو في العام ١٨١٥ [المترجم].

«وهذا يؤسفني أيضا. يؤسفني حقا. صدقني. ولماذا تكره الروس؟».

«لأنهم يمثلون الاستبداد وأنا أكره وجوههم. وأنت لك وجه كوجه الروس».

«ربما يجدر بنا أن نخرج من هنا»، قلت لرفيقي الذي لم يكن يعرف الإسبانية. «يبدو أن لي وجها كوجه الروس، وهذا يوقعني في المتاعب».

«سوف أنام»، رد علي. «هذا مكان جيد. لا تكثر من الحديث، ولن تقع في المتاعب».

«أحد الرفاق هنا لا يعجبه وجهي. أعتقد أنه أحد الفوضويين».

«إذن، انتبه لئلا يطلق عليك النار. سوف أنام».

في هذه اللحظة بالذات، طلع علينا من الأخدود رجلان وتوجها نحونا. كان كلاهما يرتدي معطفا جلديا. واحد قصير وسمين، والآخر متوسط الطول، وكلاهما يعتمر قبعة مدنية، ولكل منهما وجه خال من الملامح، مرتفع الوجنتين، ويحمل كل منهما على ساقه مسدس ماوزر ذا قراب بلون الخشب.

تحدث إلي أطولهما بالفرنسية. «هل رأيت رفيقا فرنسيا يمر من هنا؟». سألني. «رفيكا يربط بطانية حول كتفيه على هيئة حزام الرصاص؟ رفيقا بين الخامسة والأربعين والخمسين من عمره؟ هل رأيت رفيقا بهذه الأوصاف يسير بالاتجاه المعاكس لخط الجبهة؟».

«لا»، قلت له. «لا، لم أر رفيقا بهذه الأوصاف؟».

نظر إلي لحظة ولم يرف له جفن، فلاحظت أن في عينيه صفارا مائلا إلى الرمادي.

«شكرا، يا رفيق»، قال لي بفرنسيته الغربية، ثم راح يتحدث بسرعة إلى زميله بلغة لم أفهمها. تابعا مسيرهما وتسلقا قمة السلسلة حيث صار في إمكانهما أن يريا كل الأخاديد.

«هذا هو الوجه الحقيقي للروس»، قال الإكستريماديوري. «آخرس!» قلت له. كنت أراقب الرجلين في معطفيهما الجلديين. كانا يقفان في مكانهما تحت وابل شديد من النيران، يمعنان النظر في الريف المدمر بين سفح الجبل والنهر.

فجأة رأى أحدهما ما كان يبحث عنه وأشار بيده، فراحا يعدوان ككلاب الصيد: واحد يعدو بخط مستقيم من فوق السلسلة، والآخر يعدو بزاوية كأنه يريد أن يقطع الطريق على شخص ما. وقبل أن يتجاوز الثاني قمة السلسلة رأيت يسحب مسدسه ويمسك به أمامه وهو يعدو.

«وما رأيك فيما ترى؟». سألتني الإكستريماديوري. «لا يختلف عن رأيك»، قلت له.

من فوق قمة السلسلة الموازية سمعت أصوات المسدسين تنطلق مدوية دوبا قصيرا متقطعا. أطلقا نحو اثنتي عشرة طلقة. لا بد أنهما أطلقا النار من مسافة بعيدة. ثم توقف الإطلاق بعد كل هذا الوابل، تلتها طلقة واحدة.

نظر إلي الإكستريماديوري متجهما ولم يقل شيئا. خطر لي أنه لو بدأ القصف لهانَت الأمور. لكنه لم يبدأ.

عاد الرجلان المرتديان المعطفين الجلديين والقبعتين المدنيتين

يسيران معا من فوق السلسلة، ثم هبطا السفح يسلكان الأخدود
بركب مثنية على شاكلة الحيوان ذي الساقين عندما يهبط
منحدرا سحيقا. انتحيا جانب الأخدود عندما مرت بهما دبابة
تهدر نازلة.

لقد فشلت الدبابات مرة أخرى في ذلك اليوم، فهبط
سائقوها من خطوط الجبهة بخوذاتهم، وفتحوا أبراج دباباتهم
عندما أصبحوا في حماية السلسلة الجبلية، تعلو وجوههم
سيما كسيما لاعبي كرة القدم الذين أخرجوا من مباراة بسبب
جنبهم.

وقف الرجلان صاحبا الوجهين الخاليين من أي ملامح إلى
جانبا على السلسلة ليسمحا للدبابة بالمرور.
«هل وجدتما الرفيق الذي كنتما تبحثان عنه؟». سألت
أطولهما بالفرنسية.

«نعم، يا رفيق. شكرا لك»، قال لي ورمقني بتمعن.
«ماذا يقول؟». سألتني الإكستريماديوري.
«يقول إنهما وجدا الرفيق الذي كانا يبحثان عنه»، قلت له،
فلم يقل الإكستريماديوري شيئا.

كنا طوال ذلك الصباح في المكان الذي غادره الفرنسي المتوسط
العمر مشيا على الأقدام. كنا في الغبار، والدخان، والضجيج،
والإصابة بالجروح، والموت، ورهبة الموت، والاستبسال، والجبن،
والجنون، وإخفاق هجوم فاشل. كنا في ذلك الحقل المحروث
الذي لا يعبره الرجال وبيقون أحياء. كنا ننبطح أرضا، ونعمل
كومة من تراب نحمي بها رؤوسنا، بينما ندس ذقوننا في التراب،

ونتتظر أمرا بصعود ذلك السفح الذي لا يصعده رجل ويبقى حيا .

لقد كنا نتتظر مع أولئك الذين ينتظرون الدبابات التي لم تأت، كنا نتتظر تحت زعيق القذائف القادمة وهديرها، وكانت الشظايا والتراب تتطاير كتلا كأنها تتبثق من ينبوع يبصق ترابا، وكان أزيز النيران فوقنا كالستارة. كنا نعلم مشاعر أولئك المنتظرين. لقد تقدموا إلى أبعد نقطة ممكنة، ولم يكن في استطاعة إنسان أن يتقدم خطوة أخرى ويبقى حيا عندما جاء الأمر بالتقدم.

كنا طوال ذلك الصباح في المكان الذي غادره الفرنسي المتوسط العمر مشيا على الأقدام. لقد فهمت كيف يمكن لامرئ أن يتصرف كما تصرف الفرنسي الذي غادر أرض المعركة عندما تبين له بجلاء مفاجئ حماقة الموت في هجوم فاشل، تماما كما يرى الإنسان الأمور بجلاء قبيل موته، فأيقن أن الأمر برمته عديم الجدوى وفي منتهى الغباء. وهو يتصرف هكذا لا جبنا ولا فزعا، بل من انجلاء الأمر على حقيقته، ومن يقينه المفاجئ أنه لم يعد أمامه من خيار سوى أن ينفذ يديه من هذا الأمر.

لقد انسحب الفرنسي من الهجوم بكرامته، وفهمته بوصفي إنسانا. لكنه جندي في نظر هذين الرجلين اللذين كانا يقومان بدور الشرطة الحربية، فطاردا، فلاقاه الموت الذي هرب منه عندما انحدر من قمة الجبل باتجاه النهر، وأصبح في مأمن من الرصاص والقذائف.

«وهذه؟» سألني الإكستريماديوري، وهو يشير إلى الشرطة الحربية.

«هذه هي الحرب»، قلت له. «ففي الحرب لا بد من الانضباط».

«ولكي نعيش في ظل هذا الانضباط علينا أن نموت؟».

«من غير انضباط سيموت الجميع في كل الأحوال».

«هناك نوعان من الانضباط»، قال الإكستريماديوري. «اسمع ما أقوله لك. في فبراير كنا هنا حيث نحن الآن، عندما هاجمنا الفاشيون، فساقونا من التلال التي حاولتم، أنتم الأولوية الدولية، أن تستولوا عليها اليوم ففشلتم. تراجعنا إلى هنا، إلى هذه السلسلة، فجاءت الأولوية الدولية وتمركزت في الخط الذي أمامنا».

«أعرف ذلك»، قلت له.

«لكنك لا تعرف هذا»، استأنف غاضباً. «كان هناك فتى من منطقتي، فأصابه الذعر من جراء القصف، فأطلق النار على يده كي يتمكن من مغادرة الجبهة لأنه كان خائفاً».

لاذ الآن كل الجنود الآخرين بالصمت، بينما راح عدد منهم يهزون رؤوسهم.

«مثل هؤلاء تضمد جروحهم ويعادون إلى الجبهة فوراً»، تابع الإكستريماديوري قوله. «وهذا هو الواجب».

«أجل، إنه كذلك»، قلت له.

«أجل، هذا هو الواجب»، قال الإكستريماديوري. «لكن إصابة هذا الفتى حطمت عظم يده، فتلوث الجرح، ما أدى إلى بترها».

هز عدد من الجنود رؤوسهم.

«هيا أخبره البقية»، قال أحدهم.

«قد يجدر بنا ألا نتحدث عن هذا الأمر»، قال قائدهم ذو الشعر القصير واللحية الكثة.

«إنه واجبي أن أتحدث»، قال الإكستريماديوري.

هز قائدهم كتفيه، وقال، «لم يعجبني ما حدث. هيا أخبره، إذن. لكنني لا أحب أن أسمع اللفظ في هذا الأمر».

«ظل هذا الفتى في المستشفى في الوادي منذ فبراير»، قال الإكستريماديوري. «بعض منا رآه في المستشفى. الكل قال إنه كان محبوباً في المستشفى، واستطاع أن يكون، بيد واحدة، نافعا إلى أبعد الحدود. لم يتعرض للاعتقال قط. لم يكن هناك ما يهيئه لما سيحدث».

ناولني قائدهم كأس مشروب آخر من دون أن يتفوه بكلمة. كان الجميع ينصت، تماماً كما ينصت لقصة من لا يقرأ ولا يكتب.

«قبيل غروب شمس أمس، وقبل أن نعلم بخطة الهجوم، ظننا أن اليوم سيكون مثل باقي الأيام، جاءوا به من السهل عبر الأخدود إلى هنا. كنا نعد طعام العشاء عندما جاءوا به. كانوا أربعة فقط: الفتى پاكو، وهذان الاثنان اللذان رأيتهما الآن في معطفيهما الجلديين وقبعتيهما، وضابط من اللواء. رأينا الأربعة يصعدون عبر الأخدود، وكانت يدا پاكو طليقتين، ولم يكن مقيدا بأي شيء».

«عندما رأيناه احتشدنا حوله ورحبنا به وسألناه عن أحواله. فقال لنا إن كل شيء على ما يرام لولا يده، ثم أرانا يده المقطوعة».

«قال پاكو: لقد كانت فعلتي فعلة جبن وحمافة، وأنا نادم عليها. لكنني سأحاول أن أكون ذا نفع بيد واحدة. سأفعل ما أستطيع بيد واحدة في سبيل القضية.»

«نعم»، قال أحد الجنود مقاطعا. «لقد قال ذلك. أنا سمعته يقول ذلك.»

«لقد تحدثنا معه»، قال الإكستريماديوري. «وتحدث معنا. عندما يأتي أصحاب المعاطف الجلدية والمسدسات فإن ذلك دوما نذير شؤم في الحرب، مثل وصول حاملي الخرائط والنواظير الميدانية. ومع ذلك ظننا أنهم أتوا به في زيارة، فسعدنا برؤيته نحن الذين لم نتمكن من زيارته في المستشفى، وكما قلت كان الوقت ساعة العشاء، وكانت أمسية صافية ودافئة.»

«لا تهب هذه الريح إلا خلال الليل»، قال أحد الجنود.

«بعد ذلك»، قال الإكستريماديوري بنبرة حزينة، «سأل أحدهم الضابط بالإسبانية عن المكان.»

«أين المكان الذي جرح فيه پاكو هذا؟» سأل الضابط.

«أجبت أنه»، قال قائدهم. «أريتهم المكان. إنه أبعد بقليل من مكانك.»

«هذا هو المكان»، قال أحد الجنود، ثم أشار إلى المكان، فتحققت من المكان. كان واضحا أنه المكان.

«ثم أخذ أحدهم بذراع پاكو وقاده إلى المكان، وظل ممسكا بذراعه بينما كان الآخر يتحدث بالإسبانية. كان يتحدث بالإسبانية ويرتكب كثيرا من الأخطاء اللغوية. أردنا في البداية أن نضحك،

وراح پاكو بيتسم. لم أفهم كل كلامه، لكنني فهمت أن پاكو يجب أن يعاقب كي يكون عبرة لغيره ولكي لا تسول لأحد نفسه صنيعا كهذا، وأن كل من يفعل هكذا سيعاقب بذات الطريقة.

«وبينما كان أحدهم يمسك بذراع پاكو الذي أخجله أن يحكى عنه بهذه الطريقة، فزاده ذلك خجلا وأسفا، أخرج الآخر مسدسه وأطلق النار على مؤخرة رأس پاكو من دون أن يكلمه ولو بكلمة واحدة».

هز الجنود رؤوسهم جميعا.

«هكذا حدث الأمر»، قال أحد الجنود. «يمكنك أن ترى المكان.

لقد وقع على فمه هناك. يمكنك أن ترى المكان».

نعم، لقد رأيت المكان بجلاء من حيث أقف.

«لم يعط أي إنذار أو فرصة لتهيئة نفسه»، قال قائدهم. «لقد

أعدم بمنتهى الوحشية».

«لهذا السبب أكره جميع الأجانب»، قال الإكستريماديوري.

«لا يمكننا أن نتعامى عن الأجانب. أنا آسف إذا كنت أجنبيا.

لكنه لم يعد في إمكاني الآن أن أستثني أحدا منهم. لقد تقاسمت

معنا الخبز والمشروب، لكن عليك أن تذهب الآن».

«لا تتكلم بهذه الطريقة»، قال القائد للإكستريماديوري. «فمن

الضروري الالتزام بأداب السلوك».

«أعتقد أنه يجب علينا أن نغادر»، قلت له.

«أنت لست غاضبا؟». سألني القائد. «يمكنك أن تبقى في

هذا الملجأ قدر ما تريد. هل أنت عطشان؟ هل تريد مزيدا من

المشروب؟».

«أشكرك شكرا جزيلا»، قلت له. «أعتقد أنه يجب أن نغادر».

«هل تفهم حقدي؟». سألني الإكستريماديوري.

«نعم، أفهم حقك»، قلت له.

«هذا جيد»، قال لي، وهو يمد يده. «لا مانع لدي من مصافحتك. وأتمنى لك، بالذات، حظا موفقا».

«وهذا ما أتمناه لك أيضا»، قلت له. «لك شخصيا، ولكونك إسبانيا».

أيقظت زميلي المصور وهبطنا سفح الجبل باتجاه قيادة أركان اللواء. كانت الدبابات عائدة الآن، فلم يعد في إمكانك أن تسمع نفسك وأنت تتحدث.

«هل كنت تتحدث كل هذه الفترة؟».

«بل أستمع».

«هل سمعت شيئا ممتعا؟».

«الكثير».

«ماذا تريد أن تفعل الآن؟».

«العودة إلى مدريد».

«علينا أن نرى الجنرال».

«نعم، يجب أن نراه»، قلت له.

كان الجنرال حانقا حنقا فاترا. لقد تلقى أمرا بشن هجوم مباغت بلواء واحد فقط، والانتهاه من الأمر قبيل الفجر. كان الهجوم يحتاج إلى فرقة على الأقل، فاستخدم ثلاث كتائب، وأبقى واحدة احتياطا. تناول قائد كتيبة الدبابات الفرنسي

المشروب ليتشجع لشن الهجوم، لكنه أسرف في المشروب وشله كثرة المشروب في نهاية المطاف عن الحركة. لذا تقرر إعدامه عندما يصحو من فقدان وعيه.

لم تصل كتيبة الدبابات في الوقت المناسب، وأخيرا رفضت أن تتقدم، مما جعل الكتيبتين تخفقان في تحقيق أهدافهما. حققت الثالثة أهدافها، لكنها لم تستطع أن تتمسك بها أو تدافع عنها. النتيجة الحقيقية الوحيدة التي حققها الهجوم هي أسر بعض الجنود الذين عهد إلى رجال الدبابات أن يحضروهم معهم، لكن هؤلاء قتلوهم. لم يكن عند الجنرال سوى أخبار الفشل، وهؤلاء قتلوا أسراه.

«ماذا يمكنني أن أكتب؟». سألته.

«لا تكتب إلا ما هو في البيان الرسمي. هل لديك مشروب في هذه القنينة الطويلة؟».

«نعم».

أخذ جرعة ثم لحس شفثيه بعناية. لقد كان في يوم من الأيام نقيباً في سلاح الفرسان الهنغاري، واستولى ذات يوم على قطار محمل بالذهب في إسبانيا عندما كان قائداً للمتطوعين من الفرسان في الجيش الأحمر، وظل متمسكاً به طوال فصل الشتاء عندما هبطت درجات الحرارة إلى الأربعين تحت الصفر. كنا أصدقاء جيدين، وكان يحب المشروب، والآن قد مات.

«أخرج من هنا الآن»، قال لي. «هل لديك وسيلة نقل؟».

«نعم».

«هل التقطتم أي صور؟».

«التقطنا بعض الصور للدبابات».

«الدبابات»، قالها بمرارة. «الخنازير. الجبناء. انتبه لئلا تقتل»، قال لي. «يفترض أن تكون كاتباً».

«لا أستطيع أن أكتب أي شيء الآن».

«اكتبه لاحقاً. يمكنك أن تكتب كل شيء لاحقاً. لكن لا تقتل. أحذرك بشكل خاص ألا تقتل. والآن اخرج من هنا».

لم يستطع هو شخصياً العمل بنصيحته، إذ قتل بعد ذلك بشهرين. لكن أغرب ما في ذلك اليوم هو روعة الصور التي التقطناها للدبابات. بدت الدبابات على الشاشة وهي تتقدم فوق الهضبة بلا مقاومة، وكانت تطأ الذرى كسفن عظيمة، ثم تزحف هادرة نحو سراب ذلك النصر الذي عرضناه على الشاشة.

قد يكون أكثر الناس اقتراباً من النصر في ذلك اليوم هو ذلك الفرنسي الذي غادر المعركة مرفوع الرأس شامخاً. لكن نصره لم يدم أكثر من نصف المسافة التي قطعها على سفح الجبل. رأيناه ممدداً على السفح، متدثراً ببطانيته، عندما هبطنا الأخدود إلى سيارة الأركان التي ستأخذنا إلى مدريد.

لا أحد يموت قط [١٩٣٩]

كان المنزل مبنيًا من جص ذي لون وردي تقشر وبهت لونه بفعل الرطوبة، ومن شرفته كان في إمكان المرء أن يرى البحر الشديد الزرقة عند نهاية الشارع. كانت أشجار الغار تحف الرصيف وتتطاوّل لتظلّل أعلى الشرفة، ناشرة البرودة في ظلالها. كان طائر محاك^(٤٩) يقبع في قفص مصنوع من الألماليد في إحدى زوايا الشرفة، وقد توقف الآن عن الغناء والزقزقة، لأن شابًا في الثامنة والعشرين، نحيف البنية، أسمر اللون، تحيط بعينيّه هالات زرقاء، وله لحية كثة قصيرة، خلع كنزة كان يلبسها وألقى بها على القفص. كان هذا الشاب يقف مصفيا، وفمه يفتّر قليلا. كان أحدهم يحاول فتح الباب الأمامي المغلق.

وبينما هو يصغي سمع صوت الريح تداعب أشجار الغار التي تحف بالشرفة، وبوق سيارة أجرة تسير في الشارع، وأصوات أطفال يلعبون في قطعة أرض مهجورة. بعد ذلك سمع استدارة مفتاح في قفل الباب الأمامي، فيسمع الباب ينفّتح، ثم وهو يجذب نحو الرّجاج، ثم ينفلق القفل ثانية. في الوقت ذاته سمع صوت مضرب لكرة البيسبول وصراخا حادا بالإسبانية آتيا من قطعة الأرض المهجورة. ظل واقفا، يلحق شفّتيه ليرطبهما، ويصغي، بينما يحاول أحدهم فتح الباب الخلفي.

(٤٩) الطائر المحاكّي: طائر غريد يتميز بقدرته على محاكاة كل أصوات الطيور الأخرى [المترجم].

خلع الشاب، الذي يدعى إنريك، حذاءه، ثم وضعه على الأرض بحذر شديد، وتحرك بهدوء بمحاذاة قرميد الشرفة إلى أن صار في إمكانه أن يطل على الباب الخلفي. لم يكن هناك أحد. تسلل عائداً إلى واجهة المنزل، وراح ينظر، متخفياً، باتجاه الشارع.

كان زنجي يمشي على الرصيف تحت أشجار الغار يعتمر قبعة قش رقيقة الحافة، مسطحة من الأعلى، ويلبس معطفاً رمادياً من صوف الأليكا وبنطالاً أسود^(٥٠). ظل إنريك يراقب، لكن لم يكن هناك أحد آخر. ظل يراقب ويصغي بعض الوقت، ثم نزع كنزته عن قفص الطائر ولبسها.

كان عرقه يتصبب بغزارة عندما كان يصغي، أما الآن فشعر بالبرد بسبب الظل والريح الشمالية الشرقية الباردة. كان يتدلى من كتفه، تحت الكنزة، قراب جلدي مبقع ومبيض من التعرق، يحمل فيه مسدس كولت عيار خمسة وأربعين، الذي سبب له، بفعل الاحتكاك المستمر، بثراً صغيراً تحت إبطه. استلقى على سرير من قنب بحذاء جدار المنزل، وراح يصغي.

زقزق الطائر وراح يقفز داخل القفص، فتطلع إليه الشاب. ثم نهض وفتح له باب القفص. مد الطائر عنقه باتجاه الباب المفتوح، ثم تراجع، ثم مده بعنف مرة أخرى، مصوباً منقاره على شكل زاوية.

«هيا، طر»، قال له الشاب بصوت خفيض. «إنها ليست خدعة».

(٥٠) الأليكا: حيوان ثديي يشبه الخروف، يعيش في أمريكا الجنوبية، له صوف طويل وناعم [المترجم].

أدخل يده في القفص، فطار الطائر إلى الخلف، وهو يضرب الأماليد بجناحيه.

«أنت سخيف»، قال الشاب للطائر، ثم أخرج يده من القفص. «سأتركه مفتوحا».

انكب على وجهه على السرير، واضعا ذقنه على ذراعيه المشيتين، وراح يصغي. سمع الطائر يفر من القفص، ثم سمعه يفرد على إحدى أشجار الغار.

خطر بباله أنه من السخف أن يحتفظ بطائر إذا كان البيت مهجورا. «إن الحماسة هي سبب كل المتاعب. كيف لي أن ألوم الآخرين إذا كنت أنا على هذه الدرجة من الغباء؟».

كان الأولاد لا يزالون يلعبون كرة البيسبول في الأرض المهجورة، وأصبح الجو باردا الآن. نزع قراب مسدسه الجلدي عن كتفه، ووضع مسدسه الكبير عند ساقيه، ثم نام.

عندما استيقظ كان الظلام قد حل، وكانت مصابيح الشارع تتلألأ من بين أوراق الأشجار. نهض ومشى إلى مقدمة المنزل، فعابث الشارع من أوله إلى آخره. فعل هذا وهو يحتمي بظل الجدار. كان رجل يعتمر قبعة قش رقيقة الحافة، مسطحة من الأعلى، يجلس تحت شجرة عند الزاوية. لم يكن في استطاعة إنريك رؤية لون معطفه أو بنطاله، لكنه كان زنجيا.

أسرع إنريك إلى آخر الشرفة، لكن لم تكن هناك من إضاءة سوى ما تبثه النوافذ الخلفية للبيتين المجاورين على الحقل المعشب. قد يكون في الخلف أي عدد من الناس قد يخطر

بالبال. كان يعلم هذا، إذ إنه لم يعد يسمع كما كان في العصر،
لأن مذياعا كان يصدح في البيت الثاني.

فجأة سمع الشاب صوت صفارة إنذار يتعالى آليا، فشعر
بموجة من القشعريرة الواخزة تجتاح فروة رأسه. فاجأته كما
يفاجئ احمرار الخجل إنسانا، وسففته بحرارتها الواخزة، ثم
تلاشت فجأة كما أتت. كانت صفارة الإنذار جزءا من إعلان في
المذياع، تبعها صوت المذيع: «معجون أسنان غافس. لا يتغير،
لا يعلى عليه، لا شيء أفضل منه».

ابتسم إنريك في الظلام. لقد آن لأحدهم أن يأتي.
وبعد صفارة الإنذار في الإعلانات المسجلة، سمع طفلا
يصرخ، فيقول المذيع إنه لا يشبعه سوى «مالتا - مالتا»^(٥١)، ثم
بوق سيارة يطلب صاحبها بنزينا أخضر. «لا أريد سماع أي
حكاية، بل أريد بنزينا أخضر. إنه اقتصادي، أميال أكثر بوقود
أقل. إنه الأفضل».

كان إنريك يحفظ كل الإعلانات عن ظهر قلب. فهي لم تتغير
طوال الأشهر الخمسة عشر التي قضاها في الحرب. ومع أن
الإذاعة لا تزال تستخدم ذات الأسطوانات، فقد استطاعت
صفارة الإنذار أن تخدمه، وتبعث فيه قشعريرة واخزة اجتاحت
فروة رأسه، وكانت بلا شك بمنزلة استشعار بالخطر، تماما كما
يستشعر كلب صيد دفء رائحة الطريدة.

لم يشعر بتلك القشعريرة عندما بدأ. لقد جعله الخطر
والخوف منه يشعر بالخواء في يوم من الأيام. لقد أوهناه كما

(٥١) مالتا: كلمة إسبانية تعني النقيع الذي يصنع من دقيق الحبوب (لا سيما الشعير)، ويستخدم
غذاء للأطفال [المترجم].

توهنك الحمى، فعرف معنى العجز عن الحركة مثلما يعجز امرؤ عن قسر رجله على التقدم لأن رجله حل بهما إما موات أو سبات. أما الآن فقد ولى كل هذا إلى غير رجعة، وهان عليه فعل أي شيء يجب عليه فعله. أما القشعريرة فكانت مما يتبقى لدى الشجعان من مقدرة أولية واسعة على الخوف. إنها كل ما تبقى له من ردة فعل على استشعاره للخطر، أما التعرق فهو يعلم أنه سيلازمه دوما وأنه الآن صار بمنزلة ناقوس للخطر ليس إلا.

وبينما راح ينظر إلى الشجرة التي يجلس صاحب قبعة القش على حرف الرصيف تحتها، سقطت حجرة على أرض الشرفة. فتش عنها إنريك بحذاء الجدار فلم يجدها. دس يديه تحت السرير فلم يجدها. وبينما هو راکع، سقطت حصاة أخرى على قرميد الشرفة، ثم تدرجت إلى الزاوية باتجاه واجهة البيت المطلة على الشارع. التقطها إنريك، فكانت حصاة عادية ناعمة الملمس، فوضعها في جيبه، ودخل المنزل، وهبط الدرج إلى الباب الخلفي.

انتحى إلى أحد جانبي الباب، ثم أخرج المسدس من قرابه، وأمسك به، فشعر بثقله في يده اليمنى.

«النصر»، قال الشاب بصوت خفيض جدا بالإسبانية، وفمه يزدري هذه اللفظة، ثم انتقل بهدوء على قدميه الحافيتين إلى الناحية الأخرى من الباب.

«لن يستحقونه»، قال أحدهم من وراء الباب. كان الصوت صوت امرأة يكمل الجزء الثاني من كلمة السر، وكانت تتحدث بسرعة واضطراب.

أرجع إنريك الرتاج المزدوج وفتح الباب ببسراه، بينما المسدس في يميناه.

وقفت في الظلام فتاة تحمل سلة، وتضع منديلا على رأسها. «مرحبا»، قال لها ثم أغلق الباب بالرتاج. كان في إمكانه أن يسمع أنفاسها في الظلام. أخذ منها السلة وربت على كتفها. «إنريك»، قالت له، ولم يكن يعرف كيف كانت عيناها تتألقان أو كيف يبدو وجهها.

«تعالى إلى فوق»، قال لها. «هناك شخص يراقب البيت من الأمام. هل رآك؟».

«لا»، قالت له. «لقد جئت عبر الأرض المهجورة».

«سأريك إياه. تعالى إلى الشرفة».

صعدا الدرج، وإنريك يحمل السلة. وضع السلة إلى جانب السرير، ثم ذهب إلى حرف الشرفة ونظر. كان الزنجي صاحب قبة القش الرقيقة الحافة المسطحة من الأعلى قد اختفى. «هكذا»، قال إنريك بصوت هادئ.

«هكذا ماذا؟». سألت الصبية التي كانت تمسك بذراعه الآن وتتنظر إلى الخارج.

«هكذا اختفى. ماذا جلبت من أكل؟».

«أنا آسفة لأنك بقيت وحدك طوال اليوم. لقد كان في منتهى الغباء أن يفرض علي أن أنتظر حلول الظلام حتى آتيك. لقد كان بودي أن آتيك في النهار».

«بل إن وجودي هنا في منتهى الغباء. لقد جاءوا بي من القارب إلى هنا قبل طلوع الفجر وتركوني في منزل مراقب ليس لي فيه

زاد إلا كلمة سر لا تسمن ولا تغني من جوع. كان يجب ألا أوضع في بيت يراقبه الآخرون. هكذا هم الكوبيون. لكننا فيما سلف من الأيام كنا نأكل على الأقل. أخبريني عن أحوالك، يا ماريا. قبلته في الظلام على فمه قبلة مشتاق. أحس بوخز الألم يتقد في أسفل ظهره.

«آلي! انتبهي».

«ما بك؟».

«ظهري».

«ما به ظهرك؟ هل أنت جريح؟».

«عليك أن تريه»، قال لها.

«هل يمكن أن أراه الآن؟».

«تريه لاحقاً. علينا أن نأكل ثم نخرج من هنا. ما الذي خزنوه هنا؟».

«أشياء كثيرة. ما تبقى من انتكاسة نيسان. أشياء تركوها للمستقبل».

«المستقبل البعيد»، قال لها. «هل كانوا يعرفون أنه مراقب؟».

«لست متأكدة».

«ماذا فيه؟».

«هناك بعض البنادق في أكياس. وهناك صناديق ذخيرة».

«يجب أن ينقل كل شيء الليلة». كان فمه ممتلئاً. «ستمر علينا سنوات طويلة من العمل قبل أن نحتاج إلى هذا».

«هل أعجبتك أكلة الإسكاييشه؟»^(٥٢).

(٥٢) الإسكاييشه: سمك مغلل [المترجم].

«إنها جيدة. اجلسي قريبا مني».

«إنريك»، قالت له، وقد التصقت به. وضعت يدها على فخذه، وبيدها الأخرى مسدت رقبتة من الخلف. «إنريكي أنا».

«المسيني بحذر»، قال لها، وهو يأكل. «إن ظهري يؤلمني».

«هل أنت سعيد بعودتك من الحرب؟».

«لم يخطر هذا الأمر ببالي»، قال لها.

«إنريك، كيف هي حال شوشو؟».

«لقد مات في لريدا».

«وفلبي؟».

«لقد مات. أيضا في لريدا».

«وآرتورو؟».

«مات في تريول».

«وفسنتي؟». سألته بصوت خال من أي نبرة، ويداها مثيتان على فخذه الآن.

«لقد مات. في الهجوم على الطرف الآخر من الطريق في سلادرس».

«ولكن فسنتي أخي». تخشبت في جلستها الآن وأبعدت يديها عن فخذه.

«أعلم ذلك»، قال إنريك، وهو يتابع الأكل.

«إنه أخي الوحيد».

«ظننتك تعلمين»، قال إنريك.

«لم أكن أعلم، وهو أخي».

«أنا آسف يا ماريا. كان علي أن أخبرك بطريقة أخرى».

«لقد مات، هل تعلم أنه مات، أم أنك سمعت هذا فقط؟»
«اسمعي. أنا وروجيو، وباسيليو، وإستبان، وفيلو أحياء.
أما الباقيون فقد ماتوا».

«جميعاً؟»

«جميعاً»، قال إنريك.

«لا أطيق هذا الأمر»، قالت ماريا. «أرجوك، لا أطيق هذا
الأمر».

«لا فائدة من مناقشة الأمر. لقد ماتوا».

«ليست المسألة هي أن فسنتي أخي، فأنا قادرة على التخلي
عن أخي. إنهم زهرة حزينا».

«أجل. زهرة الحزب».

«ليس في الأمر ما يستحق. لقد دمر هذا الأمر أفضل ما
عندنا».

«بل في الأمر ما يستحق».

«كيف تقول ذلك؟ هذه جريمة».

«لا، فالأمر يستحق ذلك».

راحت تتحب، وواصل هو أكله. «لا تتحبي»، قال لها.
«ما علينا أن نفعله الآن هو أن نفكر فيما يجب عمله لكي نحل
محلهم».

«لكنه أخي. ألا تفهم؟ إنه أخي».

«نحن جميعاً إخوة. بعضنا مات، وبعضنا الآخر على قيد الحياة.
إنهم يرسلوننا الآن إلى أوطاننا، وهذا يعني أن بعضنا سيبقى على
قيد الحياة. وإلا لن يبقى أحد. والآن علينا أن نعمل».

«ولكن لماذا قتلوا جميعا؟».

«لقد كنا مع فرقة مهاجمة. فكنا إما نقتل أو نجرح. نحن أيضا جرحنا».

«كيف قتل فُسنتي؟».

«لقد كان يعبر الطريق عندما أصابه رشاش يطلق النار من منزل ريفي على اليمين. كانت الرمايات المركزة على الطريق تنطلق من ذلك المنزل».

«هل كنت هناك؟».

«نعم، كنت قائد السرية الأولى. كنا على يمينه. لقد استولينا على المنزل، لكن هذا استغرق بعض الوقت. كانت لديهم ثلاثة مدافع رشاشة: اثنان في المنزل، وواحد في الإسطبل. كان الاقتراب من ذلك المنزل عسيرا، لذلك كان علينا أن نقصفه بالدبابة كي نتمكن من تدمير آخر رشاش. فقدت ثمانية من رجالي، وهذا عدد كبير».

«أين حدث هذا؟».

«في سلاّس».

«لم أسمع بهذا من قبل».

«طبعا»، قال إنريك. «كانت العملية فاشلة. لن يسمع بها أحد. هناك قتل فُسنتي وإغناسيو».

«وأنت تقول إن هذه الأمور مبررة؟ أن يموت رجال كهؤلاء في عمليات فاشلة في بلد أجنبي؟»^(٥٢).

«البلاد التي ينطق أهلها بالإسبانية ليست بلادا أجنبية،

(٥٢) البلد الأجنبي المقصود هنا هو إسبانيا التي كانت تدور فيها حرب أهلية [المرجع].

يا ماريـا . لا يهـم أين يموت المرء إذا كان يموت من أجل الحرية .
على أي حال ، ما علينا أن نفعله هو أن نعيش لا أن نموت» .
«لكن فكر فيمن ماتوا بعيدا من هنا وفي عمليات فاشلة» .
«لم يذهبوا ليموتوا . بل ذهبوا ليقاتلوا . أما موتهم فهو حادث
عرضي» .

«ولكنهم ماتوا في عمليات فاشلة . أخي مات في عملية
فاشلة . وشوشو مات في عملية فاشلة . وإغناسيو مات في عملية
فاشلة» .

«لقد كانت هذه العمليات مجرد جزء . لقد كانت بعض الأشياء
التي توجب علينا إنجازها مستحيلة . كما أن أشياء بدت لنا
مستحيلة أنجزناها . في بعض الأحيان كان الناس على يميننا أو
يسارنا لا يهاجمون . وفي أحيان أخرى لم يكن هناك ما يكفي
من المدافع . وفي بعض الأحيان كنا نؤمر بأداء مهمات بقوات
لا تكفي ، كما في سلا دس . هذه هي أسباب الفشل . لكنها في
النهاية ليست فشلا» .

لم تجبه بشيء ، وأنهى هو طعامه .
راحت الريح تتشط بين الأشجار الآن ، وصار الجو باردا في
الشرقة . أعاد الصبحون إلى السلة ومسح فمه بالمنديل . مسح
يديه بعناية ثم طوق الفتاة بذراعه . كانت الفتاة تتحب .
«لا تتحبي ، يا ماريـا» ، قال لها . «لقد جرى ما جرى . علينا أن
نفكر فيما يجب فعله . وهناك كثير من هذا» .
لم تقل شيئا ، وعلى ضوء مصباح الشارع كان في إمكانه أن
يرى أنها تسدد نظراتها إلى الأمام .

«علينا أن نكف عن رومانسيتنا الحاملة. وهذا المكان مثال على تلك الرومانسية. علينا أن نوقف الإرهاب. علينا أن ننطلق كي لا نقع مرة أخرى في المغامرة الثورية».

ظلت الصبية صامته، ونظر إلى وجهها الذي لم يكن يشغله عنه في تلك الأشهر سوى عمله.

«أنت تتحدث ككتاب، لا كإنسان»، قالت له.

«أنا آسف»، قال لها. «فما هذه إلا دروس تعلمتها، وأشياء أعلم أن علينا أن نقوم بها. وهي بالنسبة إلي أكثر واقعية من أي شيء سواها».

«كل ما هو واقعي بالنسبة إلي هم أولئك الموتى»، قالت له.

«نحن نجلهم، لكنهم ليسوا مهمين».

«ها أنت تتحدث مثل كتاب مرة أخرى»، قالت له غاضبة. «إن قلبك كتاب».

«أنا آسف، يا ماريا. لكنني ظننتك ستفهمين».

«كل ما أفهمه هو الأموات»، قالت له.

كان يعلم أن هذا ليس صحيحا لأنها لم ترهم وهم ميتون كما رأيهم هو تحت المطر في بساتين الزيتون في خراما، أو في الشمس اللاهبة في بيوت إكويخورنا المدمرة، أو في الثلج في تريويل. لكنه كان يعلم أنها تلومه لأنه ظل على قيد الحياة وفسنتي مات، وفجأة أحس بها تجرح مشاعره جرحا عميقا، أحس بذلك في ذلك الجزء الصغير الذي تبقى له من طبيعته البشرية غير المروضة، ذلك الجزء الذي ظنه غير موجود.

«كان هنا طائر»، قال لها. «طائر محاك في قفص».

«نعم».

«وأطلقت سراحه».

«ما أطفك!» قالت له ساخرة. «هل كل الجنود مرهفو

الأحاسيس؟».

«أنا جندي جيد».

«أصدقك. فأنت تتحدث مثل جندي جيد. لكن أي نوع من

الجنود كان أخي؟».

«جيد جدا. أكثر ميلا للمرح مني. أنا لم أكن ميالا للمرح.

وهذه نقيصة».

«لكنك تمارس النقد الذاتي وتتحدث مثل كتاب».

«لو كنت ميالا للفرح لكان ذلك أفضل»، قال لها. «لم أتمكن

من تعلم هذه الصفة».

«أما محبو المرح فقد ماتوا جميعا».

«لا»، قال لها. «إن باسيليو يحب المرح».

«إذن، سيموت»، قالت له.

«ماريا، لا تتحدثي هكذا. أنت تتحدثين كالانهزاميين».

«وأنت تتحدث مثل كتاب»، قالت له. «أرجوك لا تلمسني. إن

لك قلبا جافا وأنا أكرهك».

ها هو يجرح ثانية، هو الذي ظن قلبه جافا، وأن لا شيء يمكن

أن يؤلمه سوى الألم، فجلس على السرير ومال إلى الأمام.

«ارفعي كنزتي»، قال لها.

«لا أريد».

رفع كنزته من الخلف ثم مال إلى الأمام، وقال لها: «انظري هناك، يا ماريا. فهذا لم يأت من كتاب».

«لا أرى»، قالت له. «ولا أريد أن أرى».

«ضعي يدك على أسفل ظهري».

أحس بأصابعها تلامس ذلك المكان الكبير الغائر الذي يمكن أن يتسع لكرة بيسبول، وذلك الجرح البشع الذي اتسع ليد الجراح التي كانت ترتدي قفازا مطاطيا لتنظفه، ذلك الجرح الذي امتد على امتداد ظهره من الأسفل. شعر بها وهي تتلمسه فانكمش على نفسه من الداخل. ثم شعر بعد ذلك كمن يجرفه السيل، وزال الألم عندما جلس وحيدا، يتصبب عرقا، بينما ماريا تبكي وتقول، «أوه، يا إنريك. سامحني. سامحني، أرجوك».

«لا عليك»، قال إنريك. «لا يوجد ما يستحق أن تطلبني المغفرة من أجله. لكنه لم يأت من أي كتاب».

«ولكن هل يؤلمك دوما؟».

«فقط عندما ألمس أو أصدم».

«وماذا عن النخاع الشوكي؟».

«لم يمس إلا قليلا. وكذلك الكليتان، لكنهما بخير. لقد دخلت شظية القذيفة من جهة وخرجت من الجهة الأخرى. هناك جروح أخرى إلى الأسفل وعلى ساقي».

«أرجوك سامحني يا إنريك».

«لا يوجد ما يستحق أن تطلبني المغفرة من أجله، وأنا آسف لأنني لست ميالا للمرح».

«يمكننا أن نمرح بعد أن يشفى جرحك».

«أجل».

«وسيشفى».

«أجل».

«وسأعتني بك».

«لا. بل أنا سأعتني بك. لست أكرث لهذا الشيء. ما يؤلني هو الألم الناتج عن اللمس أو الاصطدام. أما الجرح فلا يؤلني. والآن علينا أن نعمل. علينا أن نغادر هذا المكان فوراً. كل الأشياء الموجودة هنا يجب أن تنقل الليلة. يجب أن تخزن في مكان جديد لا يشتبه فيه أحد، وفي مكان لا يعرضها للتلف. سيمر وقت طويل قبل أن نحتاج إليها. لدينا كثير مما نقوم به قبل أن نصل إلى تلك المرحلة مرة أخرى. يجب توعية الكثيرين. وعندئذ قد لا تعود هذه الخراطيش صالحة. فهذا الطقس يفسد الفتيل. وعلينا أن نذهب الآن. لقد كنت أحمق في بقائي هنا كل هذه المدة، والأحمق الذي وضعني هنا سيعتري للمساءلة من قبل اللجنة».

«أنا جئت لآخذك إلى هناك الليلة. لقد ظنوا أن هذا البيت آمن لبقائك فيه اليوم».

«بل إن هذا البيت سيكلفنا كثيراً».

«سنذهب الآن».

«كان علينا أن نذهب من قبل».

«قبلني يا إنريك».

«سنفعل، لكن بحذر شديد»، قال لها.

ثم تحامل على نفسه، وأغمض عينيه، فإذا بالسعادة تغمره ولا ألم، ويشعر فجأة بأنه في وطنه ولا ألم، ويعود إليه دفق

الحياة ولا ألم، وينعم بسلوى الحب ولا ألم، وبينما هما كذلك، شق السكون صوت صفارة الإنذار، باترا، مباغتاً، يتصاعد كأن ألم الدنيا كلها ينهض معه فجأة. إنها صفارة إنذار حقيقية، لا صفارة إعلان في الإذاعة. ولم تصدر صفارة واحدة، بل اثنتان. كانتا قادمتين من الشارع من كلتا جهتيه.

أدار رأسه ثم نهض. خطر له أن مجيئه إلى الوطن لم يدم طويلاً.

«أخرجني من الباب واذهبي عبر الأرض المهجورة»، قال لها. «هيا. يمكنني أن أشاغلهم بالنار من هنا».

«بل اذهب أنت»، قالت له. «أرجوك، سأبقى هنا لمشاغلهم بالنار ليظنوا أنك في الداخل».

«هيا بنا، سنذهب كلانا»، قال لها. «لا يوجد ما يدافع عنه هنا. فهذه الأشياء عديمة النفع. ويجدر بنا أن نهرب».

«أريد أن أبقى»، قالت له. «أريد أن أحميك».

مدت يدها نحو المسدس المعلق في القراب تحت ذراعه، فصفعها على وجهها. «هيا بنا. لا تكوني سخيفة. هيا».

هبط الدرج وشعر بها على إثره. فتح الباب بعنف، وعندما صارا خارجه، استدار وأغلق الباب. «اركضي، يا ماريا»، قال لها. «اركضي عبر الأرض المهجورة في ذلك الاتجاه. هيا».

«أريد أن أذهب معك».

صفعها مرة أخرى صفقة سريعة. «اركضي. ثم انبطحي بين العشب وازحفي. سامحيني يا ماريا. لكن عليك أن تذهبي. أنا سأذهب في الاتجاه الآخر. هيا»، قال لها. «عليك اللعنة، اذهبي».

انطلقا باتجاه العشب في آن معا . وبعد أن ركض عشرين خطوة انبطح أرضا وراح يزحف، وكانت سيارات الشرطة قد توقفت أمام المنزل وصفارات الإنذار قد سكنت.

كان غبار الطلع يتناثر من الأعشاب في وجهه، وبينما كان يزحف بثبات، كانت النباتات الرملية الشائكة تلسع يديه وركبتيه لسعا حادا دقيقا، وسمعهم يطوقون المنزل.

ظل يزحف، ويرهق نفسه بالتفكير، غير آبه بالألم.

«ولكن لماذا صفارات الإنذار؟ لماذا لا توجد سيارة ثالثة من الخلف؟ لماذا لا يوجد ضوء كاشف مسلط على هذا الحقل؟ كوبيون!» قال في نفسه. «هل يمكن أن يكونوا على هذه الدرجة من الغباء والزيف؟ لا بد أنهم ظنوا أن لا أحد في المنزل. لا بد أنهم جاءوا للاستيلاء على الأسلحة فقط. ولكن لماذا صفارات الإنذار؟».

سمعهم وهم يقتحمون الباب خلفه. لقد طوقوا المنزل من كل الجهات. سمع صفارة تتطلق مرتين من مكان قريب من المنزل، فتابع زحفه بثبات.

«يا لهم من مغفلين!» قال في نفسه. «لكن لا بد أنهم اكتشفوا السلة والصحون الآن. يا لهؤلاء الناس! ما هكذا تقتحم البيوت!».

أصبح الآن على حافة الأرض المهجورة تقريبا، وكان يعلم أن عليه أن ينهض وينطلق بأقصى سرعة، ليعبر الطريق ويلجأ إلى البيوت البعيدة. كان قد اكتشف طريقة للزحف لا تؤلم كثيرا. كان يستطيع أن يؤقلم نفسه مع أي حركة، لكن التغيرات العنيفة

المفاجئة هي التي كانت تؤله، وكان يرتعب من النهوض على قدميه.

نهض على إحدى ركبتيه بين الأعشاب، وتحمل صعقة الألم، وتحامل على نفسه، وتحمل الصعقة الثانية عندما جذب قدمه الأخرى نحو ركبته استعدادا للنهوض.

راح يعدو نحو البيت على الطرف الآخر من الطريق في آخر قطعة الأرض التالية، عندما سلطت عليه الأنوار الكاشفة فجأة، فإذا به يقف وسطها، ويتطلع إليها، فيرسم الظلام خطا حادا على كلا جانبيها.

سلطت عليه الأنوار الكاشفة من سيارة الشرطة التي جاءت بلا صفارة إنذار وتمركزت في إحدى زوايا قطعة الأرض الخلفية. عندما نهض إنريك على قدميه، والأنوار ترسم ملامحه نحيفا، هزيلا، راح يسحب مسدسه الكبير من قرابه تحت إبطه، عاجلته الرشاشات بنارها من السيارة المطفأة الأنوار.

شعر كأن عصا تضربه على صدره، لكنه لم يشعر سوى بالأولى. أما الضربات التالية فلم تكن سوى أصداء.

انكب متهاويا على وجهه بين الأعشاب، وبينما هو يتهاوى، أو ربما في الفترة الفاصلة بين تسليط الأضواء عليه ورشقه بأول رصاصة، خطر له هذا الخاطر: «إنهم ليسوا على تلك الدرجة من الغباء التي ظننتها. لعل شيئا يمكن القيام به إزاءهم».

ولو كان لديه وقت لخاطر آخر، لتمنى ألا تكون هناك سيارة في الزاوية الأخرى. لكن الزاوية الأخرى كانت فيها سيارة تسلط أضواءها الكاشفة على الحقل. وكانت حزماتها الضوئية العريضة

تصول وتجول فوق الأعشاب حيث تختبئ الصبية ماريا . كان الرماة في السيارة المطفأة الأنوار يتابعون تمشيط الحقل بحزمة النور، وأيديهم على أزنده رشاشاتهم القبيحة البارعة، من طراز تومسن، ذات الفوهات المخددة.

كان زنجي يقف في ظل الشجرة خلف السيارة المطفأة الأنوار التي كانت تسلط أنوارها الكاشفة. كان يعتمر قبعة قش رقيقة الحافة، مسطحة من الأعلى، ويلبس معطفا من صوف الأليكا. وكان يلبس تحت قميصه عقدا من خرزات القودو الزرقاء. كان يراقب الأضواء بهدوء.

كانت الأضواء الكاشفة تصول وتجول فوق حقل الأعشاب الذي تبطح على أرضه الصبية وذقنها في التراب. لم تتحرك قط منذ أن سمعت رشقة الرصاص الأولى. كان في إمكانها أن تشعر بقلبها وهو يخفق على الأرض.

«هل تراها»، سأل أحد الرجال في السيارة.

«قل لهم أن يمشطوا الأعشاب من الجهة الأخرى»، قال الملازم الجالس في المقعد الأمامي. ثم نادى على الزنجي الواقف تحت الشجرة، «اذهب إلى المنزل وقل لهم أن يمشطوا الأعشاب باتجاهنا وعلى نحو مكثف. ألا يوجد سوى هذين الاثنين؟».

«لا أحد سواهما»، قال الزنجي بصوت خفيض. «لقد تمكنا من أحدهما».

«اذهب».

«حاضر، سيدي للملازم».

أمسك قبعته بكلتا يديه وراح يعدو على حافة الحقل باتجاه المنزل الذي صارت الأضواء الآن تتطلق من كل نوافذه.

كانت الصبية تتبطح في الحقل ويدها متشابكتان فوق رأسها. «ساعدني على تحمل هذا الأمر»، قالت وفمها مدسوس في الأعشاب، ولم تكن توجه حديثها إلى أحد لأنه لم يكن هناك أحد. ثم راحت تتشج فجأة، وتخطب أشخاصا بعينهم، «ساعدني، يا فسنتي. ساعدني، يا قلبي. ساعدني، يا شوشو. ساعدني، يا آرتورو. ساعدني الآن، يا إنريك. ساعدني».

لو كانت في غير هذه اللحظة، لصلت، لكنها فقدت قدرتها على الصلاة، وهي الآن في حاجة إلى شيء.

«ساعدوني على ألا أتكلم إن أخذوني»، قالت وفمها يلتصق بالعشب. «امنعني من الحديث، يا إنريك. امنعني من الحديث أبدا، يا فسنتي».

كانت تسمعهم يمشطون الأعشاب خلفها كأنهم صيادو أرانب. كانوا ينتشرون على نطاق واسع ويتقدمون كالمشتركين في مناوشة، ويسلطون مصابيحهم الكهربائية على الأعشاب. «ساعدني، يا إنريك»، قالت الصبية.

أنزلت يديها من فوق رأسها وضمتها إلى جانبيها، قائلة، «هكذا أفضل. إن ركضت سيطلقون النار عليّ. وهذا أهون الشرين».

نهضت ببطء وركضت باتجاه السيارة. سلطت الأضواء الكاشفة عليها تماما، فلما رأتها راحت تعدو، لا ترى سواها، نحو عينيها البيضاء التي تعمي الأبصار. خطر لها أن هذا هو السلوك الأمثل.

كانوا يصيحون من ورائها، لكنهم لم يطلقوا عليها النار.
عرقلها أحدهم بقدمه، فتعثرت واقعة على الأرض. كانت تسمع
أنفاسه عندما أمسك بها.

وضعها شخص آخر تحت ذراعه ثم رفعها. أمسك بها الاثنان
من ذراعيها وجرّأها إلى السيارة. لم يستعملا القوة معها،
لكنهما جرّأها جرّاً إلى السيارة.

«لا، لا، لا»، قالت لهما.

«إنها أخت فُسنتي إرتوبه»، قال الملازم. «ستكون نافعة لنا».

«لقد جرى استجوابها من قبل»، قال آخر.

«ليس بصورة جدية».

«لا، لا، لا»، صرخت بصوت عال. «ساعدي يا فُسنتي!

ساعدي، ساعدي، يا إنريك!».

«إنهم أموات»، قال لها أحدهم. «ولن يساعدوك. فلا تكوني

سخيفة».

«بل سيساعدونني. إن الأموات هم الذين سيساعدونني. أجل،

أجل، أجل. إن موتانا هم الذين سيساعدونني».

«إذن، أُلقي نظرة على إنريك»، قال لها الملازم. «انظري إن

كان سيساعدك. إنه خلف تلك السيارة».

«إنه يساعدي الآن»، قالت الصبية ماريّا. «ألا ترى أنه

يساعدي الآن؟ شكرا لك، يا إنريك. أوه، شكرا لك».

«هيا بنا»، قال الملازم. «إنها مجنونة. اتركوا أربعة رجال

لحراسة المصادرات وسنرسل لكم شاحنة لتأخذها. سنأخذ هذه

المجنونة إلى مقر القيادة حيث يمكنها أن تتحدث هناك».

«لا»، قالت له ماريا، وقد أمسكت به من ردفه. «ألا ترى أن الكل يساعدونني الآن؟».

«لا»، قال الملازم. «أنت مجنونة».

«لا أحد يموت من أجل لا شيء»، قالت ماريا. «الكل يساعدني الآن».

«دعهم يساعدوك بعد ساعة تقريبا»، قال لها الملازم.

«سيفعلون»، قالت ماريا. «أرجوك، لا تقلق. فالكثير، الكثير

يساعدونني الآن».

جلست رابطة الجأش وهي تسند ظهرها على مسند المقعد. بدت الآن كأن ثقة غريبة تملكها. لقد كانت الثقة نفسها التي تملك صبية أخرى في عمرها منذ أكثر من خمسمائة عام بقليل في سوق مدينة تدعى روين^(٥٤).

لم يخطر هذا في بال ماريا. ولا في بال أي من الجالسين في السيارة. لم يكن يجمع بين هاتين الفتاتين، جان وماريا، سوى هذه الثقة الغريبة المفاجئة التي تملكتهما ساعة حاجتهما إليها. لكن كل أفراد الشرطة الجالسين في السيارة انتابهم القلق إزاء ماريا التي جلست منتصبية الظهر ووجهها يتألق تحت المصابيح المقوسة.

انطلقت السيارات وكان الرجال في المقعد الخلفي للسيارة الأمامية يضعون الرشاشات في أكياس القنب الثقيلة، حيث ينزعون مقابضها ويضعونها في جيوب الأكياس المائلة،

(٥٤) الفتاة المعنية هنا هي المناضلة الفرنسية جان دارك (١٤١٢ - ١٤٣١) التي قاتلت الإنجليز في حرب المائة عام [المترجم].

والسبطانات مع حاضناتها اليدوية في الجراب الكبير المتهدل،
والمخازن في الجيوب الضيقة المتشابكة كأنها شباك العنكبوت.
خرج الزنجي، صاحب قبعة القش المسطحة، من ظل المنزل
وأوقف السيارة الأولى. ركب في المقعد الأمامي إلى جانب
راكب ثان يجلس بجانب السائق، ثم انعطفت السيارات الأربع
نحو الطريق الرئيسي الذي ينضم إلى الطريق البحري باتجاه
هافانا.

كان الزنجي يجلس محشورا في المقعد الأمامي للسيارة
عندما مد أصابعه تحت قميصه ووضعها على خيط خرزات
الثودو الزرقاء. كان يجلس صامتا، وأصابعه تمسك بالخرزات.
كان يعمل في حوض السفن قبل أن يحصل على وظيفة مخبر
لدى شرطة هافانا، وسيحصل على خمسين دولارا لقاء ما قام
به من عمل هذه الليلة. خمسون دولارا مبلغ كبير من المال في
هافانا، لكن الزنجي لم يعد يفكر في المال. وعندما بلغوا طريق
«مالكون» المضاء، أدار رأسه قليلا وبطيئا، ثم التفت إلى وراء
فرأى الصبية مشرقة الوجه، مرفوعة الرأس، عزيزة.
ارتعب الزنجي، فمرر أصابعه جميعا على عقد خرزات الثودو
الزرقاء وأمسكها بإحكام. لكنها لم تخفف من روعه، لأنه وجد
نفسه الآن في مواجهة سحر أكثر قدما.

الأسد الطيب [١٩٥١]

في يوم من الأيام كان هناك أسد يعيش مع بقية الأسود في أفريقيا. كانت الأسود الأخرى جميعا شريرة. فكل يوم كانت تأكل حمر الوحش، وثيران النوا، والوعول. وفي بعض الأحيان كانت الأسود الشريرة تأكل البشر أيضا. كانت تأكل السواحليين والأمبولو والواندورويو، وكانت تفضل بشكل خاص التجار الهندوس، لأنهم سمان لذيذون.

لكن هذا الأسد، الذي نحبه لطيبته الزائدة، كانت له أجنحة على ظهره. ولأنه كانت له أجنحة على ظهره، كانت الأسود الأخرى تسخر منه.

«انظروا إلى تلك الأجنحة على ظهره»، كانوا يقولون وينفجرون ضاحكين.

«انظروا إلى ما يأكل»، كانوا يقولون لأن الأسد، لشدة طيبته، لم يكن يأكل سوى الباستا^(٥٥) والقريدس.

كانت الأسود الشريرة تزمجر ضاحكة ثم تأكل تاجرا هندوسيا آخر، وتشرب زوجاتها دمه وتعلقه بأسننتها مثل كبار القطط. لم تكن تتوقف إلا لتهر أو تزمجر ضاحكة على الأسد الطيب، أو لتسخر من أجنحته. لقد كانت حقا أسودا شريرة خبيثة.

أما الأسد الطيب فكان يطوي جناحيه ويطلب بأدب كدأبه كاسا من النغروني أو فنجانا من الأمريكانو الذي اعتاد على

(٥٥) الباستا: نوع من أنواع المعكرونة الإيطالية [المترجم].

شربه بدلا من دم التجار الهندوس^(٥٦). وفي يوم من الأيام رفض أن يأكل ثمانية رؤوس من قطعان المساي^(٥٧) واكتفى بأكل قليل من التاغلياتلي^(٥٨) وشرب كأس من عصير الطماطم.

غضب منه الأسود الأشرار غضبا شديدا، فقالت له أخبت اللبؤات التي ما كانت تستطيع أن تزيل دم التجار الهندوس عن شاربيها حتى لو فركت وجهها بالعشب، «من تظن نفسك لتتعالى علينا؟ من أين أنت، يا أكل الهاستا؟ وماذا تفعل هنا بيننا؟». هرت في وجهه فزمجر الآخرون جميعا من غير ضحك.

«يعيش أبي في مدينة حيث ينتصب تحت برج ساعة ويطل على ألف حمامة تخضع له جميعا. وعندما تطير تسمعون لها ضجة كأنها نهر هادر. إن القصور في مدينة أبي أكثر مما في أفريقيا كلها، وهناك أربعة أحصنة عظيمة من البرونز تقف قبائله، وكل واحد منها يرفع إحدى قوائمه في الهواء خوفا منه ورهبة.

«في مدينة أبي يمشي الناس راجلين أو في قوارب، ولا يدخل المدينة حصان حقيقي خوفا من أبي».

«إن أباك غرفين»^(٥٩)، قالت اللبؤة الخبيثة، وهي تعلق شاربيها.

(٥٦) النغروني: نوع من أنواع الكوكثيل، أما الأمريكانو فهو قهوة مركزة يضاف إليها الشراب الإيرلندي والقشدة [المترجم].

(٥٧) المساي: قوم من الرعاة الرحل يعيشون في شرقي أفريقيا، لا سيما في كينيا وتنزانيا [المترجم].

(٥٨) تاغلياتلي: تسمية شائعة في شمالي إيطاليا لنوع من أنواع الهاستا المعروف باسم فتوتشيني [المترجم].

(٥٩) الغرفين: حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه الآخر أسد [المترجم].

«أنت كاذب»، قال أحد الأسود الشريرة. «لا توجد مثل هذه المدينة».

«ناولوني قطعة من لحم التاجر الهندوسي»، قال أسد شرير آخر. «فلحم هذه القطعان لا يزال طازجا».

«أنت أفاق تافه وابن غرفين»، قالت له أخبث اللبؤات. «والآن يحلو لي أن أقتلك وأكلك، أنت وأجنحتك».

ارتعب الأسد الطيب كثيرا إذ رأى عينيها الصفراوين وذيلها وهو يعلو ويهبط والدم المتجمد على شاربيها، وشم رائحة فمها الكريهة لأنها لم تكن تتظف أسنانها قط. كذلك رأى بقايا تاجر هندوسي تحت فكيها.

«لا تقتليني»، قال لها الأسد الطيب. «إن أبي أسد نبيل حظي بالاحترام دائما وكل ما قلته صحيح».

في هذه اللحظة بالذات وثبت عليه اللبؤة الشريرة، لكنه حلق في الجو بوساطة أجنحته، وطاف مرة واحدة فوق الأسود الأشرار التي كانت تزمجر جميعا وتتطلع إليه. أطل عليها من عليائه وقال في نفسه: «ما أشد همجية هذه الأسود!».

ثم طاف فوقها مرة أخرى ليجعلها تزمجر بصوت أعلى، وانقض هابطا كي ينظر في عيني اللبؤة الشريرة التي نهضت على قائمتيها الخلفيتين لعلها تمسك به. لكنه أفلت من مخالبتها.

«أديوس»، وداعا، قال لها، إذ كان أسدا مثقفا ويتحدث الإسبانية بشكل جميل.

«أو رفوار»، (وداعا)، قال للأسود بفرنسية لا يعلو عليها.

فزمجروا جميعا وهروا بلهجة الأسود الأفريقية.

ثم راح الأسد الطيب يحلق أعلى فأعلى، قاصدا مدينة البندقية. هبط في الساحة العامة وسر الجميع برؤيته. حلق لحظة وقبل أباه على خديه ورأى أن قوائم الأحصنة لا تزال معلقة في الهواء، وأن الباسيلكا أكثر جمالا من فقاعة صابون. كان برج النافوس في مكانه، وكانت الحمام تأوي إلى أعشاشها في المساء.

«كيف وجدت أفريقيا؟». سأله أبوه.

«شديدة الهمجية، يا أبي»، رد الأسد الطيب.

«لدينا الآن إنارة ليلية هنا»، قال أبوه.

«لقد رأيت ذلك»، قال الأسد الطيب كدأب الأولاد المطيعين.

«إنها تزعج عيني قليلا»، أسر له أبوه. «إلى أين تريد الذهاب

الآن يا بني؟».

«إلى مقهى هاري»، قال الأسد الطيب.

«سلم لي على تشبيرياني وقل له إنني سأتي إليه قريبا لأسدد

حسابي»، قال أبوه.

«أجل، يا أبي»، قال الأسد الطيب ثم نزل طائرا بتؤدة، ثم سار

إلى مقهى هاري على قوائمه الأربع.

لم يتغير شيء عند تشبيرياني. كان كل أصدقائه هناك. لكن

مكوته في أفريقيا قد غيره هو قليلا.

«نغروني، يا سيدي البارون؟». سأله تشبيرياني.

لكن الأسد الطيب طار طوال الطريق من أفريقيا، وكانت

أفريقيا قد أثرت فيه.

«هل لديك شطائر من لحم التجار الهندوس؟». سأل تشبيرياني.

«لا، ولكن في استطاعتي أن أحصل عليها».
«إلى أن تحصل عليها، أعد لي كأساً من المشروب الجاف جداً
مع شراب غوردن»، قال له.
«حسن»، قال تشيرياني. «حسن جداً».
راح الأسد ينظر حوله الآن إلى وجوه الناس الطيبين فأحس
أنه في وطنه لكنه لم ينس أنه قد سافر، فشعر بالسعادة.

الثور المخلص [١٩٥١]

في يوم من الأيام كان هناك ثور واسمه لم يكن فيردناند ولم يكن يهتم بالزهور^(٦٠). كان يحب القتال، وكان يتقاتل مع بقية الثيران من سنه أو غير سنه، وكان البطل دائما.

كان قرناه متينين كالخشب ومدببين وحادين كإبرة شيهم. كانا يؤلمانه من عند جذريهما عندما يقاتل لكنه لم يكن يكثرث. كانت عضلات رقبته تنتفخ على شكل كتلة عظيمة تسمى بالإسبانية موريو، وكانت هذه الموريو تنتفخ مثل تلة عندما يستعد للقتال. كان دائما مستعدا للقتال، وكان جلده أسود لامعا، وعيناه صافيتين. كان يتحفز للقتال لأي سبب، وكان يقبل على القتال بحماسة مفرطة تماما كما يقبل بعض الناس على الأكل أو القراءة. لم يكن يقاتل إلا ليقتل، ولم تكن بقية الثيران تخشاه لأنها من سلالة جيدة ولا تخافه. لكنها لم تكن ترغب في استفزازه أو في مقاتلته.

لم يكن متمرا ولا شريرا، لكنه كان يحب أن يقاتل تماما كما يحب الرجال أن يغنوا أو أن يصبحوا رؤساء أو ملوكا. لم يكن يفكر قط. كان القتال لزاما عليه وواجبا ومتعة. كان يقاتل على الأرض الصخرية المرتفعة. وكان يقاتل تحت أشجار الفلين وفي المروج الخضراء بجوار النهر. كان يمشي كل

(٦٠) الإشارة هنا، وإن على سبيل المعارضة، إلى كتاب منرو ليف «قصة فيردناند» (١٩٣٦) الذي يحكي قصة ثور يسمى فيردناند، يحب الزهور ويأنف من مصارعة الثيران [الترجم].

يوم خمسة عشر ميلا من النهر إلى الأرض الصخرية المرتفعة، وكان مستعدا لقتال أي ثور ينظر إليه. لكنه لا يغضب قط. ليس هذا صحيحا في الواقع، إذ كان يغضب في قرارة نفسه. لكنه لم يكن يعلم لأنه غير قادر على التفكير. كان نبيلًا جدًا ويجب القتال.

إذن، فماذا حدث له؟ كان مالكة، إن كان في مقدور أي إنسان أن يملك مثل هذا الحيوان، كان يعلم عظمة هذا الثور، لكن ما كان يقلقه هو التكلفة الباهظة التي يسببها له في مقاتلته للثيران الأخرى. كان ثمن كل ثور أكثر من ألف دولار، لكن بعد أن ينازلها الثور العظيم ينخفض ثمنها إلى مائتي دولار أو أقل أحيانا. وهكذا قرر الرجل الطيب أن يجعل دم هذا الثور يجري في عروق القطيع كله بدلا من أن يرسله إلى الحلبة ليقتل. وهكذا اختاره فحلا للاستيلاد.

لكن هذا الثور كان ثورا غريبا. إذ عندما أطلقوه في المروج مع البقرات المعدة للاستيلاد، رأى بقرة فتية جميلة، وكانت أنحف وأكثر رشاقة ولعانا وجاذبية من البقية. وبما أنه منع من القتال، فقد وقع في غرامها ولم يكثرث بالبقرات الأخرى. كان يريد أن يكون معها وحدها، أما البقية فلم تكن تعني له شيئا على الإطلاق.

كان صاحب مزرعة الأبقار يأمل أن يتغير الثور أو يتعلم أو يختلف عما كان. لكن الثور ظل كما هو، يحب من يحب ولا أحد سواها. كان يريد أن يكون معها وحدها، أما البقية فلم تكن تعني له شيئا على الإطلاق.

وهكذا أرسله الرجل ليقتل مع خمسة ثيران أخرى في الحلبة، فعلى الأقل يستطيع الثور أن يقاتل، مع أنه كان مخلصاً. قاتل بشكل رائع ونال إعجاب الجميع، لاسيما الرجل الذي قتله. لكن ستره المصارعة التي كان يرتديها الرجل الذي يدعى الماتادور كانت ترشح عرقاً وجف فمه جفافاً شديداً.

«ما أشجع هذا الثور!» قال الماتادور وهو يناول سيفه إلى حامل السيف. ناوله السيف ومقبضه إلى الأعلى ونصله يقطر منه دم قلب الثور الشجاع الذي انتهت متاعبه جميعاً، تجره أربعة خيول خارج الحلبة.

«أجل، إنه الثور الذي تعين على ماركيز بيامايور أن يتخلص منه لأنه كان مخلصاً»، قال حامل السيف الذي كان يعلم كل شيء.

«لعله يجدر بنا جميعاً أن نكون مخلصين»، قال الماتادور.

ليت للكفيف عينا مبصرة! [١٩٥٧]

«وماذا فعلنا عندئذ؟». سألتها، فأخبرته.

«هذا الجزء غريب جدا، فأنا لا أذكره إطلاقا».

«هل تذكر عندما بدأت الرحلة؟».

«لا أتذكرها، مع أنه يجب عليّ أن أتذكرها. أذكر النساء وهن يسلكن الطريق إلى الشاطئ طلبا للماء، والقصور على رؤوسهن، وأذكر سرب الإوز التي كان الكلب يدفعها نحو الماء. أذكر كيف كن يتهادين في مشيتهن، وكن إما يصعدن أو يهبطن. كان المد عاليا جدا، وكانت السهول المنخفضة صفراء، وكانت القناة بمحاذاة الجزيرة البعيدة. كانت الريح تهب دائما، فلم يكن هناك ذباب أو بعوض. كان هناك سقف وأرض إسمنتية وأعمدة ينهض عليها السقف، وكانت الريح تلعب فيها باستمرار. كان الجو معتدل البرودة نهارا ورائعا ومعتدلا ليلا».

«هل تذكر الدهو^(٦١) وهو ينساب مع المد المنخفض؟».

«نعم، أذكر ذلك، وأذكر كيف جاء طاقم المركب في قواربهم إلى الشاطئ وسلكوا الطريق، وكيف كانت الإوز والنساء يرتعدن خوفا منهم».

«كان ذلك يوم اصطدنا سمكا كثيرا، لكن تعين علينا العودة بسبب صعوبة الموج».

(٦١) الدهو: مركب شراعي كبير معروف في شواطئ الجزيرة العربية وشرقي أفريقيا [المترجم].

«أذكر ذلك».

«إنك تتذكر جيدا اليوم»، قالت له. «لا تفرط في ذلك».

«آسف لأنك لم تتمكني من الطيران إلى زنجبار»، قال لها. «إن ذلك الشاطئ العالي الذي كان يطل على مكان إقامتنا سابقا يصلح للهبوط. كان في إمكانك أن تهبطي وتقلعي من هناك بسهولة».

«في وسعنا أن نذهب إلى زنجبار متى شئنا. لا تحاول أن تتذكر كثيرا اليوم. هل تريدني أن أقرأ لك؟ فهناك كثير مما فاتنا من أعداد «النيويورك القديمة»^(٦٢).

«لا، أرجوك لا تقرئي»، قال لها. «حدثيني فقط. حدثيني عن أيامنا السعيدة».

«هل تريد أن أخبرك عن الطقس في الخارج؟».

«أعرف أنها تمطر»، قال لها.

«إنها تمطر مطرا غزيرا»، قالت له. «لن يخرج سائح في هذا الجو الماطر. فالريح عاصفة جدا، ويمكننا أن نذهب ونجلس قرب الموقد».

«هذا ممكن في كل الأحوال. لم أعد أكثر ثلهم. أحب أن أسمعهم يتحدثون».

«بعضهم فضليون، وبعضهم رائعون»، قالت له. «أعتقد أن الرائعين منهم هم الذين يخرجون إلى تورتلشو»^(٦٣).

(٦٢) «النيويورك»: مجلة أسبوعية تصدر في نيويورك [المترجم].

(٦٣) تورتلشو: بلدة في الشمال الشرقي من إيطاليا تقع على ساحل بحيرة البندقية [المترجم].

«هذا صحيح تماما»، قال لها. «لم يخطر هذا في بالي قط. في الحقيقة لا يوجد هنا ما يشاهدونه ما لم يكونوا في غاية اللطف».

«هل يمكنني أن أعد لك مشروباً؟». سألته. «أنت تعلم كم أنا ممرضة فاشلة. لم أتلق تدريباً في هذا المجال، وليس لدي موهبة فيه. لكنني أستطيع أن أعد المشروبات».

«إذن لنتناول مشروباً».

«ماذا تريد؟».

«أي شيء».

«سأعد لك مفاجأة. سأعدها في الأسفل».

سمع الباب ينفتح ثم ينفلق، وسمع قدميها تهبطان الدرج، فخطر له: عليّ أن أرسلها في رحلة. وعليّ أن أجد طريقة لإقناعها بذلك. عليّ أن أفكر في شيء عملي. إن ما بي الآن سيظل معي إلى نهاية العمر، وعليّ أن أجد الوسيلة كي لا أدمر حياتها أو أدمرها هي. لقد كانت طيبة جداً، وهي لم تخلق لتكون طيبة. أقصد طيبة كل يوم وإلى درجة الإملال.

سمعها وهي تصعد الدرج وانتبه إلى الفرق في وقع خطواتها وهي تحمل الآن كأسين وعندما نزلت الدرج خالية اليدين. سمع وقع المطر على زجاج النافذة وشم رائحة خشب الزان المحترق في الموقد. عندما دخلت الغرفة مد يده ليتناول الكأس وضم يده عليها وأحس بها وهي تلامس كأسه بكأسها.

«إنه مشروبنا الذي اعتدنا عليه عندما نأتي إلى هنا»، قالت له. «كامپاري وغوردن مع الثلج».

«يسرني أنك لست فتاة تقول: على الصخور».
«لا، لن أقول هذه العبارة قط»، قالت له. «يكفينا أننا كنا على
الصخور»^(٦٤).

«عندما بقينا وحدنا نواجه الصعاب التي ما برحت تلازمنا»،
قال متذكرا. «أتذكرين متى حرمنا تلك العبارات؟»
«حدث هذا حين اصطدت أسدي. ألم يكن أسدا رائعا؟
لا أستطيع الانتظار حتى نراه».
«وأنا كذلك»، قال لها.
«أنا آسفة».

«أتذكرين متى حرمنا تلك العبارة؟»
«كدت أقولها ثانية».

«أنت تعلمين أننا محظوظون جدا لأننا جئنا إلى هنا»، قال
لها. «إنني أتذكرها جيدا إلى درجة تكاد تكون ملموسة. هذه كلمة
جديدة وسنحرمها قريبا. لكنها رائعة حقا. عندما أسمع المطر
أستطيع أن أراه على الصخور والقناة والبحيرة، وأعرف كيف
تنحني الأشجار، وكيف تفرق الكنيسة وبرجها في النور. بالنسبة
إلي، ما كان في إمكاننا أن نأتي إلى مكان أفضل من هذا. إنه
مكان رائع حقا. لدينا جهاز راديو جيد وجهاز تسجيل رائع،
وسأتمكن من الكتابة بشكل أفضل مما مضى. لو صبرت على
جهاز التسجيل لتمكنت من معرفة الكلمات بدقة. يمكنني أن
أعمل ببطء، ويمكنني أن أرى الكلمات عندما أقولها. فإن قيلت

(٦٤) هنا يتلاعب همنغواي بالمعنى المجازي المزدوج لعبارة on the rocks (حرفيا «على
الصخور») حيث إن الأول يعني «على مكعبات جليدية» (إذ تشبه المكعبات الجليدية التي تضاف
إلى المشروب بالصخور) والثاني «على شفير الهاوية» [المترجم].

بصورة خاطئة فأني أسمعها بصورة خاطئة، فأتمكن من قولها من جديد وأظل أشتغل فيها إلى أن تصبح صحيحة. فيا حبيبتي، ما كان في الإمكان أفضل مما كان».

«أوه، يا فيليب».

«اللغة، إن الظلام هو الظلام»، قال لها. «لا يشبه هذا الظلام الحقيقي في شيء. يمكنني الآن أن أرى جيدا في الداخل ورأسي أفضل مما كان، ويمكنني أن أتذكر وأن أعوض. انتظري وسترين. ألم أتذكر اليوم بشكل أفضل؟».

«إن ذاكرتك تتحسن باستمرار، وأنت تستعيد قوتك».

«أنا قوي»، قال لها. «لكن لو...».

«لو ماذا؟».

«لو ابتعدت قليلا واسترحت من كل هذا».

«ألا تريدني معك؟».

«طبعاً أريدك معي، يا عزيزتي».

«إذن، فلماذا تتحدث عن ضرورة ابتعادي؟ أنا أعلم أنني لست بارعة في الاعتناء بك لكنني أستطيع أن أقوم بأشياء لا يستطيع أن يقوم بها غيري ونحن يحب أحدا الآخر. أنت تحبني وأنت تعرف ذلك، وأنا وأنت نعرف أشياء لا يعرفها غيرنا».

«إننا نقوم بأشياء رائعة في الظلام»، قال لها.

«وقمنا بأشياء رائعة في وضوح النهار أيضا».

«أنت تعلمين أنني أفضل الظلام. وهذا تحسن إلى حد ما».

«لا تفرط في الكذب»، قالت له. «لا حاجة إلى أن تكون نبيلاً

إلى درجة مريضة».

«أنصتي إلى صوت المطر»، قال لها. «كيف المد الآن؟»
«لقد تراجع كثيرا، وجاءت الريح لتدفع الماء إلى الوراء أكثر من ذلك. يمكنك أن تذهب سيرا على الأقدام إلى بيورانو»^(٦٥).
«باستثناء مكان واحد»، قال لها. «هل هناك طيور كثيرة؟»
«أغلبها طيور النورس والخرشنة. إنها تقبع في المنخفضات وعندما تطير تتلقفها الريح».
«ألا يوجد أي من طيور الشطآن؟»
«هناك عدد قليل مما يخرج عادة في مثل هذه الريح والمد، وهي تقعات على طرف المنخفضات».
«أتظنين أن الربيع قادم؟»
«لا أعرف»، قالت له. «لا يبدو الأمر كذلك إطلاقا».
«هل شربت كل مشروبك؟»
«تقريبا. لماذا لا تشرب أنت؟»
«أردت أن أحتفظ به».
«بل اشربه»، قالت له. «ألم يكن مريعا عندما كنت غير قادر على الشرب؟»
«لا»، قال لها. «في الحقيقة، ما خطر ببالي عندما نزلت إلى الأسفل هو أنه في إمكانك أن تذهبي إلى باريس ثم لندن لتلتقي بالناس وتستمتعي، وبعدها تعودين ويكون الربيع قد حل وتخبريني عن كل شيء».
«لا»، قالت له.

(٦٥) بيورانو: جزيرة صغيرة تبعد ٧ كيلومترات شمال مدينة البندقية الإيطالية، وتعد اليوم أكبر مدينة خالية من السيارات في العالم [المترجم].

«أعتقد أن ذهابك فكرة ذكية»، قال لها. «أنت تعلمين أن هذا الأمر مسألة طويلة وغبية، وعلينا أن نتعلم كيف نباعد خطواتنا. ولا أريد أن أرهقك. أنت تعلمين...».

«ليتك لا تفرط في قول أنت تعلمين».

«هل رأيت؟ هذا واحد من الأمور. يمكنني أن أتعلم الحديث بطريقة لا تزعجك. وقد تهيمين بي عندما تعودين».

«وماذا ستفعل ليلًا؟».

«الليل أمره سهل».

«لا شك عندي في أنه كذلك. وأظن أنك تعلمت كيف تنام أيضا».

«سأتعلم»، قال لها ثم شرب نصف كأسه. «هذا جزء من الخطة. أنت تعلمين أنه هكذا ستتجح الخطة. إن رحلت واستمتعت، فسيرتاح ضميري. وعندما يرتاح ضميري ولأول مرة في حياتي فسأتمكن من النوم تلقائيا. سأتناول وسادة فأحسبها ضميري المرتاح وأطوقها بذراعي ثم أخلد للنوم. وإن صادف أن استيقظت فكل ما هنالك أنني سأفكر أفكارا جميلة سعيدة قذرة. أو أفكر في حلول رائعة جميلة. أو أتذكر. أنت تعلمين أنني أريدك أن تستمتعي...».

«أرجوك، لا تقل أنت تعلمين».

«سأفعل ما في وسعي كي لا أقولها. إنها عبارة ممنوعة لكنني أنسى فأرفع لها الموانع. على أي حال، لا أريدك أن تكوني مجرد عين مبصرة»^(٦٦).

(٦٦) العين المبصرة: تعبير مجازي عن الكلب الذي يستخدمه العميان ليدلهم على الطريق في مسيرهم [المترجم].

«أنا لست كذلك. وبالمناسبة، لقد أخطأت القول»^(٦٧).
«أعرف ذلك»، قال لها. «تعالى واجلسى هنا، إن لم يكن لديك
مانع كبير».

جاءت وجلست إلى جانبه على السرير وسمعا المطر يقرع
زجاج النافذة وحاول ألا يتحسس رأسها ووجهها الجميل كعادة
العميان، ولم تكن هناك طريقة أخرى يستطيع أن يتحسس
وجهها. ضمها إليه وقبل أعلى رأسها. خطر له هذا الخاطر:
عليّ أن أجرب الأمر في يوم آخر. يجب ألا أكون غيبا في هذا.
إنها رائعة اللمس وأنا أحبها كثيرا، ولقد أذيتها كثيرا وعليّ
أن أتعلم كيف أرهاها جيدا بكل ما يمكن. لو فكرت فيها دون
سواها، لسارت الأمور على ما يرام.
«لن أقول أنت تعلمين بعد الآن إطلاقا»، قال لها. «يمكننا أن
نبدأ بهذا».

هزت رأسها وأحس بها ترتجف.
«قلها كما يحلو لك»، قالت له وهي تقبله.
«أرجوك، لا تبكي يا حبيبتي»، قال لها.
«لا أريدك أن تنام مع أي وسادة قذرة»، قالت له.
«لا، لن أنام مع أي وسادة قذرة».
كفى، قال لنفسه. كفاك الآن.
«اسمعي يا صغيرتي»، قال لها. «سننزل الآن ونتناول الغداء
في ذلك المكان القديم الرائع بجانب الموقد، وسأخبرك كم أنت
قطة رائعة وكم نحن قطتان رائعتان».

(٦٧) الخطأ المشار إليه هنا هو خطأ نحوي لا يمكن ترجمته، إذ يقول فيليب a seeing-eyed dog بينما الأصح في رأيها أن يقول: a seeing-eye dog [المترجم].

«في الحقيقة نحن كذلك».

«سنسوي جميع أمورنا».

«لا أريدك أن تبعدني عنك».

«لن يبعدك أحد عني».

لكنه عندما هبط الدرج، متحسسا كل درجة ويمسك
بالدرابزين، راح يفكر: عليّ أن أبعدا وفي أقرب فرصة ممكنة
من دون أن أجرح مشاعرها. فأنا لا أجد هذا العمل، وأنا منه
براء. لكن ما العمل؟ لا شيء. لا شيء. لكنك قد تتقنه مع مرور
الزمن.

حكيم زمانه

[١٩٥٧]

كان الكفيف يميز أصوات مختلف الآلات في الصالون. لا أعرف كم استغرق منه تعلم هذه الأصوات لكنه وقت طويل حتماً لأنه لم يكن يتردد على صالونين في آن واحد. كان يجوب مدينتين مبتدئاً من بلدة فلاتس بعد حلول الظلام قاصداً بلدة جيسب. كان يتوقف بجانب الطريق وعندما يسمع سيارة قادمة تلتقطه بأنوارها، فإما تتوقف وتحمله أو تتابع مسيرها على الطريق المتجمد. كان هذا يعتمد على حمولة السيارة أو إن كانت هناك نساء لأن الكفيف كانت تفوح منه رائحة قوية، وخصوصاً في الشتاء. لكنه كان دائماً يجد من يقله لأنه كفيف.

كان الجميع يعرفونه وكانوا يلقبونه «بلايندي»^(٦٨)، وهذا اسم مناسب لرجل أعمى في تلك البقعة من البلاد، وكان يتردد على صالون اسمه پايلوت. وهناك صالون آخر ملاصق له اسمه إندكس، وفيه أيضاً صالة للقمار ومطعم. سمي هذان الصالونان على اسمي جبيلين، وكان كلاهما جيداً، وكان لعب الورق في هذا الصالون لا يختلف عنه في الآخر، بيد أن الأكل في الپايلوت، باستثناء الشرائح المشوية، قد يكون أفضل. أضف إلى ذلك أن الإندكس يفتح طوال الليل ويستقبل الزبائن في الصباح الباكر، وكان يقدم المشروبات مجاناً من طلوع الفجر حتى العاشرة صباحاً. لم يكن في جيسب صالونات

(٦٨) «بلايندي»: تصغير كلمة «بلايند» (أعمى)، وهي أيضاً تعبير ملطف فيه مزيج من الدعابة والتعجب [المترجم].

غيرهما ولم يكن لزاما عليهما أن يقوموا بهذا الشيء، لكن هكذا كانت تجري الأمور.

من الأرجح أن بلاندي كان يفضل البايوت لأن الآلات كانت بمحاذاة الجدار الأيسر عندما تدخل وكانت مقابل المشرب، مما يجعله أقدر على التحكم فيها مما لو كان في الإندكس حيث تتبعثر الآلات هنا وهناك بسبب اتساع مساحة الصالون. في هذه الليلة كان الطقس باردا في الخارج، وعندما دخل كان الجليد يتدلى من شاريه وكتل صغيرة من القذى المتجمد من عينيه، ولم يكن منظره في الحقيقة على ما يرام. حتى رائحته كانت متجمدة، وإن لم يطل هذا الأمر حيث راحت رائحته تفوح منه حالما أغلق الباب. في الماضي كان يصعب عليّ أن أنظر إليه، لكنني اليوم أمعنت النظر فيه لأنني كنت أعلم أنه دائما يجد من يقله بسيارته، لذلك لم أفهم كيف يمكن له أن يتجمد على هذه الشاكلة السيئة. وأخيرا سألته:

«من أين جئت ماشيا، يا بلاندي؟»

«أنزلني ولي سوير من سيارته عند جسر سكة الحديد.

لم تكن هناك سيارات قادمة، فمشيت».

«ولماذا أنزلك؟». سأل أحدهم.

«يقول إن رائحتي لا تطاق».

شد أحدهم مقبض إحدى الآلات وراح بلاندي يستمع

لهديرها. كانت النتيجة صفرا. «هل هناك خواجات يلعبون؟».

سألني^(٦٩).

(٦٩) اخترت كلمة «خواجات»، برغم أعجميتها. مكافئا لكلمة *dudes* لما في هاتين الكلمتين من دلالات توحى بحسد الفقير للأغنياء من أبناء الطبقة الراقية [المترجم].

«ألا تسمع؟»

«ليس بعد».

«لا يوجد خواجهات، يا بلاندي، والليلة ليلة أربعاء».

«أنا أعلم ما هي الليلة. لا تقل لي ما هي الليلة».

اتجه بلاندي نحو صف الآلات وراح يتحسسها واحدة واحدة لعل أحدهم ترك شيئاً في الكؤوس سهواً. بالطبع، لم يكن هناك شيء، لكن هذه هي رميته الأولى. عاد حيث كنا نجلس، فدعاه آل تشيني إلى تناول كأس.

«لا»، قال بلاندي. «عليّ أن أتخذ الحذر على تلك الطرقات».

«ماذا تقصد بتلك الطرقات؟». سأله أحدهم. «أنت لا تسير

إلا على طريق واحدة. من هنا إلى فلاتس».

«لقد سرت على دروب كثيرة»، قال بلاندي. «وقد يتحتم عليّ

في أي وقت أن أنطلق في دروب أخرى».

رمى أحدهم قطعته في إحدى الآلات لكنها لم تكن ضربة

موفقة. لكن بلاندي قصدها برغم ذلك. كانت آلة ربيعة^(٧٠).

فأعطاه الشاب الذي كان يلعب بها ربع دولار على مضض.

تحسس بلاندي ربع الدولار قبل أن يضعه في جيبه.

«شكراً لك»، قال له. «لن تخسره».

«تسرني معرفة ذلك»، قال له الشاب، ثم وضع ربعاً آخر في

الآلة وسحب ثانية.

رمى قطعة أخرى في الآلة فحالفه الحظ هذه المرة وغرف

الأرباع ثم أعطى بلاندي واحداً منها.

(٧٠) الآلة الربعية هي آلة ورق يضع فيها اللاعب ربع دولار ثم يشد مقبضاً نحو الأسفل، فإذا يربح كل الأرباع الموضوعة فيها أو يخسر الربع الذي لعب به [الترجم].

«شكرا»، قال له بلايندي. «إن الحظ يحالفك».

«الليلة ليلتي»، قال الشاب الذي كان يلعب.

«وليلتك هي ليلتي»، قال بلايندي، وتابع الشاب لعبه لكن الحظ لم يعد حليفه، وظل بلايندي ملازما له وبدا بأسوأ حال، وأخيرا ترك الشاب اللعب. كان بلايندي قد ضايقه من دون أن يدري لأن الشاب لم يقل شيئا، وهكذا راح بلايندي يفتش الآلات مرة أخرى بيده وظل ينتظر من يأتي ويلعب.

لم يكن أحد يلعب بالعجلة أو لعبة الكرايس^(٧١)، بل كان هناك مقامرون يلعبون البوكر وكل منهم يهمهم بقطع الآخر. كانت أمسية هادئة من أيام الأسبوع في البلدة، لا إثارة فيها. ولولا البار لما جنى الصالون فلسا واحدا. كان الجو بهيجا والصالون رائعا إلى أن جاء بلايندي. وهكذا راح الجميع يفكرون في الانتقال إلى صالون الإندكس المجاور أو الذهاب إلى بيوتهم.

«ماذا تود أن تشرب يا توم؟». سألني فرانك. «على حساب المحل».

«كنت أفكر في الرحيل».

«إذن، تناول مشروبا قبل ذلك».

«ناولني مشروبي المعتاد»، قلت له. سأل فرانك الشاب ماذا سيشرّب، فطلب المشروب ذاته، وكان الشاب يرتدي معظفا صوفيا ثقيلا وقبعة سوداء، وكان حليقا وقد أحرق الثلج وجهه. كان المشروب من نوع أولد فورستر.

(٧١) الكرايس: نوع من ألعاب الورق تلعب بحجري نرد، فإذا كان مجموع نقاط الرمية الأولى للاعب سبعة أو إحدى عشرة فهو الرابع، أما إذا كان المجموع نقطتين أو ثلاثا أو اثني عشرة فهو الخاسر [المترجم].

أومأت له برأسي ورفعت قدحي وراح كلانا يرتشف مشروبه.
كان بلايندي عند الطرف البعيد لآلات اللعب. وأظن أنه أدرك
أنه لن يدخل أحد الصالون إن رآه عند الباب. هذا لا يعني أنه
خجول.

«كيف فقد ذلك الرجل بصره؟». سألني الشاب.

«في عراك»، قال له فرانك.

«لا أعرف»، قلت له.

«هذا يعارك؟». سأل الغريب وهو يهز رأسه.

«نعم»، قال فرانك. «وقد أصبح صوته مرتقعا من جراء المعركة

نفسها. قل له، يا توم».

«لم أسمع بذلك قط».

«طبعاً، لم تسمع به»، قال فرانك. «لم تكن هنا، على ما أظن.

حدث الأمر يا سيدي في ليلة باردة مثل هذه. وربما أشد برودة.

وكان عراكاً سريعاً أيضاً. لم أشاهد كيف ابتدأ. خرجا من باب

الإنديكس وهما يتعاركان. كان بلاكي، الذي أصبح بلايندي فيما

بعد، وفتى آخر اسمه ولي سوير يتلاكمان بالأيدي والركب، وكل

منهما يهم بعض الآخر أو قلع عينه، ثم رأيت إحدى عيني بلاكي

تتدلى على خده. كانا يتعاركان على الطريق المتجمد حيث يتراكم

الثلج، والنور يسطع من هذا الباب وباب الإنديكس، وكان هولس

ساندز يقف خلف ولي سوير مباشرة الذي كان يحاول اقتلاع

عين بلاكي، وكان هولس يصرخ، «عضها! عضها كما تعض حبة

عنب!» وكان بلاكي يعض على وجه ولي سوير، وقد تمكن منه

بعضة جيدة لكن ولي سوير أفلت منها، ثم تمكن منه بعضة جيدة

أخرى، ثم وقعا على الجليد، وراح ولي سوير يشد عين بلاكي لعله يتخلص منه، وبعدها صرخ بلاكي صرخة لم أسمع مثلها من قبل. كانت أبشع من صرخة خنزير ينحر».

في هذه الأثناء كان بلايندي قد أصبح مقابلنا وشممنا رائحته واستدار قائلاً: «عضها كما تعض حبة عنب»، قال ذلك بصوته المرتفع النبرة، ونظر إلينا، وهو يرفع رأسه ويخفضه. «هذا ما حدث للعين اليسرى. أما الأخرى فقد قلعتها من دون أن يشير عليه أحد بذلك. ثم ضربني بأخمص قدمه عندما فقدت بصري. وكان ذلك أسوأ شيء». ثم ربت على نفسه.

«كنت أجيد القتال حينها، لكنه اقتلع عيني قبل أن أدرك ماذا يجري. لقد حالفه الحظ في اقتلاعها»، قال بلايندي من غير حقد. «وكانت هذه خاتمة أيام العراق». «قدم لبلاكي مشروباً»، قلت لفرانك.

«اسمي بلايندي، يا توم. لقد اكتسبت هذا الاسم. لقد رأيتني أكتسبه. كان ذلك الشخص نفسه الذي أنزلني في منتصف الطريق هذه الليلة. الشخص نفسه الذي اقتلع عيني. لم نتصاف قط». «ماذا فعلت به؟». سألته الغريب.

«ستراه في هذه النواحي»، قال بلايندي. «وستعرفه متى رأيته. سأترك لك ذلك مفاجأة».

«لا حاجة لك برؤيته»، قلت للغريب.

«أنت تعلم أن هذا أحد الأسباب التي تجعلني أتمنى الرؤية أحياناً»، قال بلايندي. «أتمنى لو أستطيع أن ألقى عليه نظرة واحدة فقط».

«أنت تعلم تماما كيف هو منظره»، قال له فرانك. «لقد ذهبت إليه ذات مرة وتحسست وجهه بيدك».

«لقد فعلت ذلك ثانية الليلة»، قال بلايندي مغتبطا. «ولهذا أنزلني من السيارة. إنه لا يعرف المزاح أبدا. قلت له إن عليه في مثل هذه الليلة الباردة أن ينكمش على نفسه كي لا يتعرض وجهه للبرد. لم يجد فيما قلت ما يدعو إلى الضحك. أنت تعلم أن ولي سوير لن يكون أبدا حكيما زمانه».

«تناول كأسا على حساب المحل، يا بلاكي»، قال له فرانك. «لا أستطيع أن أوصلك إلى بيتك بسيارتي لأنني أسكن على مقربة من هنا. لكن في إمكانك أن تنام في الجزء الخلفي من المحل».

«هذا كرم عظيم منك يا فرانك. لكن أرجوك، لا تتادني بلاكي. لم أعد بلاكي. إن اسمي هو بلايندي».

«تفضل مشروبك، يا بلايندي».

«أجل، يا سيدي»، قال بلايندي. امتدت يده نحو الكأس وعندما وجدها رفعها بشكل صحيح لنا نحن الثلاثة.

«من الأرجح أن ولي سوير هذا يقبع في بيته وحيدا»، قال بلايندي. «إن ولي سوير هذا لا يعرف قط كيف يتمتع نفسه».

قصة أفريقية [١٩٧٢]

كان ينتظر طلوع القمر، فأحس بشعر كيبو يرتفع تحت يده عندما مسده ليسكته، ثم راحا يراقبان وينصتان بينما كان القمر يرتفع ويجعل لكل منهما ظلاً. ولما طوق رقبة الكلب بذراعه، شعر به وهو يرتجف. توقفت جميع أصوات الليل. لم يسمعا صوت الفيل، ولم يره ديثد إلى أن أدار الكلب رأسه وبدأ كأنه يستقر في حجر ديثد. عندها أسدل عليهما الفيل ظله وتخطاهما من دون ضجة، فشما رائحته التي حملها إليهما النسيم القادم من الجبل. كانت رائحته قوية، لكنها معتقة وحامضة، وعندما تجاوزهما رأى ديثد أن ناباه الأيسر طويل جداً يكاد يلامس الأرض.

ظلاً ينتظران مقدم الفيلة الأخرى، لكنها لم تأت، فانطلق ديثد والكلب يجريان في ضوء القمر. كان الكلب يلازم ديثد إلى درجة أنه عندما يتوقف كان الكلب يدس خطمه في باطن ركبته.

كان على ديثد أن يرى الفيل مرة أخرى، فلحقا به عند حافة الغابة. كان يرتحل نحو الجبل، يشق طريقه ببطء في نسيم الليل المطرد. اقترب منه ديثد إلى درجة جعلت الفيل يحجب عنه القمر ثانية ومكنته من شم رائحته المعتقة الحامضة لكنه لم يستطع رؤية ناباه الأيمن. كان يخشى من التعامل مع الفيل والكلب يلازمه على هذه الشاكلة، فأعاده مع اتجاه هبوب الريح وأقعده عند جذع شجرة وحاول أن يفهمه. ظن أن الكلب سيبقى

في مكانه ففعل، لكن عندما اقترب ديثد من كتلة الفيل الهائلة مرة أخرى أحس بخطم الكلب الندي يلامس باطن ركبته.

تبع الاثنان الفيل حتى أتى فسحة بين الأشجار، فوقف فيها وهو يحرك أذنيه الهائلتين. كان جسمه يحتجب في الظل بينما رأسه في ضوء القمر. مد ديثد يده وراءه فأطبق على فكي الكلب برفق ثم سار بهدوء على يمين الفيل حابسا أنفاسه، ونسيم الليل يداعب خده، يداري الكلب لئلا يحول بينه وبين جسم الفيل إلى أن تمكن من رؤية رأس الفيل وأذنيه الهائلتين تتحركان ببطء. كان ناب الفيل الأيمن يشخن فخذة هو، وكان ينحني نحو الأسفل حتى يكاد يلامس الأرض.

عاد هو والكلب أدراجهما، وكانت الريح تهب على رقبتة الآن، خارجين من الغابة نحو المرج الفسيح. راح الكلب يجري أمامه فتوقف حيث ترك ديثد رمحي الصيد بمحاذاة الدرب عندما كانا يلاحقان الفيل. قذفهما فوق كتفه مع سيرهما وقرابهما الجلدي، ثم أمسك برمحه الأثير لديه الذي لا يفارقه أبدا، وراحا يسيران على الدرب باتجاه الشامبا^(٧٢)، كان القمر قد أصبح عاليا في هذه الأثناء وراح يتساءل لماذا لم يسمع قرع الطبول من الشامبا. أمر غريب أن يكون أبوه هناك ولا طبول تقرع.

شعر ديثد بالإرهاق حالما وجدوا الدرب ثانية.

منذ زمن طويل وهو يشعر بأنه أفضل حالا من هذين الرجلين، وقد ضاق ذرعا بتباطئهم وبتوقف والده المتكرر. كان في إمكانه أن يسير في المقدمة على نحو أسرع مما يسير جمعة وأبوه، لكن

(٧٢) «شامبا»: لفظة سواحلية وتعني الحقل أو الأرض المحروثة حيث تزرع فيها مزروعات تسد حاجة الأسرة [الترجم].

عندما أدركه التعب تساوى معهما، وعند الظهيرة أخذوا كعادتهم خمس دقائق من الراحة، ولاحظ أن جمعة راح يباعد خطواته قليلا. ربما لم يكن كذلك. ربما بدت خطواته أسرع، لكن روث الفيل أصبح أكثر طراوة الآن. وإن لم يعد دافئ الملمس. بعد أن مروا بآخر كومة من الروث، أعطاه جمعة البندقية ليحملها لكنه بعد ساعة نظر إليه وأخذها منه. كانوا يتسلقون باطراد سفح جبل، لكن الدرب الآن راح يهبط فرأى من فجوة في الغابة ريفا وعرا يمتد أمامه. «من هنا يبدأ الجزء الأصعب، يا ديثي»، قال له أبوه.

لقد أدرك عندئذ أنه كان يجب عليه أن يعود إلى الشامبا حالما أوصلهما إلى الدرب. كان جمعة على معرفة مسبقة بهذا الدرب، وهاقد عرفها أبوه الآن، ولم يعد في اليد حيلة. كانت غلطة أخرى من غلطاته ولم يعد أمامه من خيار سوى المجازفة.

نظر ديثد إلى أثر قدم الفيل المسطحة الدائرية الكبيرة فرأى كيف وطئت أوراق السرخس وكسرت ساق عشبة. التقط جمعة ساق العشبة ونظر إلى الشمس. ناول جمعة العشبة المكسورة إلى أبي ديثد، فلفها هذا بين أصابعه. لاحظ ديثد كيف كانت الأزهار البيضاء تذوي وتموت. لكنها لم تجف تحت أشعة الشمس ولا انسلخت تويجاتها.

«سيكون الأمر عسيرا»، قال له أبوه. «هيا بنا».

ظلوا يتتبعون الأثر عبر الريف الوعر حتى وقت متأخر من العصر. وظل يغالب النعاس وقتا طويلا، وبينما كان يراقب الرجلين أدرك أن النعاس هو عدوه الحقيقي، فاقتفى أثرهما وحاول أن

يتخلص من النعاس الذي أثقل خطاه. كان الرجلان يتناوبان على السير في المقدمة كل ساعة، فكان الذي يحل في الموقع الثاني يلتفت خلفه بانتظام ليتأكد أنه لا يزال معهما. وعندما نصبوا مخيما بسيطا في الغابة عند المساء نام حالما جلس، ثم استيقظ ليجد جمعة يمسك بجزائه ويتحسس قدميه الحافيتين بحثا عن التقرحات. كان أبوه قد غطاه بمعطفه وجلس بجانبه ومعه قطعة باردة من اللحم المطبوخ وقطعتان من البسكويت. قدم له زجاجة من الماء والشاي البارد.

«عليه أن يتعشى، يا ديثي»، قال أبوه^(٧٣)، «قدماك على ما يرام، مثل قدمي جمعة تماما. كل هذه على مهل واشرب الشاي ثم عد إلى النوم. ليست لدينا أي مشكلة».

«أنا آسف إن كنت ناعسا».

«لقد كنت أنت وكيبو تصطادان وتسيران طوال ليلة البارحة، فلم لا تتعس؟ كل قليلا من اللحم إن شئت».

«لست جائعا».

«حسن. لا خوف علينا لثلاثة أيام. سنجد ماء مرة أخرى غدا. هناك كثير من الينابيع التي تتحدر من الجبل».

«إلى أين يتجه؟»^(٧٤).

«يعتقد جمعة أنه يعلم وجهته».

«أليس هذا بالأمر السيئ؟».

«ليس إلى ذلك الحد، يا ديثي».

«سأعود للنوم»، قال ديثي. «لست في حاجة إلى معطفك».

(٧٣) الإشارة هنا إلى الفيل الذي يتبعون أثره [المترجم].

(٧٤) مرة أخرى الإشارة هنا إلى الفيل [المترجم].

«أنا وجمعة لا بأس علينا»، قال أبوه. «أنا دائماً أنام دافئاً كما تعلم».

نام ديقث حتى قبل أن يتمنى له أبوه ليلة سعيدة. ثم استيقظ مرة وضوء القمر يسطع على وجهه، فخطر في باله الفيل وتخيله واقفاً في الغابة يحرك أذنيه الهائلتين، مطأطئ الرأس بفعل ثقل نابيه. ظن ديقث حينها أن الخواء الذي أحس به وهو يتذكر الفيل كان بسبب الجوع الذي أيقظه من نومه. لكنه لم يكن كذلك، إذ اكتشف ذلك في الأيام الثلاثة التالية.

كان اليوم التالي سيئاً جداً لأنه أدرك وقبل انتصاف النهار بكثير أن الحاجة إلى النوم ليست وحدها ما يفرق بين الصبيان والرجال. في الساعات الثلاث الأولى كان أكثر نشاطاً منهما، فطلب من جمعة أن يعطيه البندقية ليحملها لكن جمعة هز رأسه. لم يبتسم مع أنه كان دائماً صديق ديقث المفضل وهو الذي علمه الصيد. قال ديقث في سره، لقد أعطاني إياها البارحة مع أن حالي اليوم أفضل مما كنت حينها. وكذلك حاله هو، لكنه بحلول الساعة العاشرة أدرك أن هذا اليوم سيكون سيئاً، بل سيكون أسوأ مما قبله.

كان من السخف أن يظن أن في إمكانه أن يتتبع الأثر مع أبيه أو يقاتل معه^(٧٥)، لقد أدرك أيضاً أن الأمر لا علاقة له بكونهما رجلين. لقد كانا صيادين محترفين، فعرف الآن لماذا رفض جمعة أن يضيع عليه ابتسامة. كانا يعرفان كل ما يقوم

(٧٥) تحتل عبارة fight with him في الأصل معنى آخر، وهو «يتقاتل معه»، وسياس القصة يحتمل هذين المعنيين. فربما قصد همنغواي أن ديقث جاء مع أبيه ليقاتل الفيل، أو أنه الآن تولدت لديه رغبة مفاجئة لمقاتلة أبيه بدلا من الفيل كما يتضح لاحقا في القصة [المترجم].

به الفيل، ويشيران إلى آثاره فيما بينهما من دون كلام، وعندما أصبح تتبع أثره عسيرا سلم والده الأمر إلى جمعة. وعندما توقفوا عند أحد الجداول للتزود بالماء، قال له أبوه: «كل ما عليك هو أن تصمد حتى ينقضي هذا اليوم، يا ديثي». وبعد أن تجاوزوا الريف الوعر وراحوا يصعدون باتجاه الغابة، انحرفت آثار الفيل نحو اليمين على درب قديم تسلكه الفيلة. رأى والده وجمعة يتحدثان وعندما لحق بهما راح جمعة يحيل ناظره بين الطريق التي خلفوها وراءهم وبين مجموعة من التلال الصخرية البعيدة في الريف اليابس، وبدا كأنه يتخذ من هذه نقطة ارتكاز بالمغايرة مع ثلاث قمم لتلال زرقاء بعيدة تلوح في الأفق.

«جمعة يعرف الآن إلى أين يتجه»، قال له أبوه شارحا. «كان يظن من قبل أنه يعرف لكنه أوصلنا إلى هذا الذي نحن فيه». ثم التفت إلى السوراء نحو الريف الذي عبروه طوال اليوم. «لا بأس علينا من الوجهة التي يتخذها الآن، لكن علينا أن نتسلق».

وظلوا يتسلقون حتى حلول الظلام، وبعدها نصبوا مخيما بسيطا. وقبل غروب الشمس قتل ديثي طائري دراج بمقلعه من سرب صغير عبر الدرب الذي كانوا يسرون عليه. كانت الطيور قد أتت درب الفيل القديم لتتمرغ في التراب، وكانت تتبختر بتأنق، ممثلة الجسم. قصمت الحصاة ظهر أحدها فراح يقفز وينقلب وجناحاه يخفقان فتقدم إليه طائر آخر لينقره، وعندها وضع ديثي حصاة أخرى في مقلعه وأطلقها نحو الطائر الثاني فأصابته أضلاعه. ولما ركض ليمسك به طارت الطيور الأخرى محلقة. التفت جمعة نحو السوراء وابتمسم هذه

المرّة، والتقط ديثد الطائرين، وكانا دافئين، سمينين، وناعمي
الريش، فخبط رأسيهما على نصل سكين الصيد التي يحملها.
وبعدما نصبوا مخيمهم للمبيت، قال أبوه: «لم أر في حياتي
هذا النوع من الدراج على هذا الارتفاع. لقد أبلت بلاء حسنا
في إصابة طائرين بحجر واحد».

شك جمعة عودا في الطائرين وشواهما على جمر نار خفيفة.
تناول أبوه جرعة من المشروب والماء من غطاء جرتة بينما كانا
يستلقيان وراح يراقب جمعة وهو يشوي الطائرين. ناول جمعة
كلا منهما الصدر والقلب واحتفظ لنفسه بالرقبتين والظهرين
والأرجل.

«لقد اختلفت الأمور كثيرا، يا ديثي»، قال له أبوه. «لقد وفرت
الآن علينا شيئا من مؤونتنا».

«كم نبعد عنه؟»

«إننا على مقربة منه»، قال أبوه. «الأمير يعتمد على ما إذا
كان سيتابع مسيره بعد طلوع القمر. وهذا سيتأخر ساعة الليلة
وساعتين عما وجدته».

«لماذا يعتقد جمعة أنه يعلم وجهته؟»

«لأن جمعة جرحه وقتل «عسكريه» على مقربة من هنا»^(٧٦).

«متى؟»

«قبل خمس سنوات، كما يقول. وهذا قد يعني أي مدة زمنية.
عندما كنت لا تزال «توتو» كما يقول»^(٧٧).

(٧٦) «عسكري»: لفظة سواحلية ذات أصل عربي وتعني «حارس» أو «رفيق» [المترجم].

(٧٧) «توتو»: كلمة سواحلية وتعني «طفل» أو «حيوان صغير» [المترجم].

«وهل ظل الفيل وحيدا منذ ذلك الحين؟».

«هذا ما يقوله. لم يره، لكنه سمع عنه».

«كم يبلغ حجمه، على حد قوله؟».

«نحو المائتين^(٧٨)، أكبر من أي شيء رأيته في حياتي. يقول

إنه لم يوجد في الماضي إلا فيل واحد أكبر منه وهو من هذه النواحي أيضا».

«يجدر بي أن أنام، وآمل أن أكون غدا في حال أفضل»، قال

ديقد.

«لقد كنت رائعا اليوم»، قال له أبوه. «أنا فخور بك، وكذلك

جمعة».

وعندما استيقظ ليلا بعد طلوع القمر أيقن أنهما لم يكونا فخورين به إلا لمهارته في قتل الطائرين. كان قد عثر على الفيل ليلا ثم تبعه ليتأكد من وجود كلا نابيه، فعاد لبحث عن الرجلين ويدلهما على آثاره. كان ديقد يعلم أنهما فخوران بصنيعه هذا. لكن ما إن بدأت عملية اقتفاء الأثر المميّنة حتى أصبح عديم النفع، بل خطرا على نجاحهما، تماما كما كان كيبو خطرا عليه عندما اقترب من الفيل في تلك الليلة، وكان يعلم أنهما ندمتا لأنهما لم يرجعاه عندما كان ذلك ممكنا. كان كل من نابي الفيل يزن مائتي رطل. ومنذ أن تجاوز ناباه حجمهما الطبيعي صار الفيل مطلوبا للصيادين، والآن سيقتله الثلاثة من أجلهما.

(٧٨) من الواضح أن والد ديقد لم يجب عن سؤال ابنه عن حجم الفيل، لكن بسبب اهتمامه بالمعاج فقد أعطى ابنه الوزن التقريبي لكل ناب من نابي الفيل كما يتضح من الأسطر التالية [المترجم].

لقد أيقن ديقث الآن أنهم سيقتلونه لأنه، أي ديقث، صمد طوال النهار حتى بعد أن هذه المسير بحلول الظهيرة. إذن، من الأرجح أنهما فخوران به من أجل هذا. لكنه لم يأت بشيء يفيد عملية الصيد، ولا شك في أن غيابه خير من وجوده معهما. لقد تمنى عدة مرات أثناء النهار لو أنه لم يغدر بالفيل، وتذكر أنه بحلول العصر تمنى لو لم يره قط. لكنه الآن، وهو مستيقظ على ضوء القمر، يعرف أن هذا غير صحيح.

في صباح اليوم التالي راحوا يتتبعون أثر الفيل على درب قديم ضيق بال تسلكه الفيلة عبر الغابة. بدا الدرب كأن الفيلة سلكته منذ أن بردت الحمم البركانية المنحدرة من الجبل وبدأت الأشجار تتناول وتتكاثر.

كان جمعة واثقا جدا وكانوا يسيرون بسرعة. كان هو وأبوه شديدي الثقة بنفسيهما، وكان السير على درب الفيلة شديد السهولة إلى درجة أن جمعة أعطاه البندقية ليحملها بينما كانوا يشقون طريقهم عبر ضوء الغابة المتقطع. بعد ذلك ضلوا الطريق بين أكوام من الروث الطري يهب منها دخان وبين آثار مستديرة مسطحة لقطع من الفيلة انضمت إلى درب الفيلة من الغابة الكثيفة على يسار الطريق. أخذ جمعة البندقية من ديقث غاضبا. لم يلحقوا بالقطع أو يحيطوا به إلا عند العصر، حيث بدت لهم كتله الرمادية من خلال الأشجار وراقبوا آذانها الهائلة تتحرك وخراطيمها الباحثة تلتف ثم تنحل، ولا يسمعون إلا تكسر الأغصان والأشجار، ورعد بطون الفيلة المفرقة وارتطام روثها بالأرض.

وأخيرا وجدوا أثر الفيل العجوز ينعطف نحو درب أصغر للفيلة، عندها نظر جمعة إلى والد ديقد وكشر عن أنياب كالمبرد، فأوماً أبوه برأسه. بدا كأن بينهما سرا قدرا، تماما كما وجدتهما في تلك الليلة عند الشامبا.

وسرعان ما اقتربوا من السر. كان السر يكمن على يمين الدرب في الغابة وكانت آثار الفيل العجوز تؤدي إليه. كان السر جمجمة يبلغ ارتفاعها إلى صدر ديقد وقد ابيضت من الشمس والمطر. كان في جبين الجمجمة غور عميق، وكان جسر يمتد من بين محجري عينيها البيضاون ثم يتسع تدريجيا حتى ينتهي إلى حفرتين فارغتين مهشمتين نتيجة انتزاع نابيه.

أشار جمعة إلى المكان الذي يقف فيه الفيل الذي كانوا يتبعونه، وكان هذا يرنو إلى الجمجمة التي أزاحها قليلا بخرطومهم عن مكانها، وكان ناباه يلامسان الأرض بجانبها. بين لديقد أثر الطلقة الوحيدة في الغور الكبير في عظم الجمجمة الأبيض ثم الثقوب الأربعة التي تتراص في العظم المحيط بالأذن. ابتسم لديقد وأبيه ثم تناول طلقة مصمتة من جيبه ثم حشر رصاصتها في الثقب الكائن في عظم الجمجمة.

«هنا جرح جمعة الفيل الكبير»، قال أبوه. «وقد كان هذا عسكريه. بل صديقه في الواقع لأنه كان أيضا فيلا كبيرا. هجم على جمعة فأرداه قتيلا بطلقة في أذنه».

راح جمعة يشير إلى العظام المتناثرة وإلى آثار الفيل الذي كان يتجول بينها. سر جمعة وأبو ديقد بما وجدا.

«في رأيك، كم أمضى هو وصديقه من العمر معاً؟». سأل ديثد أباه.

«ليس لديّ أدنى فكرة»، رد أبوه. «اسأل جمعة».

«اسأله أنت من فضلك».

تحدث أبوه مع جمعة، فنظر جمعة إلى ديثد وضحك.

«ربما أربعة أو خمسة أضعاف عمرك وفق قوله»، قال أبوه.

«إنه لا يعرف أو في الحقيقة لا يهتم الأمر».

ولكنه يهتمي أنا، قال ديثد في سره. لقد رأيته في ضوء

القمر وكان وحيداً، لكن كيبو كان معي. وكنت مع كيبو. لم يكن

الفيل يسبب أي أذى، وهاقد طاردناه إلى حيث جاء ليرى صديقه

الميت وهانحن مقدمون على قتله. أنا السبب. لقد غدرت به.

في هذه الأثناء كان جمعة قد حل لغز الأثر، فأوماً إلى والده

وانطلقوا.

إن أبي لا يحتاج إلى قتل الفيلة لكي يعيش، قال ديثد في

سره. وما كان لجمعة أن يجده لو لم أره. لقد ظفر به ذات مرة

وكل ما استطاعه هو أن يجرحه ويقتل صديقه. لقد وجدته أنا

وكيبو وما كان علي أن أخبرهما عنه بل كان يجب أن أحتفظ

بأمره سرا كي يبقى لي دائماً، وأن أتركهما ثملين. لقد كان جمعة

ثملاً جداً إلى درجة أننا لم نستطع إيقاظه. من الآن فصاعداً

سأحتفظ بكل شيء سرا. لن أخبرهما شيئاً قط. إن قتلاه فإن

جمعة سيلهو بثمان حصته من العاج أو يكتفي بشراء زوجة ملعونة

أخرى. لماذا لم تساعد الفيل عند المقدرة؟ كان كل ما عليك هو

ألا تستمر في اليوم الثاني. لا، فما كان لهذا أن يوقفهما.

كان جمعة سيتابع البحث. ما كان عليك أن تخبرهما. أبدا، أبدا،
أبدا. حاول ألا تنسى هذا. لا تقل شيئا لأي كان. لا تخبر أيا كان
أي شيء مرة أخرى.

كان أبوه ينتظر أن يلحق بهما، فقال له برفق: «إنه يستريح
هنا. لم يعد يرتحل كما كان. سنظفر به قريبا».

«اللعة على صيد الفيلة»، قال ديقث بهدوء شديد.

«ماذا قلت؟».

«اللعة على صيد الفيلة»، قال ديقث بصوت خفيض.

«إياك أن تفسد صيدنا»، قال له أبوه وهو ينظر إليه نظرة
خالية من أي تعبير.

لقد عرفت الآن أمرا واحدا، قال ديقث في نفسه. إنه ليس
غيبا. إنه يعلم الآن ما يدور في خاطري، ولن يثق بي بعد اليوم.
لا بأس. فأنا لا أريده أن يثق بي لأنني بعد اليوم لن أخبره أو
أخبر غيره أي شيء. أي شيء إطلاقا. أبدا، أبدا، أبدا.

في الصباح كان على سفح الجبل البعيد مرة أخرى. لم يعد الفيل
يرتحل كما كان، بل كان يسير على غير هدى، أو يقتات بين الحين
والآخر، وكان ديقث قد أدرك من قبل أنهم كانوا يقتربون منه.

حاول أن يتذكر كيف كان يشعر. لم تربطه بالفيل رابطة
المحبة بعد. عليه أن يتذكر هذا. لقد انتابه شعور بالأسى ناجم
عن الإرهاق، وهذا ولد لديه إدراكا لمعنى الهرم. فنظرا إلى صغر
سنه، أدرك ماذا يعني الهرم.

لقد اشتاق لكيبو، وعندما فكر كيف قتل جمعة صديق
الفيل انقلب ضده وصار الفيل أخاه. لقد أدرك عندئذ معنى

أن يرى الفيل في ضوء القمر أو يتبعه أو يقترب منه في تلك الفسحة ويشاهد ناييه العظيمين. لكنه لم يدرك أنه لن يطيب له شيء بعد ذلك أبداً. لقد أدرك الآن أنهما سيقتلان الفيل ولن يستطيع منعهما من ذلك. لقد غدر بالفيل حين عاد إلى الشامبا ليخبرهما. خطر له خاطر أنهما لن يترددا في قتله أو قتل كيبو لو كان فيهما عاج، لكنه كان يعرف أن هذا غير صحيح.

ربما يتجه الفيل الآن إلى مسقط رأسه وسيقتلانه هناك. وإن تم لهما ذلك، فسيكون صنيعهما لا شائبة عليه. إن بودهما أن يقتلاه حيث قتل صديقه، فهذا سيكون مصدر بهجة عظيمة لهما. أجل، إن هذا سيسر قاتلي الأصدقاء اللعينين.

لقد بلغوا الآن حافة الغطاء الكثيف وكان الفيل أمامهم على مسافة قريبة. صار في إمكان ديقْد أن يشتم رائحته، وكانوا جميعاً يسمعون طقطقة الأغصان التي كان ينتزعها من الأشجار. وضع أبو ديقْد يده على كتفه ليرجعه إلى الوراء ويجعله ينتظر في الخارج ثم أخرج من جيبه قبضة كبيرة من الرماد وقذفها في الهواء. وبصعوبة مال الرماد باتجاههم وهو يسقط فأوماً أبوه إلى جمعة برأسه ثم انحنى ليتبعه تحت الغطاء الكثيف. راح ديقْد يراقب ظهريهما ومؤخريهما وهي تلوح أمام ناظريه ثم تتوارى. لم يكن في استطاعته أن يسمعهما يتحركان.

تسمر ديقْد في مكانه وراح ينصت للفيل وهو يركى. كان في إمكانه أن يشم رائحته القوية تماماً كما شمها في تلك الليلة المقمرة عندما اقترب منه كثيراً ورأى ناييه الرائعين. وبينما هو متسمر في مكانه ساد السكون ولم يعد في إمكانه أن يشم

رائحة الفيل. ثم انطلق صراخ حاد وفرقة تلاهما إطلاق نار من البندقية ذات العيار ٣٠٣، أعقبه دوي مزلز من بندقية أبيه ذات العيار ٤٥٠، ثم توالى الفرقة وأصوات الارتطام يتردد صداها من بعيد، فالتجأ إلى الأجمة الكثيفة فوجد جمعة يرتعد والدم يجلل وجهه، بينما كان والده ممتنع الوجه، غاضبا.

«لقد هجم على جمعة وأرداه أرضا»، قال أبوه. «لقد أصابه جمعة في رأسه».

«وأيّن أصبته أنت؟»

«حيث استطعت»، قال أبوه. «اتبع أثر الدم».

كان الدم في كل مكان. تدفق من الفيل دمان: واحد عال بارتفاع رأس ديقد رشق الجذوع والأوراق والكرمة بسائل قان، وآخر أخفض منه بكثير وكان داكن اللون، كرية الرائحة من جوف الفيل.

«لقد أصيب في رثته وجوفه»، قال أبوه. «سنجده في الأسفل أو ثابتا في مكانه، أي وحق الجحيم».

لقد وجدوه مستقرا في مكانه وقد بلغ منه العذاب واليأس مبلغا أقعده عن الحركة. لقد شق طريقه بين الأشجار الكثيفة حيث كان يرعى ثم عبر دربا في فسحة في الغابة، فراح ديقد وأبوه يركضان بمحاذاة الطريق المرشوش بالدم الغزير. ثم غاص الفيل بين غابة من الأشجار الكثيفة، فرآه ديقد أمامهما مثل كتلة رمادية هائلة، يستند إلى جذع شجرة. لم يستطع ديقد أن يرى سوى مؤخرته، فتقدم أبوه وسار هو وراءه حتى صارا بمحاذاة الفيل كأنهما يطوفان بسفينة، فرأى ديقد الدم يسح من خاصرتيه

على جنبه، ومن ثم رفع أبوه بندقيته وأطلق النار فالتوى عنق الفيل وتهاوى ناباه بتثاقل بطيء وهو يرمقهما، وعندما أطلق أبوه ثانية راح الفيل يتهاوى كشجرة مفلوقة ترتمي بسرعة نحوهما. لكنه لم يمت بعد. لقد كان راسيا، والآن صار طريحا في الأرض مكسور الكتف. لم يأت بحركة، لكن عينه كانت نابضة بالحياة وتتنظر إلى ديق. كانت له أهداب طويلة جدا، وكانت عينه أكثر شيء ينبض بالحياة رآه ديق في حياته.

«أطلق عليه النار في دهليز أذنه بالبندقية عيار ٣٠٢»، قال أبوه. «هيا».

«أطلق عليه بنفسك»، قال له ديق.

جاء جمعة مجللا بدمه وكان يعرج، وجلد جبينه مسلوخ يتدلى فوق عينه اليسرى، وقد كشط الجلد عن عظم أنفه، ومزقت إحدى أذنيه. انتزع البندقية من ديق من دون أن ينطق بكلمة، ثم أقحم فوهة السبطانة تقريبا في دهليز الأذن، وأطلق طلقتين، وكان يزلج الرتاج إلى الأمام بحركة عصبية غاضبة. اتسعت عين الفيل مع إطلاق الطلقة الأولى، فداهمتها غشاوة الموت في الحال، وراح الدم يسح من أذنيه وينهمر في تيارين ناصعين على إهابه الرمادي المتجدد. كان دما مختلفا لونه وخطر لديق أن يتذكر هذا فعل، لكنه لم يفده في شيء قط. لقد جرد الفيل الآن من هيئته وجلاله وجماله وأصبح جثة هامة متجعدة.

«حسن، يا ديق، لقد نلنا منه الآن والفضل لجهودك أنت»، قال له أبوه. «أما الآن فعلينا أن نشعل نارا كي أعالج جمعة. تعال إلى هنا أيها القصير. لن يفسد ذانك النابان».

جاءه جمعة مكشرا عن أسنانه وقد جلب معه ذيل الفيل الذي كان بلا شعر إطلاقا. فعل الرجلان مزحة قذرة بالذيل ثم راح أبوه يتكلم سريعا بالسواحلية. كم نبعد عن الماء؟ إلى أين ستذهب لتأتي بأناس يخرجون هذين النابين من هنا؟ كيف حالك، أيها العجوز الرذيل؟ ماذا كسرت؟

ولما كان أبوه يعرف الأجوبة، فقد قال له: «سنعود أنا وأنت لتأتي بالصرر من حيث تركناها. يستطيع جمعة أن يجمع الحطب ويشعل النار. العدة الطبية موجودة في صرتي. علينا أن نجلب الصرر قبل حلول الظلام. لن تتلوث جروحنا. فهي ليست جروح مخالب. هيا بنا».

وبينما كانوا يجلسون بقرب النار في ذلك المساء نظر ديفد إلى جمعة ووجهه المدروز بالقطب وأضلاعه المكسورة، فتساءل إن كان الفيل قد عرفه حين حاول قتله. وتمنى أن يكون قد فعل. لقد صار الفيل الآن بطلا في نظره تماما كما كان أبوه بطلا لوقت طويل، فخطر له أنه لم يكن يعتقد أن الفيل قادر على فعل شيء نظرا إلى هرمه وإرهاقه. لكنه كاد يقتل جمعة. لم يبد لي أنه يريد قتلي. بل كان حزينا كحزني. لقد زار صديقه يوم مصرعه.

تذكر ديفد كيف فقد الفيل كل هيئته حالما داهمت عينه غشاوة الموت وكيف عندما عاد مع أبيه يحملان الصرر وجدا الفيل متورما برغم برودة المساء. لم يعد هناك فيل حقيقي، بل جثة متورمة رمادية مخددة ونابان مرقشان بالبني والأصفر كانا سبب هلاكه. كان النابان ملطخين بدم جاف فقشر شيئا منه

بظفر إبهامه كما يكشط قطعة يابسة من الشمع ووضعه في جيب قميصه. كان هذا كل ما أخذه من الفيل، إضافة إلى معرفة أولية لمعنى الوحدة.

وبعد المجزرة حاول أبوه أن يحدثه في تلك الليلة بقرب النار، فقال: «إنه مجرم كما تعلم يا ديفي. يقول جمعة لا أحد يعرف عدد الناس الذين قتلهم».

«كانوا جميعا يحاولون قتله، أليس كذلك؟».

«هذا أمر طبيعى نظرا إلى النابين اللذين لديه»، قال أبوه.

«إذن، كيف يكون مجرما؟».

«كما تشاء»، قال أبوه. «يؤسفني أنه اختلطت عليك الأمور

بشأنه».

«ليته قتل جمعة»، قال ديفد.

«أعتقد أنك تتطرف قليلا»، قال أبوه. «إن جمعة صديقك،

كما تعلم».

«لم يعد كذلك».

«لا داعي لأن تخبره بهذا».

«إنه يعلم»، قال ديفد.

«أعتقد أنك تسيء الظن به»، قال أبوه، وتوقفا عند ذلك

الحد.

وأخيرا عادوا سالمين مع النابين بعد كل ما جرى. أُسند النابان على جدار البيت الطيني حيث كان طرفاهما المديبان يتلامسان، وقد كان النابان طويلين وجليظين إلى درجة أن الناس لم يصدقوا حتى عندما لمسوهما، ولم يستطع أحد، حتى أبوه، أن يصل إلى

أعلى المنحنى حيث يلتقي طرفاهما المديبان. وهنا أصبح هو وأبوه وجمعة أبطالا، وكيبو كلبا بطلا، والرجال الذين حملوا النابين صاروا أبطالا ينتشون بالمشروب وسينتشون أكثر، فقال له أبوه، «ألا تريد الصلح، يا ديثي؟».

«لا بأس»، قال لأبيه لأنه كان يدرك أن هذه بداية الصمت الذي كان قد قرره سلفا.

«يسرني هذا كثيرا»، قال أبوه. «فهذا أفضل وأكثر بساطة».

ثم جلسوا على كراسي للشيخ تحت ظل شجرة التين ينظرون إلى النابين المسندين إلى جدار الكوخ، ويشربون الشراب بكؤوس من يقطين جاءت بها فتاة وأخوها الأصغر، خادم الأبطال، الذي جلس على التراب بجانب كلب بطل صاحبه، بطل يمسهك بديك عجوز رُقي إلى مرتبة صفي الأبطال من الديوك. ظلوا يجلسون هناك ويشربون الشراب بينما بدأ قرع على الطبل الكبير وأخذ النفوما يتصاعد نحو الذروة^(٧٩).

(٧٩) «نفوما»: لفظة سواحلية، محرفة على الأرجح عن كلمة «نغم» العربية، لكنها تعني إما «طبل» أو «رقص» [المترجم].

رحلة قطار^(٨٠) [١٩٨٧]

لمسني أبي فاستيقظت. كان يقف إلى جانب السرير في الظلام. أحسست بيده تلامسني فاستيقظ رأسي، ورأيت أشياء وشعرت بها لكن جسمي ظل نائما.

«جمي، هل أنت مستيقظ؟». سألتني.
«نعم».

«اللبس ملابذك، إذن».

«حسن».

ظل واقفا، وأردت أن أتحرك لكنني في الحقيقة كنت نائما.
«اللبس ملابذك، يا جمي».

«حسن»، قلت له لكنني بقيت بلا حراك. لكن النوم غادرني فغادرت السرير.

«أحسننت، يا بني»، قال لي أبي. وقفت على السجادة وبحثت عن ملابسي عند قدم السرير.

«إنها على الكرسي»، قال أبي. «اللبس حذاءك وجواربك أيضا». ثم خرج من الغرفة. كان الجو باردا، مما عقد عملية اللبس، إذ إنني لم ألبس حذائي أو جواربي طوال الصيف، ولم أكن مسرورا بلبسهما. عاد أبي إلى الغرفة ثم جلس على السرير.
«هل يوجعك الحذاء؟».

(٨٠) تمثل قصة «رحلة قطار» الفصول الأربعة الأولى من رواية لم يكملها همنغواي ولم يضع لها عنوانا، وقد نشرت لأول مرة العام ١٩٨٧، أي بعد ستة وعشرين عاما على وفاة المؤلف [الناشر].

«بل يقرصني».

«إذا كان الحذاء يقرصك، فالبسه».

«هذا ما أفعله».

«سنشتري حذاء آخر»، قال له. «لم يكن ما قلته مجرد مبدأ،

يا جمبي. إنه مثل»^(٨١).

«لقد فهمت».

«إنه مثل قولنا: اثنان ضد واحد متعة للزنجي. فهذا مثل

أيضا».

«إنه يعجبني أكثر من ذلك المثل عن الحذاء»، قلت له.

«لقد أعجبك لأنه غير صحيح»، قال لي. «إن الأمثال الممتعة

ليست صحيحة». كان الجو باردا، فربطت فردة حذائي الأخرى

وانتهيت من اللبس.

«هل تريد حذاء بأزرار؟». سألني أبي.

«لا يهمني».

«لك هذا إن شئت»، قال لي. «فلكل إنسان أن يشتري حذاء

بأزرار إن شاء ذلك».

«أنا جاهز تماما».

«إلى أين سنذهب؟».

«إلى مكان بعيد».

«إلى أين؟».

«إلى كندا».

(٨١) في الواقع، ما قاله أبو جمبي هو خلط بين مثلين: الأول، «إذا كان الحذاء يناسبك، فالبسه»، والثاني، «اعرف أين يقرصك الحذاء». وهذا الأخير يعني أن على المرء أن يتعلم صعاب الأمور من تجاربه هو [المترجم].

«وسنذهب إلى هناك أيضا»، قال لي. ذهبنا إلى المطبخ. كانت جميع مصاريع النوافذ مغلقة وكان هناك مصباح على الطاولة. في وسط الغرفة كانت هناك حقيبة ملابس، وحقيبة من نسيج الدفل^(٨٢)، وحقيبتنا ظهر. «اجلس إلى الطاولة»، قال لي أبي. جلب المقلاة وركوة القهوة من الموقد وجلس بجانبني ثم أكلنا شرائح من اللحم وشربنا قهوة مضافا إليها قشدة مركزة. «كل ما تستطيع». «لقد شبعت».

«كل تلك البيضة أيضا». حمل البيضة المتبقية في المقلاة بملقط الفطائر ووضعها على طبقي. كانت أطراف البيضة مقرمشة من دهن اللحم. أكلتها ثم أجلت ناظري في المطبخ. فما دمت سأرتحل فقد أردت أن أتذكره وأودعه. كان الموقد الموجود في الزاوية صدئا، وكان نصف غطاء خزان الماء الساخن منزوعا. وفوق الموقد كانت هناك ممسحة صحون ذات مقبض خشبي عالقة في حرف أحد روافد السقف الخشبية. كان أبي قد قذف بها خفasha ذات مساء. ثم تركها بعد ذلك في مكانها كي تذكره بشراء واحدة أخرى، ثم بعد ذلك لتذكره، وفق ظني، بالخفاش. أمسكت بالخفاش بوساطة شبكة لصيد الأسماك ثم وضعت في صندوق وغطيته بقطعة من المنخل لبعض الوقت. كانت عيناه صغيرتين وأسنانه صغيرة، وظل ملتقا على نفسه في الصندوق. أخذناه إلى شاطئ البحيرة في الظلام وأطلقنا سراحه، فطار فوق البحيرة، وكان طيرانه بطيئا ومتعثرا، ثم انحدر نحو الماء

(٨٢) الدفل: نسيج صوفي غليظ الزثير [المترجم].

ثم حلق مرتفعاً، وقفل راجعاً فوقنا وعاد إلى الأشجار المظلمة. كان في المطبخ طاولتان: واحدة للأكل، والثانية لغسل الصحون. وكانت كلتاها مغطاة بقماش زيتي. كان هناك سطل من صفيح نحمل به الماء من البحيرة ونملاً به الخزان، وسطل من الفرانيت لماء البئر. وهناك مناشف دوارة معلقة على باب غرفة المؤونة ومناشف للصحون معلقة على حمالة فوق الموقد. وكانت المكسة تنصب في الزاوية. كان صندوق الحطب نصف مملوء وكانت جميع القدور معلقة على الجدار.

أجلت ناظري في كل أنحاء المطبخ لأتذكره، فإذا بي أهييم به أيما هييم.

«حسن، هل تعتقد أنك ستتذكره؟». سألني أبي.

«أعتقد ذلك».

«وماذا ستتذكر؟».

«كل المتع التي نلناها».

«إذن ليس فقط ملء الصندوق بالحطب وانتشال الماء؟».

«لم يكن ذلك عسيراً».

«هذا صحيح، لم يكن عسيراً»، قال أبي. «ألا تشعر بالأسى

لرحيلنا؟».

«ليس إذا كنا سنذهب إلى كندا».

«لكننا لن نبقى هناك».

«ألن نبقى هناك بعض الوقت؟».

«ليس لوقت طويل».

«إلى أين سنذهب إذن؟».

«سنرى».

«لا يهمنى أين نذهب»، قلت له.

«حاول أن تظل دوما هكذا»، قال أبى. أشعل سيجارة ثم قدم لي العلبة. «ألا تدخن؟».

«لا».

«أحسن»، قال لي. «والآن اخرج واصعد السلم وضع السطل على المدخنة، بينما أنا أقفل الأبواب».

خرجت، وكان الظلام لا يزال يخيم لكن الجو بدأ يتكشف عند طرف التلال. كان السلم يستند إلى السطح، ووجدت سطل التوت القديم بجانب مستودع الحطب، ثم تسلقت السلم. شعرت وأنا أصعد درجات السلم بأن نعل حذائي يتقلقل تحتي وينزلق. وضعت السطل على نهاية أنبوب الموقد لمنع المطر والسناجب وسواها من النزول فيه. تطلعت من أعلى السطح إلى البحيرة من خلال الأشجار. ثم تطلعت من جهة السطح الأخرى، فرأيت سطح مستودع الحطب، والسياح، والتلال. أصبح الجو الآن أكثر تكشفا من قبل عندما صعدت السلم، وكان الطقس باردا والصباح في أوله. تطلعت إلى الأشجار والبحيرة مرة أخرى لأتذكرها، ثم أجلت ناظري في كل الاتجاهات: إلى التلال في الخلف، والغابات من جهة المنزل الأخرى، ثم مرة أخرى إلى سطح مستودع الحطب، فأحببتها جميعا، مستودع الحطب والسياح والتلال والغابات، وتمنيت لو أننا كنا ذاهبين في رحلة لصيد السمك لا مرتحلين. سمعت الباب يغلَق وأبى يخرج كل الحقائق ويضعها على الأرض.

ثم أغلق الباب. نزلت السلم.

«جمي»، ناداني أبي.

«نعم».

«كيف هي الأمور عندك؟».

«إني نازل».

«بل اصعد. أريد أن أصعد للحظة»، قال لي ثم صعد ببطء

وحذر شديد. أجال ناظريه تماما كما فعلت. «وأنا لا أريد أن

نذهب»، قال لي.

«لماذا علينا أن نذهب؟».

«لا أعلم، لكنه واجب علينا»، قال لي.

نزلنا السلم ثم وضعه أبي في مستودع الحطب. حملنا

أغراضنا إلى رصيف القوارب. كان القارب الآلي راسيا بجانب

الرصيف. كان الندى على الغطاء المصنوع من القماش الزيتي،

وعلى المحرك، والمقاعد. نزع الغطاء وجففت المقاعد بخرقه

بالية. أنزل أبي الحقائق من الرصيف إلى مؤخرة القارب. حلت

حبلتي المقدمة والمؤخرة، وعدت إلى القارب وأمسكت بالرصيف.

ملأ أبي المحرك بوساطة صنبور صغير، وهز المقود مرتين لكي

يصل الوقود إلى الأسطوانة، ثم أدار ذراع عجلة التشغيل، فاشتغل

المحرك. ظللت أشد القارب إلى الرصيف بوساطة أنشودة في

الحبل الملفوف حول إحدى الركائز. راحت مروحة الدفع تضرب

الماء بعنف، فابتعد القارب عن الرصيف، مخلفا وراءه دوامات من

الماء بين الركائز.

«حرره يا جمي»، قال أبي، فقدفت الحبل وانطلقنا مبتعدين

عن الرصيف. رأيت الكوخ ونوافذه الموصدة من خلال الأشجار. كنا نتجه في خط يتعامد مع الرصيف، فصار الرصيف يضيق بينما الشريط الساحلي يتسع.

«تول القيادة»، قال لي أبي، فأخذت المقود وأدريت القارب باتجاه الرأس البحري. التفتُ إلى الوراء ورأيت الشاطئ والرصيف وبيت القوارب وأجمة من أشجار بلسم جلعاد^(٨٣)، ولما تجاوزنا الفسحة الخالية من الأشجار شاهدنا الممر الضيق والجدول الصغير الذي يصب في البحيرة، ثم الضفة العالية التي تحفها أشجار الشمروخ، ثم ساحل الرأس البحري المحاط بالغابات، فكان علي أن أتيقظ للحاجز الرملي الذي سيأتي بعد الرأس البحري بكثير. كان الماء عميقا حتى طرف الحاجز الرملي، لذلك سرت بمحاذاة حافة القناة ثم استدرت عند نهايتها لما رأيت ضفة القناة تغوص تحت الماء والأعشاب المائية النامية تحت الماء تجذبها مروحة الدفع نحونا. تجاوزنا الرأس البحري، وعندما التفت إلى الوراء وجدت أن الرصيف وبيت القوارب قد اختفيا عن الأنظار، ولم أر سوى الرأس البحري وثلاثة غريان تمشي على الرمال وزند خشبي عتيق نصفه مغطى بالرمال، والبحيرة الفسيحة أمامنا. سمعت القطار ثم رأيته قادما. في البداية قدم على شكل منحني طويل، وبدا متناهي الصغر، سريعا، ومجزأ إلى أقسام مترابطة، يسير مع التلال والتلال تسير مع الأشجار خلفه. رأيت نفثة بيضاء تتطلق من المحرك ثم سمعت صفارة تبعتها

(٨٣) بلسم جلعاد: أشجار من الفصيلة البخورية، عطرة الأوراق، والتسمية توراتية فيما يبدو، إذ إن «بلسان جلعاد» ورد ذكره في سفر إرميا مرتين (٢٢: ٨، ٤٦: ١١). وجليعاد منطقة تلال تقع اليوم غرب جبال عجلون في الأردن [الترجم].

نفثة أخرى ثم صفارة أخرى. كان الوقت لا يزال باكرا في الصباح، وكان القطار قادما من الجهة الأخرى لغابة طمراق مستنقعية^(٨٤)، كانت المياه الجارية تحيط بسكة الحديد من كلا جانبيها، وكانت هذه المياه مياه نبع صاف ذات قعر مستنقي بني اللون، وكان السديم يخيم على وسط المستنقع. وكانت الأشجار التي أتت عليها نيران الغابات تبدو رمادية، رفيعة، وميتة في السديم الذي لم يكن ضبابيا. كان الجو في هذا الصباح الباكر باردا. صار القطار الآن على السكة بخط مستقيم، فيقترب أكثر فأكثر، ويصبح أكبر فأكثر. تراجع عن السكة ونظرت ورائي إلى البحيرة ودكاني الخضار وبيوت القوارب والأرصعة الطويلة الممتدة في الماء، ثم إلى الرقعة المرصوفة بالحصى حول البئر الارتوازية القريبة من المحطة حيث كان الماء يتدفق في ضوء الشمس من أنبوب بني تغطيه طبقة رقيقة من الماء. كان الماء يندفق صاخبا في حوض البحيرة، وفي الخلف كانت البحيرة التي يداعبها نسيم هب لتوه، وكان الشاطئ تحف به الغابات، وكان القارب الذي جئنا به مربوطا إلى الرصيف.

توقف القطار، فترجل الجابي وعامل المكابح، بينما ودع أبي فرد كتبيري الذي سيضع قاربنا في بيت القوارب عنده ويعتني به.

«متى ستعود؟»

«لا أعرف، يا فرد»، قال له أبي. «أعطه وجه طلاء في الربيع».

(٨٤) الطمراق: شجرة أمريكية من الفصيلة الصنوبرية [المترجم].

«وداعا، يا جمى»، قال فرد. «اعتن بنفسك».

«وداعا، يا فرد».

صافحنا فرد ثم ركبنا القطار. ركب الجابي في العربة التي أمامنا، ثم التقط عامل المكابح الصندوق الصغير الذي صعدنا عليه، وقفز إلى القطار عندما انطلق. ظل فرد واقفا على رصيف المحطة، وظللت أنا أراقب المحطة وفرد يقف عندها ثم يبتعد، والماء يتدفق من الأنبوب، ثم القضبان الرابطة للسكة، والمستنقع، والمحطة المتضائل حجمها، والبحيرة التي راح شكلها يختلف الآن من هذه الزاوية الجديدة، ثم توارينا عن الأنظار، وعبرنا نهر الدب، ودخلنا في شعب، ولم يعد هناك سوى قضبان الربط وسكة الحديد تتلاشى إلى الخلف وما ينمو من أعشاب النار^(٨٥) النامية بجانب السكة، ولم يعد هناك ما أنظر إليه لأتذكره. لقد بدا كل شيء جديدا الآن وأنا أنظر إليه من رصيف المحطة، وبدأت الغابات لي بحلة جديدة كأني لم أعرفها من قبل. إنها مجرد بحيرة جديدة ولا تشبه بحيرة عشت على شاطئها.

«ستجد كل أنواع الرماد في هذه النواحي»، قال لي أبي.

«أظن أنه يجدر بنا أن ندخل»، قلت له. انتابني شعور غريب وأنا في هذه البلاد الجديدة. أظن أنها في الواقع لا تختلف عن البلاد التي عشنا فيها لكنها لم تولد في ذات الإحساس. أظن أن كل رقعة حراجية مصفرة أوراقها تبدو متشابهة، لكن منظر غابة زان من القطار لا يدخل السرور إلى قلبك، بل يجعلك تشفق إلى الغابات في موطنك. لكنني لم أكن أعرف ذلك حينها. كنت

(٨٥) أعشاب النار: كل ما ينمو من أعشاب بعد الحرائق [المترجم].

أظن أنها لن تختلف عما ألفناه في موطننا إلا من حيث الكثرة، وأنها ستولد في ذات المشاعر، لكنها لم تكن كذلك. لم تربطنا بها أي رابطة. كانت التلال أسوأ من الغابات. قد تبدو كل التلال في مشيغن متشابهة لكنني كنت أنظر من نافذة عربتنا فأرى غابات ومستقعات، ثم نعبر جدولاً رائعاً جداً، ثم نمر بتلال فيها بيت ريفي وغابات خلفها، وكانت التلال هي التلال نفسها لكنها مختلفة، وكان كل شيء مختلفاً قليلاً. أظن، بطبيعة الحال، أن التلال التي تمر بها سكة قطار لا يمكن أن تكون متشابهة. لكن هذا لم يكن مما خطر في بالي. على أي حال، كان يوماً رائعاً من أيام الخريف الأولى. وكان الهواء الداخل من النافذة المفتوحة منعشاً، وشعرت بالجوع بعد قليل. لقد استيقظنا قبل الفجر والآن تجاوزت الساعة الثامنة والنصف. عاد أبي إلى مقعدنا في العربة.

«كيف حالك، يا جيمي؟»

«جائع».

ناولني قالبا من الشوكولاتة وتفاحة من جيبه.

«هيا بنا إلى عربة التدخين»، قال لي، فتبعته عبر العربة إلى التي أمامنا. جلسنا على أحد المقاعد، وكان أبي من جهة الداخل بقرب النافذة. كانت عربة التدخين قذرة، وكان جلد المقاعد الأسود محروقاً من الجمر.

«انظر إلى المقاعد التي تواجهنا»، قال لي أبي من غير أن ينظر هو إليها. كان يجلس في مواجهة رجلان جنباً إلى جنب. كان الرجل الذي يجلس من جهة الداخل ينظر من النافذة، وكان

معصمه الأيمن مقيدا إلى المعصم الأيسر للرجل الذي يجلس إلى جانبه. وكان يجلس في المقعد الذي أمامهم رجلان. لم أتمكن إلا من رؤية ظهريهما لكنهما كانا يجلسان بالطريقة نفسها. كان الرجلان اللذان يجلسان من جهة الممر يتحدثان.

«هكذا في وضع النهار»، قال الرجل الذي يجلس في مواجهتنا. تحدث الرجل الذي يجلس قبالة من غير أن يلتفت.

«قل لي لماذا لم نأخذ قطار الليل؟».

«هل كنت تريد أن تنام مع هذه الأصفاة؟».

«بالأكيد. لم لا؟».

«بل هكذا أفضل».

«إذا كانت الجحيم أفضل».

نظر إلينا الرجل الذي كان يتطلع من النافذة وغمز لنا. كان رجلا صغيرا ويلبس طاقية. كان هناك ضماد يطوق رأسه تحت الطاقية. وكان الرجل المقيد إليه يلبس طاقية، لكن رقبتة غليظة، ويرتدي بذلة زرقاء، ويلبس طاقية كأنها لبست للسفر فقط.

كان الرجلان اللذان في المقعد الذي يليه من ذات الحجم والقوام تقريبا، لكن رقبة الرجل الجالس من جهة الممر أغلظ.

«ما رأيك في سيجارة، يا جاك؟»^(٨٦)، وجّه الرجل الذي غمز لنا حديثه لأبي من فوق كتف الرجل الذي كان مقيدا إليه. التفت الرجل ذو الرقبة الغليظة ورمقني وأبي بنظرة. ابتسم الرجل الذي غمز لنا. أخرج أبي علبة سجائر.

(٨٦) «جاك» نداء لا تكلف فيه، يخاطب به الأمريكيون من لا يعرفون اسمه، لذلك فهو هنا ليس اسم والد جمي [الترجم].

«تريد أن تعطيه سيجارة؟». سأل الحارس. ناوله أبي العلبة
عبر الممر.

«أنا سأعطيها له»، قال الحارس. أخذ العلبة بيده الطليقة،
ضغط عليها، ثم وضعها في يده المقيدة، وسحب سيجارة بيده
الطليقة وأعطأها للرجل الجالس بجانبه. ابتسم لنا الرجل
الجالس بجانب النافذة، وأشعل له الحارس السيجارة.

«إنك تغمرني بلطفك»، قال للحارس.

أعاد الحارس علبة السجائر عبر الممر إلينا.

«خذ واحدة»، قال له أبي.

«أشكرك، لكنني أتسلى بمضغة تبغ».

«رحلتك طويلة؟».

«شيكاجو».

«إنها وجهتنا أيضا».

«إنها مدينة جميلة»، قال الرجل الصغير الجالس بقرب

النافذة. «لقد زرتها ذات مرة».

«أي نعم، لقد زرتها»، قال له الحارس. «نعم، لقد زرتها».

انتقلنا من مقعدنا وجلسنا في المقعد المقابل لهم. التفت الحارس

الذي في الأمام حوله. أطرق الرجل الذي معه في الأرض.

«ما الأمر؟». سأل أبي.

«هذان السيدان مطلوبان في قضية قتل».

غمز لي الرجل الجالس بقرب النافذة.

«دعك من هذه القذارة، فنحن هنا سادة محترمون جميعا».

رد قائلا.

«من القتل؟». سأل أبي.
«إيطالي»، قال الحارس.
«من؟». سأل الرجل الصغير بابتسامة متألقة.
«إيطالي»، كرر الحارس قوله لأبي.
«من قتله؟». سأل الرجل الصغير وهو ينظر إلى الرقيب
ويحدق فيه على اتساع عينيه.
«أنت مضحك جدا»، قال له الحارس.
«لا، يا سيدي»، رد عليه الرجل الصغير. «بل سألتك، أيها
الرقيب، عمن قتل هذا الإيطالي».
«هو الذي قتل هذا الإيطالي»، قال السجين الجالس في
المقعد الأمامي وهو يسدد نظراته إلى رجل المباحث. «هو الذي
قتل هذا الإيطالي بقوسه ونشابه».
«كفى، كفى»، قال رجل المباحث.
«أيها الرقيب»، قال الرجل الصغير. «أنا لم أقتل هذا الإيطالي.
أنا لست راغبا في قتل إيطالي. أنا لا أعرف أي إيطالي».
«سجل أقواله واستخدمها ضده»، قال السجين الذي في المقعد
الأمامي. «كل ما يقوله سيستخدم ضده. هو لم يقتل هذا الإيطالي».
«أيها الرقيب»، قال الرجل الصغير. «من قتل هذا
الإيطالي؟».
«أنت قتلت»، قال له رجل المباحث.
«هذا افتراء، أيها الرقيب»، قال الرجل الصغير. «أنا لم أقتل
هذا الإيطالي. وأنا أرفض أن أكرر أقوالي. أنا لم أقتل هذا
الإيطالي».

«كل ما يقوله يجب أن يستخدم ضده»، قال السجين الآخر.
«أيها الرقيب، لماذا قتلت هذا الإيطالي؟»
«لقد كان خطأ، أيها الرقيب»، قال السجين الصغير. «لقد
كان خطأ فظيحا. ما كان عليك أن تقتل هذا الإيطالي أبدا».
«أو ذلك الإيطالي»، قال السجين الآخر.
«أخرسا كلاكما»، قال الرقيب. «إنهما مدمنا مخدرات»، قال
لأبي. «إنهما مخبلان مثل الحشرات».
«حشرات؟» قال الرجل الصغير بنبرة مرتفعة. «ليس في أي
حشرات، أيها الرقيب».
«إنه ينحدر من سلالة إنجليزية أرستقراطية عريقة»، قال
السجين الآخر. «اسأل السيناتور الجالس هناك»، قال وهو يومئ
نحو أبي.
«اسأل الرجل الصغير هناك»، قال السجين الأول. «إنه في
عمر جورج واشنطن^(٨٧)، لا يمكنه أن يكذب».
«تكلم، أيها الغلام»، قال السجين الكبير وهو يحدق فيّ.
«كفى، كفى»، قال له الحارس.
«أجل، أيها الرقيب»، قال له السجين الصغير. «دعه يكف
عن هرائه. ثم إنه لا يحق له أن يقحم الصبي الصغير في هذا
الأمر».
«وأنا كنت صبيا في يوم من الأيام»، قال السجين الكبير.
«أغلق فمك اللعين»، قال له الحارس.
«لا فض فوك، أيها الرقيب»، قال له السجين الصغير.

(٨٧) جورج واشنطن (١٧٣٢ - ١٧٩٩): أول رئيس للولايات المتحدة [المترجم].

«أغلق أنت فمك اللعين»، قال له السجين الصغير وغمز لي.
«لعله من الأفضل لنا أن نعود إلى عربتنا»، قال لي أبي. «إلى اللقاء»، قال أبي لرجلي المباحث.

«لا بأس، نراك على الغداء». هز رجل المباحث الآخر رأسه.
غمز لنا السجين الصغير، وراقبنا ونحن نسير في الممر. كان
السجين الآخر ينظر من النافذة. عدنا من عربة التدخين إلى
مقاعدنا في العربة الأخرى.

«حسن، يا جمبي، ماذا فهمت مما رأيت؟».

«لا أعرف».

«ولا أنا»، قال أبي.

عند الغداء في بلدة كاديلاك كنا نجلس إلى منضدة قبل
أن يدخلوا ويجلسوا إلى طاولة بعضهم مقابل بعض. كان غداء
جيدا. أكلنا فطيرة من لحم الدجاج وشربت كأسا من الحليب
وأكلت قطعة من فطيرة التوت مع الآيس كريم. كانت غرفة
الطعام مكتظة. كان بإمكانك أن ترى القطار إذا نظرت عبر
الباب المفتوح. جلست على كرسي على منضدة الغداء وراقبتهم
الأربعة يأكلون. أكل السجينان، كل بيده اليسرى، ورجلا المباحث،
كل بيده اليمنى. وعندما أراد رجل المباحث أن يقطع اللحم كان
يستخدم الشوكة باليد اليسرى، وهذا يشد يمين السجين نحوه.
كانت كلتا اليدين المقيدتين فوق الطاولة. راقبت السجين الصغير
وهو يأكل، وكان يضايق الرقيب أيما مضايقة من دون قصد
فيما يبدو. كانت يده ترتجف فجأة، من غير وعي فيما يبدو،
ثم يمسكها بحيث تظل يد الرقيب اليسرى مشدودة تماما.

أما الآخرون فقد كانوا يأكلان بلا مضايقة. على أي حال، لم يكن في مراقبتهم ما يثير الاهتمام.

«لماذا لا تتزع هذه الأغلال ونحن نأكل؟». قال الرجل الصغير للرقيب. لم يرد عليه الرقيب بشيء. كان يمد يده ليتناول فنجان قهوته، وعندما تناوله نثر الرجل الصغير يده فجأة، فسفح الرقيب قهوته. نثر الرقيب ذراعه من دون أن ينظر نحو الرجل الصغير، فنترت أصفاد الفولاذ رسفه ثم لكمه الرقيب برسفه على وجهه.

«ابن العاهرة»، قال الرجل الصغير. جرحت شفته، فلعقها.

«من؟». سأله الرقيب.

«لا أقصدك»، قال له الرجل الصغير. «كيف أقصدك وأنا مقيد إليك؟ مستحيل».

أنزل الرقيب رسفه تحت الطاولة وتطلع في وجه الرجل الصغير.

«ماذا تقول؟».

«لا شيء»، قال الرجل الصغير. تطلع الرقيب في وجهه ثم مد يده المقيدة ثانية ليتناول فنجان قهوته. كانت يمين الرجل الصغير ممدودة على الطاولة بينما كان الرقيب يمد يده. رفع الرقيب فنجان القهوة، ولما رفعه ليشر به نثر من يده فسفحت القهوة على كل شيء. صفع الرقيب الرجل الصغير بالأصافد على وجهه مرتين من دون أن ينظر إليه. راح وجه الرجل الصغير ينزف ثم لعق شفته وراح ينظر إلى الطاولة مطرقاً.

«هل اكتفيت؟».

«أجل»، قال الرجل الصغير. «لقد شبعت».

«هل ارتحت الآن؟».

«جدا»، قال الرجل الصغير. «وأنت، ما شعورك؟».

«امسح وجهك»، قال الرقيب. «فمك مليء بالدم».

رأيانهم يصعدون إلى القطار اثنين اثنين، وصعدنا نحن أيضا، وتوجهنا إلى مقاعدنا. رجل المباحث الآخر، ليس المدعو بالرقيب بل المقيد إلى السجين الكبير، لم ينتبه إلى ما جرى على الطاولة. كان يراقب ما يجري، لكنه لم يبد أنه شاهد شيئا. لم يقل السجين الكبير شيئا، لكنه راقب كل شيء.

كان زئبر مقعدنا في القطار مليئا بالرماد، فنفضه أبي بجريدة. انطلق القطار وتطلعت من النافذة المفتوحة وحاولت رؤية كاديلاك، لكنني لم أتمكن إلا من رؤية البحيرة، والمعامل، وطريق رائع أملس بمحاذاة السكة. وكان شاطئ البحيرة محفوفًا بأكوام من نشارة الخشب.

«لا تخرج رأسك من النافذة، يا جمعي»، قال أبي. جلست. على أي حال، لم يكن هناك ما تجدر رؤيته.

«هذه هي المدينة التي تحدر منها آل موغاست»، قال أبي^(٨٨). «أوه»، قلت له.

«هل رأيت ما جرى على الطاولة؟». سألني أبي.

«نعم».

«هل رأيت كل شيء؟».

«لا أعرف».

(٨٨) آل موغاست: شخصية روائية ليست حقيقية[المرجم].

«في رأيك، لماذا اختلق ذلك الرجل الصغير كل تلك المشكلة؟».

«أظن أنه أراد أن يضايقهما كي ينزعا عنهما الأغلال».

«هل رأيت شيئاً غير ذلك؟».

«رأيتَه يُصَفِّعُ ثلاث مرات على وجهه».

«أين كنت تركز نظرك عندما صفعه؟».

«على وجهه. راقبت الرقيب وهو يصفعه».

«حسن»، قال أبي. «بينما كان الرقيب يصفعه على وجهه ويده

اليمنى مغلولة، تناول بيساره سكيناً فولاذية من الطاولة ووضعها في جيبه».

«لم أر ذلك».

«نعم، لم تره»، قال أبي. «لكل إنسان يدان، يا جمبي. على

الأقل، في البداية. وعليك أن تراقب كليهما إذا أردت أن ترى الأمور كاملة».

«وماذا فعل الآخران؟». سألت أبي، فضحك.

«لم أراقبهما»، قال لي.

جلسنا في القطار بعد الغداء ورحت أتطلع من النافذة وأراقب

الريف. لم يعد يهمني كثيراً لأنني كنت مشغولاً بأشياء كثيرة

أخرى تجري من حولي، ثم إنني اكتفيت من رؤية الريف، لكنني

لم أשא أن أقترح على أبي أن نذهب إلى عربة التدخين ما لم

يفعل هو. كان يقرأ وكان تمللي بضايقه.

«ألا تقرأ أبداً يا جمبي؟».

«ليس كثيراً»، قلت له. «ليس لدي الوقت».

«ماذا تفعل الآن؟».

«أنتظر».

«هل تريد الذهاب إلى هناك؟».

«نعم».

«هل تعتقد أن من واجبنا إخبار الرقيب؟».

«لا»، قلت له.

«إنها مسألة أخلاقية»، قال ثم أغلق الكتاب.

«هل تريد أن تخبره؟». سألته.

«لا»، قال أبي. «أضف إلى ذلك أن كل إنسان بريء حتى تثبت

إدانته. قد لا يكون قد قتل ذلك الإيطالي».

«هل هما من متعاطي المنوعات؟».

«لا أعرف إن كانا يتعاطيان المنوعات أم لا»، قال أبي. «كثير

من الناس يتعاطونها. لكن تعاطي المنوعات لا يجعل الناس

يتحدثون كما تحدثا».

«ما هو إذن؟».

«لا أعرف»، قال أبي. «ما الذي يجعل أي إنسان يتحدث كما

تحدثا؟».

«هيا بنا إلى هناك»، قلت لأبي. أنزل أبي حقيبة الملابس،

ففتحتها، ثم وضع فيها الكتاب وشيئا آخر من جيبه. قفل الحقيبة

ثم توجهنا إلى عربة التدخين. وبينما كنا نسير في ممر عربة

المدخين، رأيت رجلي المباحث والسجينين يجلسون صامتين.

جلسنا في مواجهتهم.

كانت قبعة الرجل الصغير مسدلة على الضماد الذي يحيط

برأسه وكانت شفتاه متورمتين. كان يقظا ويتطلع من النافذة. كان الرقيب يغالب النعاس، فتارة يغمض عينيه وتارة يفتحهما. بدا وجهه مكدرا، ناعسا. كان الآخران في المقعد الأمامي يغطان في النوم. كان السجين يميل نحو جهة النافذة، بينما كان رجل المباحث يميل نحو الممر. لم يكونا مرتاحين في تلك الوضعية، لذلك كلما استغرقا في النوم مال كل منهما نحو الآخر.

نظر الرجل الصغير إلى الرقيب ثم إلينا. لم يبد أنه عرفنا، فراح ينظر إلى آخر العربة. كان فيما يبدو يتطلع إلى كل الرجال في عربة التدخين. لم يكن هناك كثير من المسافرين. ثم نظر إلى الرقيب ثانية. أخرج أبي كتابا آخر، وراح يقرأ.

«أيها الرقيب»، قال الرجل الصغير. ظل الرقيب يتطلع إلى السجين دون أن ترف عيناه.

«أريد أن أذهب إلى المرحاض»، قال الرجل الصغير.

«ليس الآن»، قال الرقيب وأغمض عينيه.

«اسمع، أيها الرقيب»، قال الرجل الصغير. «ألم تحتج قط إلى المرحاض؟».

«ليس الآن»، قال الرقيب. لم يكن يرغب في مفارقة تلك الحال التي تتأرجح بين النعاس واليقظة. كان يجر أنفاسه ببطء وتناقل، لكنه عندما يفتح عينيه كانت أنفاسه تتوقف. نظر الرجل الصغير إلينا لكنه لم يبد ما يدل على أنه عرفنا.

«أيها الرقيب»، قال للرقيب الذي لم يجبه. مرر الرجل الصغير لسانه على شفتيه. «اسمع، أيها الرقيب، أنا في حاجة للذهاب إلى المرحاض».

«لا بأس»، قال له الرقيب. نهض فنهض معه الرجل الصغير وسارا إلى آخر الممر. نظرت إلى أبي، فقال لي، «اتبعهما إن شئت». تبعتهما حتى آخر الممر.

كانا يقفان عند الباب.

«أريد الدخول بمفردي»، قال السجين.

«ممنوع».

«هيا، دعني أدخل بمفردي».

«لا».

«لم لا؟ يمكنك أن تغلق الباب».

«لن أنزعهما عنك».

«هيا، أيها الرقيب، دعني أدخل بمفردي».

«دعنا نلق نظرة»، قال الرقيب. دخلا فأغلق الرقيب الباب.

كنت أجلس على المقعد المقابل لباب المرحاض. تطلعت إلى أبي في آخر الممر. كنت أسمعهما يتحدثان في الداخل لكن لا أعرف ماذا يقولان. أدار أحدهما مقبض الباب ليفتحه، فسمعت شيئا يسقط عليه ثم يرتطم به مرتين. بعدئذ سقط على الأرض. ثم سمعت صوتا مثل ذلك الصوت الذي تسمعه عندما تمسك أرنباً من قائمتيه الخلفيتين وتخبط رأسه على جذع شجرة لتقتله. كنت أنظر إلى أبي وأومئ له. سمعت ذلك الصوت ثلاث مرات، ثم رأيت شيئا يتسرب من تحت الباب. كان دما وكان يجري ببطء وسلاسة. عدوت إلى أبي في آخر الممر. «هناك دم يخرج من تحت الباب».

«اجلس هناك»، قال أبي، ثم نهض. عبر الممر وريت على كتف

رجل المباحث. تطلع إليه الرجل.

«لقد ذهب شريكك إلى المرحاض»، قال له أبي.

«طبيعي»، قال رجل المباحث. «ولم لا؟».

«ذهب ابني إلى هناك ويقول إنه رأى دما يتسرب من تحت

الباب».

قفز رجل المباحث ونتر السجين الآخر من فوق المقعد. نظر

السجين الآخر إلى أبي.

«هيا»، قال له رجل المباحث. ظل السجين جالسا في مكانه.

«هيا»، قال له رجل المباحث لكن السجين لم يتزحزح. «هيا وإلا

حطمت رأسك برصاصة».

«ما الأمر، يا صاحب الفخامة؟».

«هيا بنا، أيها القذر»، قال له رجل المباحث.

«أرجوك، لا داعي لذلك»، قال له السجين.

سارا في الممر، وكان رجل المباحث في المقدمة يحمل

مسدسا يمينه والسجين المقيّد إليه يتلأ وراءه. وقف الركاب

ليستطلعوا الأمر. «الزموا أماكنكم»، قال لهم أبي. ثم أمسك بي

من ذراعي.

شاهد رجل المباحث الدم تحت الباب. التفت وراءه ونظر إلى

السجين. رآه السجين ينظر إليه، فوقف مكانه. «لا»، قال له.

بينما كان رجل المباحث يمسك المسدس يمينه، نتر يده اليسرى

بعنف إلى الأسفل فانكب السجين على ركبتيه. «لا»، قال له.

راح رجل المباحث يراقب الباب والسجين، فتحايل حتى أمسك

المسدس، وغافل السجين بضربة على جانب رأسه. زل السجين

عن موضعه، فخبط الأرض برأسه ويديه. «لا»، قال وهو يهز رأسه على الأرض. «لا، لا، لا».

ضربه رجل المباحث ثانية وثانية حتى هدا. انكب على وجهه على الأرض، وكان رأسه ينحني على صدره. وبينما هو يراقب الباب، وضع رجل المباحث المسدس على الأرض، ثم فتح قفل الأغلال من معصم السجين. ثم التقط المسدس ونهض. أمسك المسدس بيمينه وشد الحبل ببساره ليوقف القطار. ثم مد يده نحو مقبض الباب.

راح القطار يتباطأ.

«ابتعدوا عن الباب»، سمعنا شخصا يقول من خلف الباب.

«افتح الباب»، قال له رجل المباحث وتراجع إلى الوراء.

«آل»، نادى الصوت من الداخل. «آل، هل أنت بخير؟».

انتحى رجل المباحث إلى أحد جانبي الباب. صار سير القطار بطيئاً.

«آل»، نادى الصوت ثانية. «آل، أجيني إن كنت بخير».

لم يجب أحد. توقف القطار. فتح عامل المكابح الباب، وقال، «ماذا يجري؟». نظر إلى الرجل المنبطح على الأرض، ثم إلى الدم ورجل المباحث الذي يحمل مسدسا بيده. قدم جابي التذاكر من الطرف الآخر للعربة.

«يوجد هنا شخص قتل رجلاً»، قال رجل المباحث.

«أي، وحق الجحيم. وقد هرب من النافذة»، قال عامل المكابح.

«راقبوا هذا الرجل»، قال رجل المباحث. فتح الباب المؤدي

إلى الرصيف. ذهبت إلى الطرف الآخر من الممر ونظرت من النافذة. كانت السكة مسيجة بسياج. وكان وراء السياج غابات. نظرت إلى السكة صعودا ونزولا. رأيت رجل المباحث يعدو ويمر من أمامي، ثم يعود. لم يكن هناك أحد على مد البصر. عاد رجل المباحث إلى العرية ثم فتحوا باب المرحاض. لم يكن الباب يفتح على مصراعه لأن الرقيب كان يستلقي على الأرض خلفه. كانت النافذة مفتوحة حتى منتصفها تقريبا. كان الرقيب لا يزال يتنفس. انتشلوه وحملوه إلى العرية، ثم حملوا السجين وأجلسوه على أحد المقاعد. أدخل رجل المباحث القيد في مقبض حقيبة ملابس كبيرة. احتار الناس فيما يفعلون: هل يعتنون بالرقيب أم يحاولون إيجاد الرجل الصغير أم ماذا؟ خرج الجميع من القطار وفتشوا السكة وفي أطراف الغابة. كان عامل المكابح قد رأى الرجل الصغير يعبر السكة إلى الغابة. دخل رجل المباحث الغابة مرتين ثم خرج منها. كان السجين قد سلب من الرقيب مسدسه، فلم يبد أحد رغبة في الإيغال في الغابة بحثا عنه. أخيرا، سيروا القطار كي يصلوا إلى محطة يمكنهم منها أن يتصلوا بقيادة الشرطة في الولاية ويعمموا أوصاف الرجل الصغير. ساعدهم أبي في العناية بالرقيب. إذ غسل الجرح الذي كان بين عظم الترقوة والرقبة، وأرسلني لأجلب له الورق والمناشف من المرحاض، ثم طواها وجعل منها سدادة للجرح ثم ربطها بإحكام بردن قميص الرقيب. مددوه بأقصى ما استطاعوا من الثاني، وغسل أبي له وجهه. لقد تعرض رأسه للضرب على أرضية المرحاض، وكان لا يزال غائبا عن الوعي، لكن أبي قال إن الجرح

ليس خطرا. عندما توقفنا في المحطة أنزلوه، بينما أنزل رجل المباحث السجين الآخر. كان وجه هذا السجين شاحبا، وكانت على جانب رأسه كدمة متورمة. كان منظره مثيرا للاستهزاء عندما أنزلوه وبدا متلهفا لفعل كل ما يؤمر به. عاد أبي إلى العربة بعد أن ساعدهم في أمر الرقيب. كانوا قد وضعوه في شاحنة كانت في المحطة وينوون الانطلاق به إلى أحد المستشفيات. كان رجل المباحث منهما في إرسال البرقيات. كنا نقف على الرصيف، فانطلق القطار ورأيت السجين واقفا، يسند ظهره على جدار المحطة ويبكي.

استأت أيما استياء من كل ما جرى، ودخلنا عربة المدخنين. جاء عامل المكابح بسطل وكومة من نفاية القطن وراح يفرك الدم ويفسل الأرض.

«كيف حاله، يا دكتور؟». سأل (عامل المكابح) أبي.

«لست طبيبا»، قال له أبي. «لكنني أعتقد أنه سيكون بخير».

«تصور: شرطيان كل منهما بحجم الثور ولم يقدرا على حشرة

ضئيلة»، قال عامل المكابح.

«هل رأيته يهرب من النافذة؟».

«طبعا»، قال عامل المكابح. «أو لنقل إنني رأيته عندما حط

على السكة».

«هل تعرفت عليه؟».

«لا. ليس عندما رأيته في البداية. في رأيك، يا دكتور، كيف

تمكن من طعنه؟».

«لا بد أنه غافله من الخلف»، قال أبي.

«تري، من أين حصل على السكين؟».

«لا أدري»، قال أبي.

«أما ذلك المغفل المسكين الآخر، فلم يحاول حتى أن يتفطت»،

قال عامل المكابح.

«لا».

«مع أن رجل المباحث أعطاه مستحقه. هل رأيت ذلك

يا دكتور؟».

«نعم».

«يا له من مغفل مسكين»، قال عامل المكابح. صار المكان الذي

غسله نظيفا ورطبا. عدنا إلى مقاعدنا في العربة الأخرى. جلس

أبي صامتا، فرحت أتساءل فيم يفكر.

وبعد لحظة سألتني، «حسن، يا جمبي، ماذا تستنتج الآن من

كل ما جرى؟».

«لا أدري».

«ولا أنا»، قال أبي. «هل تشعر بالاستياء؟».

«نعم».

«وكذلك أنا. هل كنت خائفا؟».

«عندما رأيت الدم»، قلت له. «وعندما ضرب السجين».

«هذا شعور سليم».

«هل خفت أنت؟».

«لا»، قال أبي. «كيف كان الدم؟».

فكرت دقيقة.

«كان كثيفا وسلبا».

«الدم أشد كثافة من الماء»^(٨٩) قال أبي. «هذا أول مثل تصطدم به عندما تعيش عيشة حافلة بالنشاط».

«ليس هذا ما يعنيه المثل»، قلت له. «إنه عن الأسرة».

«لا»، قال أبي. «إنه لا يعني أكثر مما قلته لك، لكنه دائماً يفاجئك. لا زلت أذكر أول مرة اكتشفت فيها ذلك».

«متى كان ذلك؟».

«عندما امتلأ حذائي به. كان دافئاً جداً وكثيفاً. كان مثل الماء تماماً عندما يملأ حذاءك المطاطي وأنت تصطاد البط، لكنه كان دافئاً وأشد كثافة وسلاسة».

«متى كان ذلك؟».

«أوه، لقد كان ذلك منذ وقت طويل»، قال أبي.

(٨٩) المقصود بهذا المثل هو أن رابطة الدم أقوى من كل الروابط الأخرى، ويقابله في العربية قولنا «الدم لا يصير ماء» [الترجم].

عندما ذهبنا للنوم اقترح علي أبي أن أنام في السرير الأدنى لأنني سأريد أن أتطلع من النافذة في الصباح الباكر. قال إنه لا يمانع أن ينام في السرير الأعلى وإنه سيأوي إلى فراشه بعد فترة. خلعت ملابسني ووضعتها في الأرجوحة الشبكية ولبست ثياب النوم وأويت إلى فراشي. أطفأت المصباح ورفعت ستارة النافذة، لكن الطقس كان بارداً لو أردت أن أعتدل في فراشي لأنظر، وإن استلقيت فلا أرى شيئاً. أخرج أبي حقيبة ملابس من تحت سرير، ثم فتحها على السرير، وأخرج ثياب نومه، وألقى بها على السرير الأعلى، ثم أخرج كتاباً بالإضافة إلى الزجاجاة التي ملأ منها قارورته.

«أشعل المصباح»، قلت له.

«لا، لا أحتاجه»، قال لي. «هل نعست، يا جمي؟».

«أظن ذلك».

«اهناً بنومك»، قال لي، ثم أغلق الحقيبة وأعادها إلى مكانها

تحت السرير.

«هل وضعت حذاءك في الخارج؟».

«لا»، قلت له. كان حذائي في الأرجوحة، فنهضت لأخرجه،

لكن أبي وجده فوضعه في الممر. ثم أسدل الستارة.

«ألن تأوي إلى فراشك، يا سيدي؟». سأله الخادم.

(٩٠) تمثل هذه القصة، كسابقتها، مشهداً من ذات الرواية التي لم يكملها همنغواي ولم يضع لها عنواناً [المترجم].

«لا»، قال له أبي. «سأقرأ قليلا في الحمام».

«أجل، يا سيدي»، قال الخادم. استمتعت بالاستلقاء بين الأغطية البيضاء وأنا ألتحف بالبطانية والظلام، وأتدثر بالريف المظلم في الخارج. كانت هناك ستارة منخلية تمتد على عرض النصف الأسفل من النافذة المفتوحة وكان الهواء الداخل من خلالها باردا. زرت أزرار الستارة الخضراء بإحكام، وكانت العربة تتمايل، لكنها كانت ثابتة وتسير بسرعة، وكنت بين الحين والآخر أسمع الصفارة. نمت ولما صحت نظرت إلى الخارج، فرأيت أننا نسير ببطء وكنا نعبر نهرا كبيرا^(٩١). كانت هناك أنوار تسطع على الماء وعلى الإطار الحديدي لأحد الجسور، وكان أبي يأوي إلى فراشه في السرير الأعلى.

«هل أنت مستيقظ، يا جمي؟».

«نعم. أين نحن؟».

«إننا الآن نعبر الحدود إلى كندا، لكننا سنخرج منها في الصباح»، قال أبي^(٩٢).

تطلعت من النافذة لأرى كندا، لكن لم أر سوى سكك الحديد وعربات الشحن. توقفنا وجاء رجلان يحملان مصابيح، ثم توقفا وضربا العجلات بمطارق. لم أستطع أن أرى سوى هذين الرجلين الجاثيين بجانب العجلات وعربات الشحن في مواجهتنا، فتسللت عائدا إلى فراشي.

«في أي جزء من كندا نحن الآن؟».

(٩١) النهر الكبير هنا هو نهر دترويت [المترجم].

(٩٢) هذا يعني أن القطار، بعد عبوره نهر دترويت، سيبطل سائرا عبر الأراضي الكندية إلى أن يبلغ شلالات نياغرا، حيث يعاود مسيره عبر الأراضي الأمريكية [المترجم].

«وندزر»، قال أبي^(٩٣). «تصبح على خير، يا جم».

عندما استيقظت في الصباح، كنا نسير عبر ريف جميل يشبه مشيغن لولا أن تلاله أعلى وأشجاره تصفر أوراقها. ارتديت كل ملابسني ما عدا الحذاء الذي تناولته من تحت الستارة. وجدته ملمعا، قلبسته، وحللت أضرار الستارة وخرجت إلى الممر. كانت جميع الستائر من أول الممر إلى آخره مغلقة الأضرار، وكان الجميع نياما فيما يبدو. توجهت إلى الحمام، ونظرت في داخله. كان الخادم الزنجي نائما في إحدى زوايا المقعد الجلدي. كانت قبعته مسدلة على عينيه، وكانت قدماء ترتفعان فوق أحد الكراسي. كان فمه فاغرا، ورأسه يميل إلى الوراء، وكانت يدها مطويتين على حضنه. تابعت مسيري حتى نهاية العربة، ونظرت إلى الخارج لكن الهواء كان قويا وملوثا بالرماد، ولم أجد مكانا أجلس فيه. عدت إلى الحمام ودخلته بحذر شديد كي لا أوقظ الخادم، فجلست بجانب النافذة. كانت رائحة الحمام في الصباح الباكر مثل رائحة المياصق النحاسية^(٩٤). كنت جائعا وتطلعت من النافذة إلى الريف الخريفي وراقبت الخادم وهو يغط في نومه. بدا الريف صالحا للصيد. كانت هناك أجسام كثيرة على التلال، وغابات متناثرة، ومزارع رائعة المنظر، وطرقات جيدة. لكنه ريف يختلف في مظهره عن ريف مشيغن. فهنا يبدو الريف مترابطا بعضه مع بعض، أما في مشيغن فلا رابط بين أجزائه. ليس فيه مستنقعات ولم تأكل الحرائق أيا منه. بدا الريف كله كما

(٩٣) تقع مدينة وندزر في مقاطعة أونتاريو مقابل مدينة دترويت الأمريكية [المترجم].

(٩٤) المياصق (ج. مبصقة): أوعية مصنوعة من النحاس الأصفر كانت شائعة في الولايات المتحدة منذ بداية القرن العشرين إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، يستخدمها ماضغو التبغ [المترجم].

لو كان ملكا لشخص واحد، لكنه كان رائع المنظر، وقد اصفرت أوراق الزان والقيقب، وكان هناك الكثير من شجيرات السنديان ذات الأوراق الرائعة الألوان أيضا، وحيث وجدت الأجسام وجد بكثرة السماق ذو اللون الأحمر القاني. بدا هذا الريف صالحا للأرناب، فحاولت أن أرى بعض الطرائد لكن القطار كان يسير بسرعة كبيرة تجعل التركيز عسيرا، والطيور الوحيدة التي تمكنت من رؤيتها كانت تحلق في الجو. رأيت صقرا يصطاد هو ورفيقته فوق أحد الحقول. ورأيت طيور النقر تحلق فوق حافة الغابة، وأيقنت أنها تتجه جنوبا. ثم رأيت طيور الزرياب مرتين، لكن القطار لا يصلح لمشاهدة الطيور. كان ينساب في الريف من جنب إلى جنب فلا يمكنك أن تنظر إلى أي شيء نظرة مستقيمة، مما يضطرك دائما لتركه، والنظر إلى الأمام قليلا. مررنا بمزرعة ذات مرج طويل، فرأيت سريا من طيور الزقزاق ترعى. طارت ثلاثة منها لدى مرور القطار، ثم حلقت فوق الغابة لكن البقية ظلت ترعى. انعطفنا انعطافا كبيرا فصار بإمكانني أن أرى بقية العربات تتعطف أمامنا، وكانت عجلات القيادة في القاطرة تسير بسرعة كبيرة، ورأيت واديا نهريا تحتنا، ولما التفت وجدت الخادم مستيقظا وينظر إلي.

«ماذا ترى؟». سألني.

«ليس كثيرا».

«إنك تنظر إليه بلا شك».

لم أقل شيئا لكنني فرحت باستيقاظه. ظلت قدماء على الكرسي لكنه تناول قبعته ووضعها على رأسه بشكل مستقيم.

«هل الذي ظل يقرأ هنا والدك؟».

«نعم».

«إنه شارب مشروب لا يشق له غبار».

«إنه شارب عظيم».

«إنه بلا شك شارب عظيم. أجل، شارب عظيم».

لم أقل شيئاً.

«تناولت معه كأسين»، قال الخادم. «وقد أشرقي، المشروب

كثيراً، أما هو فقد سهر نصف الليل ولم يبد عليه شيء».

«لا يبدو عليه شيء أبداً»، قلت له.

«لا يا سيدي. لكن إن ظل على هذه الحال، فسيتلف

أحشاءه».

لم أقل شيئاً.

«أنت جائع، أيها الفتى؟».

«نعم، أنا جائع جداً»، قلت له.

«لدينا عربة مطعم الآن. هيا بنا إلى الخلف وسنأكل قليلاً».

سرنا عبر عريتين أخريين، وكانت جميع الستائر مغلقة من

بداية الممر إلى آخره، ثم توجهنا إلى المطبخ في عربة المطعم،

نسير بين الطاولات.

«رحب بصديق بعثه إلي حظي السعيد»، قال الخادم لكبير

الطباخين.

«هذا أنت، أيها العم جورج»، قال كبير الطباخين. كان هناك

أربعة زنوج آخرين يلعبون الورق على إحدى الطاولات.

«ما قولك في أن تأتي لنا بطعام لي وللشباب المحترمين؟».

«لا يا سيدي»، قال كبير الطباخين. «ليس قبل أن أعده».

«هل لك أن تشرب؟». سأل جورج.

«لا يا سيدي»، قال كبير الطباخين.

«تفضل، ها هو»، قال جورج. ثم أخرج زجاجة صغيرة من جيبه. «مع تحيات والد الشاب المحترم».

«هذا لطف منه»، قال كبير الطباخين. ثم لعق شفّتيه.

«إن والد الشاب المحترم بطل العالم».

«في ماذا؟».

«في الشرب».

«هذا لطف كبير منه»، قال كبير الطباخين. «كيف أكلت ليلة أمس؟».

«مع تلك الشّلة من الصبيان الأصفر»^(٩٥).

«هل ما زالوا جميعا سوية؟».

«بين شيكاغو وديترويت. نحن نسميهم الآن سكان الإسكيمو الأبيض».

«حسن، لكل مقام مقال»، قال كبير الطباخين، ثم كسر بيضتين على حرف مقلاة. «شرائح لحم وبيض لابن البطل؟».

«نعم، شكرا»، قلت له.

«ما رأيك بقليل من ذلك اللطف؟»^(٩٦).

«أجل يا سيدي».

(٩٥) «الصبي الأصفر» تعبير أمريكي عامي ويعني المولد أو الخلاسي، أي الذي يكون أحد أبويه أبيض والآخر أسود [الترجم].

(٩٦) هنا يطلب كبير الطباخين من جورج أن يعطيه شيئا من المشروب الذي أعطاه له والد الفتى لطفا وكرما [الترجم].

«جعل الله النصر حليف والدك دائماً»، قال لي كبير الطباخين.
ثم لعق شفتيه. «وهل يشرب الشاب المحترم أيضاً؟»
«لا يا سيدي»، قال جورج. «إني وصي عليه».
وضع كبير الطباخين شرائح اللحم والبيض على طبقين.
«تفضلاً بالجلوس، أيها السيدان».
جلسنا أنا وجورج، فأحضر لنا فتجانين من القهوة وجلس
قبالتنا.
«هل لديك استعداد لأن تفارق مثلاً آخر من ذلك اللطف؟»
«من أجل ما هو أفضل»، قال جورج. «علينا أن نعود إلى
العربة. كيف يسير شغل السكك؟»
«السكك متينة»، قال كبير الطباخين. «كيف وول ستريت؟»
«الدببة تعود إلى النطاح ثانية»، قال جورج. «لم تعد أنثى
الدب تأمن على نفسها هذه الأيام»^(٩٧).
«راهن على الدياسم»^(٩٨)، قال كبير الطباخين. «إن العمالقة
أكبر من الاتحاد»^(٩٩).
ضحك جورج، وضحك كبير الطباخين.
«أنت شخص لطيف جداً»، قال جورج. «ما أغرب أن ألتقيك
هنا».
«هيا، اخرج من هنا»، قال كبير الطباخين. «لاكاوانيس
تناديك».

(٩٧) من الواضح أن جورج وكبير الطباخين يستخدمان لغة مشفرة هنا، وهذه عادة يلجأ إليها
الزنوج الأمريكيون في حضور البيض [المترجم].
(٩٨) الدياسم (ج. ديسم، أي جرو الدب) فريق شيكاغو لكرة البيسبول [المترجم].
(٩٩) العمالقة فريق آخر للبيسبول. والاتحاد المشار إليه هنا هو الاتحاد الأمريكي لفرق البيسبول
[المترجم].

«إني مغرم بتلك الفتاة»، قال جورج. «ومن يلمس شعرة ____»
«هيا، اخرج من هنا»، قال كبير الطباخين. «وإلا فسينال منك أولئك الفتية الصفر».

«هذا من دواعي سروري، يا سيدي»، قال جورج. «من دواعي سروري حقاً».

«هيا، اخرج من هنا».

«إليك بفعل كياسة ولطف آخر».

مسح كبير الطباخين شفثيه وقال، «وفق الله الضيف المفارِق».

«سأعود للإفطار»، قال جورج.

«خذ ما جنيته بلا تعب»، قال كبير الطباخين، فوضع جورج الزجاجة في جيبه.

«وداعاً، أيتها النفس الزكية»، قال له.

«أذهب من هنا»، قال أحد الزوج الذين كانوا يلعبون الورق.

«وداعاً، أيها السادة»، قال جورج.

«طابت ليلتك، يا سيدي»، قال كبير الطباخين، فخرجنا.

عدنا إلى عربتنا، فنظر جورج إلى لوحة الأرقام. كان هناك رقم اثنا عشر وخمسة. سحب جورج شيئاً صغيراً للأسفل، فاختم الرقمان.

«يجدر بك أن تجلس هنا وترتاح»، قال لي.

جلست في الحمام وانتظرت، بينما مضى هو إلى آخر الممر. عاد بعد مدة قصيرة.

«الكل سعداء الآن»، قال لي. «ما رأيك في العمل في القطارات، يا جمبي؟».

«كيف عرفت اسمي؟».

«هذا ما يناديك به أبوك، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد».

«إذن؟».

«لا بأس به»، قلت له. هل «تتكلم أنت وكبير الطباخين على هذه الشاكلة دائماً؟».

«لا، يا جيمس»، قال لي. «نحن لا نتحدث هكذا إلا عندما تدب فينا الحماسة».

«بل فقط عندما تشریان»، قلت له.

«ليس هذا وحده. بل عندما تدب فينا الحماسة لأي سبب كان. أنا وكبير الطباخين روحان مؤتلفتان».

«ما هي الأرواح المؤتلفة؟».

«أناس يشتركون في رؤيتهم للحياة».

لم أقل شيئاً، فرن الجرس. خرج جورج وسحب الشيء الصغير في الصندوق، ثم عاد إلى الغرفة.

«هل رأيت بحياتك رجلاً يجرح بموسى حلاقة؟».

«لا».

«هل تحب أن أشرح لك ذلك؟».

«نعم».

رن الجرس مرة أخرى. «علي أن أذهب»، قال جورج وخرج. عاد وجلس بجانبني. «إن استخدام الموسيقى فن لا يعرفه أصحاب مهنة الحلاقة وحدهم»، قال وهو ينظر إلي. «لا تفتح عينيك هكذا»، قال لي. «أنا أشرح لك فقط».

«لست خائفاً».

«أمل ذلك»، قال لي. «فأنت هنا مع أعظم صديق لك».

«بالتأكيد»، قلت له. حسببت أنه ثمل جداً.

«هل لدى والدك المزيد من هذا؟». سألني وهو يخرج

الزجاجة.

«لا أدري».

«إن أباك مثال على نبيل الرجل المسيحي المحترم». ثم أخذ

جرعة.

لم أتفوه بكلمة.

«نعود إلى موضوع الموسيقى»، قال جورج. مد يده في جيب

معطفه الداخلي وأخرج موسى حلاقة. ثم وضعها وهي مغلقة

في راحة يده اليسرى.

كانت راحة يده وردية اللون.

«تمعن في هذه الموسيقى»، قال جورج. «إنها لا تشقى، ولا تدور

كالمغزل»^(١٠٠).

بسطها على راحة يده. كان لها مقبض عظمي أسود. فتحتها

وأمسكها بيده اليمنى وشفرتها إلى الأمام بشكل مستقيم.

«هل عندك شعرة من رأسك؟».

«ماذا تقصد؟».

«اسحب واحدة. فشعري أنا متين جداً».

سحبت له واحدة، فتناولها جورج. أمسكها بيده اليسرى

وتمعن فيها، ثم بحركة خاطفة من شفرتها قطعها إلى قطعتين.

(١٠٠) هذا اقتباس من تعريف الكاتب الأمريكي الساخر أمبروز بيرس للكلب في كتابه «قاموس الشيطان» (١٩٠٦) [المترجم].

ثم قال، «مضاء الحد». وبينما هو ينظر إلى الطرف الصغير الذي تبقى من الشعرة، أدار الشفرة في يده بحركة خاطفة في الاتجاه المعاكس. قطعت الشفرة الشعرة قريبا من إصبعه وإبهامه. «بساطة الفعل»، قال جورج. «تأكد خصلتان جدبرتان بالإعجاب».

رن الجرس، فطوى موسى وناولني إياها. «أحرس الموسيقى»، قال لي ثم خرج. نظرت إليها، ثم فتحتها وأغلقتها. كانت موسى حلقة عادية. عاد جورج وجلس بجانبني. تناول جرعة، ففرغت الزجاجاة من المشروب. نظر إليها ثم أعادها إلى جيبه.

«الموسى من فضلك»، قال لي. ناولته إياها، فوضعها في راحة يده اليسرى.

«لقد شاهدت مضاء الحد وبساطة الفعل»، قال لي. «أما ما هو أعظم من هاتين فهو تدابير الوقاية أثناء الاستخدام». أخذ الموسيقى في يده اليمنى، فنقرها نقرة خفيفة، فانفتحت الشفرة على آخرها، وحدها يتعامد على براجم أصابعه. أراني يده، كان مقبض الموسيقى في قبضته، والشفرة تتعامد على براجم أصابعه، حيث كان يثبتها في مكانها بسبابته وإبهامه. كانت الشفرة لا تتزحزح من قبضته، وحدها نحو الخارج. «هل رأيت؟». قال جورج. «والآن إلى تلك المهارة العظيمة اللازمة في الاستخدام».

نهض ومس الشفرة بيده اليمنى، وقبضته مغلقة، مسا خفيفا وهي تتعامد مفتوحة على براجم أصابعه. التمعت الموسيقى في

الشمس الآتية عبر النافذة. حنى جورج رأسه بسرعة، ثم طعن الهواء بالشفرة ثلاث مرات. خطا خطوة نحو الوراء، ثم شطب الهواء مرتين. وبينما هو يخفض رأسه ويطوق رقبتة بذراعه اليسرى، راح يكر ويفر بالشفرة التي في قبضته. شطب الهواء مرة، ومرتين، فتلاثا، فأربعا، فخمسا، فستا. ثم اعتدل. كان وجهه يتصبب عرقا، فطوى الموسيقى ووضعها في جيبه.

«تلك مهارة الاستخدام»، قال لي. «ومن الأفضل أن تكون في اليد اليسرى وسادة».

جلس ومسح وجهه. خلع قبعته ثم مسح الشريط الجلدي من الداخل. ثم ذهب ليتناول جرعة من الماء.

«إن الموسيقى وهم»، قال لي. «إنها لا تصلح للدفاع. إذ يمكن لأي شخص أن يجرحك بالموسى. وإن كنت قريبا منه بما يكفي لجرحه، فلا بد أنه سيجرحك. أما إذا كانت في يدك اليسرى وسادة، فلا خوف عليك. لكن من أين لك بالوسادة عندما تحتاج إلى الموسيقى؟ فمن ذا الذي ستجرحه وهو في سريره؟ إن الموسيقى وهم، يا جمى. إنها سلاح الزوج. سلاحهم المعهود. لكنك تعرف كيف يستخدمونها. والتطوير الوحيد الذي أدخله الزوج على استخدام هذا السلاح يكمن في تثبيتهم للشفرة إلى الوراء فوق اليد. والزنجي الوحيد الذي عرف كيف يدافع عن نفسه هو جاك جونسن، فوضعه في لقنويرث^(١٠١). وما الذي يمكنني

(١٠١) جاك جونسن (١٨٧٨ - ١٩٤٦): أول أمريكي أسود يفوز ببطولة العالم للملاكمة (١٩٠٨)، إلا أنه اضطر إلى الهرب من الولايات المتحدة عام ١٩١٢ بسبب تهم لفتت ضده (نقل المومسات البيضاء من ولاية إلى أخرى)، وعندما عاد إلى بلاده عام ١٩٢٠ اعتقل ووضع في سجن لقنويرث في ولاية كانزاس [المترجم].

أن أفعله من أجل جاك جونسن بموسى حلاقة؟ إنها لا تجدي نفعا، يا جمبي. فكل ما تملكه في هذه الدنيا هو وجهة نظر. والناس أمثالي وأمثال كبير الطباخين لديهم وجهة نظر. ويحسن بالمرء أن تكون لديه وجهة نظر حتى لو كانت خاطئة. الزنجي تتنابه الأوهام، كما انتابت العجوز جاك وماركوس غارفي، ولهذا وضعوهما في السجن^(١٠٢). انظر إلى أين ستودي بي أوهامي عن موسى الحلاقة. لا شيء له قيمة، يا جمبي. إن المشروب يجعلك تشعر بما سأشعر به بعد ساعة. أنا وأنت لا تربطنا حتى رابطة الصداقة».

«بل نحن صديقان».

«عزيزي الطيب جمبي»، قال لي. «انظر إلى تلك الصفقة التي أعطوها لهذا المسكين تايفر فلاورز. لو كان من البيض لكسب مليون دولار»^(١٠٣).

«من يكون هذا؟»

«كان ملاكما. ملاكما بارعا».

«ماذا فعلوا به؟»

«لقد غرروا به بطريقة أو بأخرى، وباستمرار».

«هذا أمر مخز»، قلت له.

«لا خير في الأمر كله، يا جمبي. النساء ينتهبنك حتى لا يتركن

(١٠٢) ماركوس غارفي (١٨٨٧ - ١٩٤٠): زعيم أمريكي أسود أصله من جامايكا، ومؤسس «حركة العودة إلى إفريقيا» التي كانت تدعو إلى رفض الاندماج في مجتمع البيض وتشجع السود على العودة إلى أوطانهم في إفريقيا. سجن العام ١٩٢٥ بتهمة التصب والاحتيال، ثم رحل إلى جامايكا عام ١٩٢٧ [المترجم].

(١٠٣) تايفر فلاورز (١٨٩٥ - ١٩٢٧)، واسمه الحقيقي ثيودور فلاورز، هو أول أمريكي أسود بعد جاك جونسن يفوز ببطولة العالم في الملاكمة، حيث فاز بالبطولة ثلاث مرات في ذات العام (١٩٢٦) [المترجم].

فيك رمقا، وإن تزوجت فزوجتك لا مستقر لها في البيت. وإن كنت تعمل في قطار، فأنت بعيد عن البيت في الليالي. والفتاة التي تريدها هي الفتاة التي ستخونك لأنها لا تستطيع أن تتمالك نفسها. أنت تريدها لأنها لا تستطيع أن تتمالك نفسها وتفقدتها لأنها لا تستطيع أن تتمالك نفسها، وقدرة الرجل على الإمتاع والاستمتاع ليست مطلقة، وأي خير في المشروب إن كان يحيلك من سيئ إلى أسوأ».

«ألا تشعر بأنك على ما يرام؟»

«لا. بل أشعر بالسوء. فلو لم أشعر بالسوء، لما تحدثت بهذه الطريقة».

«أحيانا يشعر أبي بالسوء في الصباح».

«حقا؟»

«بالتأكيد».

«وماذا يفعل؟»

«يؤدي التمارين الرياضية».

«حسن، لدي أربعة وعشرون سريرا تحتاج إلى ترتيب. ربما

الحل في ذلك».

استطال اليوم كثيرا في القطار بفعل المطر. جعل المطر نوافذ القطار مبللة بحيث لم يعد بإمكانك أن ترى ما وراءها بشكل واضح كما أنه جعل كل الأشياء تبدو متشابهة. مررنا بعدة بلدات ومدن، لكن المطر كان يهطل فيها جميعا وعندما عبرنا نهر هدرسن كان المطر ينزل بغزارة. وقفت في مدخل العربة، ففتح

جورج لي الباب كي أتمكن من النظر خارجا لكنني لم أر سوى الجسر الحديدي المبلل والمطر النازل في النهر والقطار الذي يغتسل بماء المطر. كانت تهب علينا من الخارج رائحة زكية. كان مطرا خريفيا وكان الهواء الداخل من الباب المفتوح عليلا يشبه رائحة الخشب والحديد المبللين، وكان الجو في أعلى البحيرة يشي بحلول الخريف. كان في العربة أناس كثيرون غيرنا، لكنني لم أجد أيا منهم مثيرا للاهتمام. طلبت مني امرأة مليحة المنظر أن أجلس إلى جانبها ففعلت، فإذا عندها صبي في سني تماما وكان ذاهبا إلى مكان في نيويورك كي يصير مشرفا على المدارس هناك. تمنيت لو أنني عدت مع جورج إلى المطبخ في عربة المطعم واستمعت إليه وهو يتحدث مع كبير الطباخين. بيد أن جورج كان في ساعات النهار العادية يتحدث كالأخرين، بل أقل منهم، وبأدب جم، لكنني لاحظت أنه يشرب الكثير من الماء المثلج.

توقف المطر في الخارج لكن الغيوم الكثيفة ظلت تجلج الجبال. كنا نسير بمحاذاة النهر، وكان الريف جميلا جدا لم أر مثله من قبل إلا في صور في كتاب في منزل السيدة كنوود الذي كنا نذهب إليه عند أعلى البحيرة أيام الأحد لتناول العشاء. كان كتابا كبيرا، وكنت دائما أجده على طاولة الردهة وكنت ألقبه بينما أنتظر العشاء. كانت النقوش تشبه هذا الريف الآن بعد أن هطل عليه المطر حيث النهر والجبال تصعد منه ومن الصخور الرمادية. في بعض الأحيان كان هناك قطار على الضفة الأخرى للنهر. كانت أوراق الأشجار قد اصفرت بفعل الخريف، وأحيانا

كان بإمكانك أن تسمى النهر من بين الأغصان وإن لم يبد قديما
كما هو في الصور، بل بدا مكانا يصلح للعيش حيث يمكنك أن
تصطاد السمك وتتناول غداءك وتشاهد القطار يمر من أمامك.
لكنه كان في أغلب الأحيان داكنا، غير حقيقي، حزينا، غريبا،
تقليديا كما هو في الصور. قد يكون مرد ذلك إلى المطر الذي
توقف للتو والشمس التي لم تطلع بعد. عندما تهب الريح على
الأشجار فينزع أوراقها، تدخل هذه البهجة إلى قلبك وتغريك
بالمشي فيها، بيد أن الأشجار كانت هي ذاتها وإن كانت جرداء.
لكن عندما تسقط الأوراق بفعل المطر، فهي ميتة ومبللة وتستوي
على الأرض والأشجار تتغير وتبل فتصبح متوحشة. كان المسير
بمحاذاة نهر هدسن جميلا جدا، لكنني كنت أجهل هذا النوع
من التجارب، مما جعلني أتمنى لو أننا بقينا عند البحيرة. لقد
ولدت في هذه التجربة ذات الشعور الذي ولدته في تلك النقوش
في الكتاب، فتدخل هذا الشعور مع الغرفة التي كنت دوما أقلب
الكتاب فيها، ولا سيما أنني في بيت شخص آخر أنتظر العشاء،
ومع الأشجار المبللة بعد المطر، ومع كوننا في الشمال حيث انتهى
الخريف وحلت الرطوبة والبرد واختفت الطيور ولم تعد الغابات
تغري بالمسير فيها، وليس هناك إلا الأمطار فتتمنى أن تظل في
الداخل قرب مدفأة. لا أظن أنني فكرت في كل تلك الأشياء
لأنني لم أفكر كثيرا قط، ولم تكتس أفكار بلبوس الكلمات
قط، لكن الريف الذي بمحاذاة نهر هدسن هو الذي ولد في
الإحساس بكل هذه الأشياء. إن المطر يجعل كل الأماكن غريبة،
حتى الأماكن التي تسكنها.

حمار أسود على مفترق الطرق^(١٠٤)

[١٩٨٧]

بلغنا مفترق الطرق قبل الظهر وأطلقنا النار على مدني فرنسي بطريق الخطأ. كان قد جاء راكضا عبر الحقل على يميننا من خلف البيت الريفي عندما رأى أول سيارة جيب تلوح في الأفق. أمره كلود بأن يتوقف، ولما ظل يواصل ركضه عبر الحقل أطلق رد النار عليه. كان ذلك أول رجل يقتله في ذلك اليوم، فسر سرورا عظيما.

ظننا جميعا أنه ألماني يرتدي زيا مدنيا مسروقا، فإذا به فرنسي. على أي حال، كانت لديه أوراق فرنسية تقول إنه من سواسون^(١٠٥).

«لا بد أنه كان عميلا»، قال كلود.

«لقد كان يركض، أليس كذلك؟». سأل رد. «لقد أمره كلود أن يتوقف بلسان فرنسي فصيح».

«ضعه في دفتر الصيد بصفة عميل»، قلت له. «أعد أوراقه إلى جيبه».

«ما الذي كان يفعله هنا ما دام من سواسون؟». سأل رد. «إن سواسون بعيدة بعد الجحيم وراءنا».

«لقد هرب من أمام قواتنا لأنه عميل»، قال كلود من باب الإيضاح.

(١٠٤) كتبت هذه القصة ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية و١٩٦١ [الناشر].

(١٠٥) سواسون: مدينة تقع إلى الشمال الشرقي من باريس [المترجم].

«إن له وجهاً خسيساً»، قال رد وهو يرنو إليه.
«لقد أفسدت الأمر قليلاً»، قلت له. «اسمعي، يا كلود. أعد أوراقه إلى جيبه واترك نقوده». «سيأخذها غيرنا». «لن تأخذها أنت»، قلت له. «ستجد مالا كثيراً عند الكراوتس»^(١٠٦).

بعد ذلك أخبرتهم أين يضعون المركبتين وأين يتمركزون، وأرسلت أونيزيم إلى الجهة الأخرى من الحقل ليعبر الطريقين فيدخل المقهى المغلق المصارع ليتبين ماذا جرى على طريق النجاة. وما مر على طريق النجاة على يمين الطريق ليس بالقليل. كنت أعلم أن المزيد من ذلك سيمر عليه، فقست المسافتين من الطريق إلى المصيدتين اللتين نصبناهما. كنا نستخدم أسلحة الكراوتس كي لا يتنبهوا إلى الجلبة إن سمعوها قادمة من مفترق الطرق. نصبنا المصيدتين بعيداً عن مفترق الطرق لكيلا نلوث الطريق ونحيلها إلى مسلخ. كنا نريدهم أن يصادفوا مفترق الطرق فجأة ليتوالى مجيئهم.

«إنه كمين رائع»، قال كلود، فسألني رد عن معنى ذلك^(١٠٧). قلت له إنه مصيدة كالعادة. قال رد إنه يجب أن يتذكر هذه الكلمة. راح الآن يتحدث عن فكرته عن الفرنسية لنصف الوقت

(١٠٦) كراوت (جمعها كراوتس): كلمة ألمانية وتعني حرفياً الكرب أو المظوف، لكنها في الإنجليزية تعبير قديم وذم للرجل الألماني، وقد شاع هذا التعبير خلال الحرب العالمية الثانية، وأصل الشتيمة يعود إلى كون الكرب أو المظوف المخلل أكلة شعبية عند الألمان. بمعنى آخر، تعني هذه الشتيمة «أهل المظوف» [المترجم].

(١٠٧) يبدو أن رد لا يفهم الفرنسية جيداً، لهذا يسأل الراوي أن يترجم له كلمة *guet-apens* (كمين) [المترجم].

تقريبا، ولو أعطي أمرا لربما أجاب فيما كان يظن أنه الفرنسية في النصف الثاني. كان الأمر مضحكا، فأعجبني.

كان يوما جميلا من أيام أواخر الصيف الذي لم يتبق من أيامه الجميلة إلا القليل جدا. ربضنا حيث نصبنا كمائننا وكانت المركبتان توفران لنا الحماية من خلف كومة الروث. كانت الكومة كبيرة وافرة وصلبة جدا، وكنا نريض في العشب خلف الخندق، وكانت رائحة العشب كرائحة كل الأصياف، وكانت الشجرتان تظللان كلتا المصيدتين. قد أكون نصبت الكمينين على مسافة قريبة جدا، لكن هذا غير ممكن إن كانت لديك القدرة النارية والصيد فسيأتي سريعا. إن مسافة مائة ياردة مسافة معقولة. أما خمسون ياردة فهي مسافة مثالية. لكننا كنا أقرب من ذلك. بالطبع، في هذه الأحوال يبدو الأمر دائما أقرب.

لا شك أن بعض الناس سيعترضون على هذا الكمين. لكنه كان علينا أن نحسب حساب الانسحاب والتراجع والمحافظة على نظافة الطريق إلى أبعد حد ممكن. لم يكن في اليد حيلة إزاء المركبتين، أما المركبات الأخرى القادمة فمن الطبيعي أن تظن أنها دمرت من قبل الطيران. بيد أنه في هذا اليوم بالذات لم يكن هناك طيران. لكن القادمين لن يعرفوا هذا. وأي واحد يهرب بنفسه على طريق نجاة كهذا لا بد أنه يرى الأمور بمنظار آخر كذلك.

«سيدي النقيب»، قال لي رد. «إن وصلت طلائع الجنود، ألن يطلقوا النار علينا عندما يسمعون أسلحة الكراوتس هذه؟».

«لقد وضعنا من يراقب الطريق حيث ستمر طلائع الجنود من عند المركبتين، سيرفعون لهم راية التعارف، لا تقلق».

«لست قلقا»، قال رد. «لقد أطلقت النار على عميل لا غبار على عمالته. وهو الشيء الوحيد الذي قتلناه اليوم، وسنقتل الكثير من الكراوتس في هذه المصيدة. أليس كذلك يا أوني؟».

«اللغة»، قال أونيزيم، وفي تلك اللحظة بالذات سمعنا سيارة قادمة بسرعة. رأيتهما قادمة على الطريق الذي تحفه أشجار الزان. كانت سيارة فولكس فاغن رمادية تميل إلى الاخضرار، وكانت مموهة ومحملة أكثر من طاقتها، تغص بأناس يلبسون خوذات فولاذية ويبدون كما لو كانوا يتسابقون للحاق بقطار. كنا قد وضعنا حجرتي تسديد على جانب الطريق، وقد انتزعتهم من جدار قريب من المزرعة، ولما عبرت الفولكس فاغن عقدة مفترق الطرق واتجهت نحونا على طريق النجاة الجيد المستقيم الذي يمر من أمامنا ويؤدي إلى هضبة، قلت لرد، «اقتل السائق عند الحجرة الأولى». أما أونيزيم فأمرته، «ارشقهم على ارتفاع أجسادهم».

لم يعد سائق الفولكس فاغن يتحكم في مركبته بعد أن أطلق رد عليه النار. منعته خوذته من رؤية تعبيرات وجهه. ارتخت يدها. لا هما تشنجتا ولا هما أمسكتا بالمقود. راح المدفع الرشاش يطلق نيرانه قبل أن ترتخي يدا السائق، فاندفعت السيارة نحو الخندق وقذفت ركابها بحركة بطيئة. انكفأ بعضهم على الطريق، فأمطرتهم المجموعة الثانية بوابل صغير من النيران ادخرته لهم خصيصا. تدرج أحدهم وراح آخر يزحف، وبينما أنا أراقب أطلق كلود عليهما النار فأصاب كليهما.

«أعتقد أنني أصبت ذلك السائق في رأسه»، قال رد .
«لا تدع الخيال يجنح بك بعيدا» .
«إنها تطلق إلى الأعلى قليلا من هذه المسافة»، قال رد . «لذلك
سددت على أسفل جزء رأيته منه» .
«برتراند، أزيحهم أنت وجماعتك عن الطريق من فضلك»،
ناديت على المجموعة الثانية. أحضر إلي كل سجلات الرواتب
واحفظ بالمال من أجل تقاسمه. أزيحهم بسرعة. هيا، اذهب
يا رد وساعدهم. ألقوا بهم في الخندق» .
أثناء عملية الإخلاء كنت أراقب الطريق من الغرب خلف
المقهى. أنا لم أراقب عملية إخلاء قط ما لم أشارك فيها
شخصيا. إذ إن مراقبتها أمر سيئ. طبعاً، ليست مراقبتها أقل
سوءاً على غيري، لكنني أنا القائد .
«كم أصبت منهم يا أوني؟» .
«أظن كل الثمانية. أقصد، ضربتهم» .
«من هذه المسافة _____»
«لم يكن الأمر نزهة. لكن الفضل يعود في نهاية المطاف إلى
رشاشهم» .
«علينا أن نستعد سريعا مرة أخرى» .
«لا أعتقد أن المركبة أصيبت بأضرار بالغة» .
«سننتفحصها لاحقا» .
«استمع»، قال لي رد . استمعت إليه ثم أطلقت صفارتي مرتين
وانكفأ الجميع، بينما كان رد يسحب آخر كراوت من رجله وكان رأسه
يرتجف، ثم نصبنا المصيدة من جديد. لكن أحدا لم يأت، فقلقت .

لقد نصبنا مصيدتنا من أجل عملية قتل بسيطة على جانبي طريق النجاة. من الناحية الفنية، لم تكن على جانبي الطريق لأنه لم يكن لدينا ما يكفي من الرجال لنصب المصيدة على جانبي الطريق، كما أننا، من الناحية الفنية أيضا، لم تكن مستعدين للتعامل مع المركبات المدرعة. لكن كان عندنا في كل مصيدة مدفعان ألمانيان مضادان للدبابات. كانت هذه المدافع أكثر فعالية وبساطة من البازوكا^(١٠٨) الأمريكية العادية، إذ إن لها رأسا حريبيا أكبر، ويمكنك أن تتخلص من أنبوبة الإطلاق، بيد أن كثيرا مما وجدناه مؤخرا من مخلفات الانسحاب الألماني كان إما مفخخا وإما مخريا. لذلك لم نستخدم إلا أحدث ما هو موجود في السوق، وكنا دائما نطلب من أحد الأسرى الألمان أن يجرب بعض العينات المنتقاة عشوائيا.

كان الأسرى الألمان الذين أسرتهم القوات غير النظامية في أغلب الأحيان متعاونين كأنهم من كبار الندل أو الدبلوماسيين الصغار. وبصورة عامة كنا ننظر إلى الألمان كما لو كانوا كشافة منحرفين. هذا يعني أنهم كانوا جنودا رائعين. أما نحن فلم تكن كذلك. نحن متخصصون في مهنة قذرة. في الفرنسية كنا نقول، «آن متيير تري سال» [مهنة قذرة جدا].

كنا نعلم، من تحقیقاتنا المتكررة، أن كل الألمان الذين يسلكون طريق النجاة هذه كانوا يقصدون آخن^(١٠٩)، وكنت أدرك أن ما نقله منهم الآن لن يضطر لمقاتلتهم في آخن ولا خلف الجدار

(١٠٨) البازوكا: سلاح خفيف مضاد للمدرعات يحمل على الكتف [المترجم].
(١٠٩) آخن: مدينة ألمانية قريبة من المثلث الحدودي الألماني - البلجيكي - الهولندي [المترجم].

الغربي. هكذا هو الأمر ببساطة، وأنا أكون سعيدا عندما تكون الأمور بهذه البساطة.

جاء الألمان الذين رأيناهم الآن على دراجات هوائية. كانوا أربعة، وكانوا مستعجلين، لكنهم كانوا في غاية الإعياء. لم يكونوا جنودا على دراجات نظامية. بل مجرد ألمان يركبون دراجات مسروقة. رأى أولهم الدم الجديد على الطريق، فأدار رأسه ورأى المركبة، ثم وضع كل ثقل جسمه على دواس الدراجة الأيمن بفردة حدائه اليمنى، ففتحنا النار عليه وعلى الآخرين. إن رؤية إنسان تطلق عليه النار فتريده من على ظهر دراجته مدعاة للحزن بلا شك، بيد أنها لا تساوي رؤية حصان يتردى برصاصة وعلى ظهره رجل، أو رؤية بقرة حلوب تصاب في أحشائها وهي تعبر ميدانا تتراشقه النيران. لكن هناك شيئا من المتعة في إرداء رجل عن دراجته من مسافة قريبة. كان هؤلاء أربعة رجال وأربع دراجات. كان الأمر في غاية المتعة، إذ كان بإمكانك أن تسمع تلك الجلبة المأسوية الحادة التي أحدثتها الدراجات وهي تتقلب على الطريق، وذلك الصوت الثقيل للرجال وهم يسقطون، وفرقة عتادهم.

«أزيجوهم عن الطريق بسرعة»، قلت لهم. «وخبئوا الدراجات الأربع».

وعندما التفت لأراقب الطريق، انفتح أحد أبواب المقهى، وخرج منه مدنيان يرتدي كل منهما قبعة وثياب عمل، وبيد كل منهما زجاجتان. جاءا يتمايلان من الجهة الأخرى لمفترق الطرق، ثم انعطفا ليأتيا في الحقل من خلف الكمين.

كان كلاهما يرتدي كنزة، ومعطفا عتيقا، وينطلون كوردروي^(١١٠)،
وحذاء ريفيا .

«أمن لهما الحماية، يا رد»، قلت له . كانا يتقدمان بخطوات
ثابتة، ثم رفعنا الزجاجات عاليا فوق رأسيهما، كل واحدة بيد .
«انبطحا، بحق المسيح»، ناديت عليهما، فانبطحا وجاءا
يزحفان بين الحشائش، وقد وضعنا الزجاجات تحت آباطهم .
«نحن أصحابكم»، قال أحدهما بصوت عميق ينز منه المشروب .
«تقدما، يا أصحابنا اللاهين، وعرفا بنفسيكما»، نادى عليهما
كلود .

«ها نحن نتقدم» .
«ما الذي تفعلانه هنا في هذا المطر؟». سألهما أونيزيم .
«جلبنا لكما هدايا صغيرة» .
«ولماذا لم تعطيانى هذه الهدايا الصغيرة عندما كنت هناك؟» .
سألهما كلود .

«آه، لقد تغيرت الأمور، يا رفيق» .
«نحو الأفضل؟» .
«تقريبا»، قال الرفيق الأول الثمل . أما الآخر، الذي ناولنا
إحدى زجاجتيه وهو منبطح، فقد سأل بصوت مجروح،
«ألا ترحبون بالرفاق الجدد؟» .

«مرحبا بكما»، قلت له . «هل تريد أن تقاتل؟» .
«إن دعت الحاجة إلى ذلك . لكننا جئنا لنسأل إن كان بإمكاننا
أن نأخذ الدراجات» .

(١١٠) الكوردروي: قماش قطني متين مضلع مخملي الزغب [المترجم].

«بعد المعركة»، قلت له. «هل أدیتما الخدمة العسكرية؟».

«طبعاً».

«لا بأس. ليأخذ كل منكما بندقية ألمانية وعلبتي ذخيرة،
واذهبا على مسافة مائتي ياردة إلى أعلى الطريق وإلى يمينكما.
اقتلا أي ألماني يمر من أمامنا».
«ألا يمكننا أن نبقى معكما؟».

«نحن متخصصون»، قال لهما كلود. «نفذا ما يقوله لكما
النقيب».

«هيا انهضا وانتقيا مكانا جيدا ولا تسددا نيرانكما إلى هذه
الجهة».

«ضعا هذه الشرائط على ذراعيكما»، قال لهما كلود. كان
جيبه مملوءا بهذه الشرائط. «أنتما الآن فران تيرور»^(١١١) ولم
يكمل البقية^(١١٢).

«وبعد ذلك يمكننا أن نأخذ الدراجات؟».

«لكل منكما واحدة إن لم تقاتلا، واشتان إن قاتلتما».

«وماذا بشأن النقود؟». سألني كلود. «إنهما يستخدمان
بنادقنا».

«دعهما يحتفظا بالنقود».

«لكنهما لا يستحقانها».

(١١١) فران تيرور (Franc-tireurs): مصطلح فرنسي يعنى حرقيا «قناصة أحرار» وهذا المصطلح يطلق على القوات غير النظامية التي تشارك في العمليات القتالية طوعا [المترجم].
(١١٢) الذي يقصده الراوي هنا هو أن كلود أخفى عن هذين الرجلين حقيقة ما سيقرب على هذه الصفة شبه العسكرية التي اكتسبها لفرورهما، أي أنهما، بموجب الأعراف العسكرية السارية في تلك الفترة، لن يتمتعوا بوضع «أسرى حرب» إن أسرا. وفي الحروب الألمانية - الفرنسية السابقة شواهد على الوحشية التي تعامل بها الألمان مع أمثال هؤلاء المتطوعين الأحرار [المترجم].

«جئني بأي نقود وخذ حصتك منها. هيا بسرعة. استعجل».
«هذان فاقدان للوعي متعفنان»، قال كلود.
«كان فاقدو الوعي موجودين أيام نابليون أيضا».
«هذا محتمل».

«بل إنه أكيد»، قلت له. «لا تحمل الأمر أكثر مما يجب».
ظللنا ننبطح بين الحشائش التي تهب علينا منها رائحة
الصيف الحقيقية، وراح الذباب، العادي والأزرق الكبير، يتقاطر
على الموتى في الخندق، وكانت هناك فراشات تحوم على أطراف
برك الدم المراق على الطريق الأسود سطحه. كانت هناك
فراشات صفراء وفراشات بيضاء حول الدم والخطوط التي
خلفتها الجثث وهي تسحب.
«لم أكن أعلم أن الفراشات تأكل الدم».
«ولا أنا».

«طبعاً، عندما نذهب للصيد يكون الطقس باردا بحيث تختفي
معه الفراشات».
«عندما نذهب للصيد في وايومنغ، تكون السناجب وكلاب
المروج قد أوت إلى جحورها. هذا في الخامس عشر من
سبتمبر».

«سأراقب لأرى إن كانت ستأكله حقا»، قال رد.
«هل تريد أن تأخذ نظارتي؟».

ظل يراقبها لبعض الوقت، ثم قال، «علي اللعنة إن عرفت أمر
هذه الفراشات مع الدم. لكن الشيء الأكيد هو أنه يجتذبها».
ثم التفت إلى أونيزيم وقال، «اللعنة على الكراوتس المساكين،

يا أوني. لا مسدس ولا منظار. اللعنة على كل شيء». «لدينا ما يكفي من النقود»، قال له أونيزيم. «من ناحية النقود لا خوف علينا».

«ولا مكان لعينا ننفقها فيه».

«إن غدا لناظره قريب».

«ولكنني أريد أن أنفقها الآن»، قال رد.

فتح كلود إحدى الزجاجةتين بمفتاح الزجاجات الذي في سكين الكشافة الألمانية التي لديه. شمها ثم ناولني إياها. «إنه مشروب».

كانت المجموعة الأخرى تتقاسم حصتها. كانت هذه المجموعة من أفضل أصدقائنا، لكننا ما إن افترقنا حتى بدوا كالأخرين، وبدأت المركبات كالتابور الخلفي. إنكم تفترون بسهولة، قلت في نفسي. وأنت تريد أن تراقب ذلك. هذا شيء آخر يمكنك أن تراقبه. أخذت جرعة من الزجاجة. كان مشروباً قوياً جافاً، ليس فيه سوى حدة لاذعة. أرجعت الزجاجة إلى كلود، فأعطاهها إلى رد الذي اغرورقت عيناه بالدموع عندما أخذ رشفة منها.

«مهم يصنعون هذا المشروب في هذه النواحي، يا أوني؟».

«من البطاطا، على ما أظن، ومن قشارة حوافر الخيل التي يحصلون عليها من دكان الحداد».

ترجمت هذا الكلام لرد، فقال، «لا أحس إلا بطعم البطاطا».

«إنهم يعتقدونه في براميل المسامير الصدئة ويضعون فيه بضعة مسامير عتيقة لإعطائه هذه النكهة اللاذعة».

«يجدر بي أن آخذ رشفة أخرى لأغسل بها فمي من طعم هذا المشروب»، قال رد. «سيدي النقيب، هل سنموت معاً؟»
 «صباح الخير، يا عالم»، قلت له. كانت هذه نكتة قديمة نتداولها عن جزائري سئل، قبيل إعدامه بالمقصلة على الرصيف خارج السانتيه، إن كان لديه ما يقوله، فرد بتلك العبارة.
 «بصحة الفراشات»، قال أونيزيم وهو يشرب.
 «بصحة براميل المسامير»، رد كلود وهو يرفع زجاجته.
 «استمعوا»، قال رد، ثم ناولني الزجاجاة. سمعنا جميعاً صوت مركبة مجنزرة.

«هذه هي جائزتنا الكبرى اللعينة»، قال رد. «في سبيل الوطن، إما جائزة كبرى لعينة، وإما الموت»^(١١٣). راح يغني بصوت خفيض، إذ لم يعد ينفعه عصير برميل المسامير. أخذت جرعة أخرى كبيرة من مشروب العصير، بينما كنا نكمن ونراقب كل شيء إلى أعلى الطريق على يسارنا. ثم لاحت للعيان. كانت عربة نصف مجنزرة كراوتية، لا مكان فيها إلا لمن يقف لشدة ما حشرت بالرجال.

عندما تتصب كمينا على طريق نجاة، يكون عندك أربعة أو - إن توافرت - خمسة ألغام من نوع تلر ذات الأذرع مزروعة على الجانب الأقصى للطريق. وهذه تشبه طاوولات الشطرنج المستديرة وهي أكبر من أطباق الشورية والصفدع المقرص

(١١٣) هذه ترجمة ظنية، إذ إن رد يمزج في هذه الجملة بين الإنجليزية والألمانية والفرنسية المهشمة التي لا يتقنها. فهو يقول بالفرنسية le more، ويبدو أنه يقصد le mort (أي الموت)، حيث تتشابه الكلمتان إلى حد ما في اللفظ. ولا شك أن همنغواي يريد هنا أيضاً أن يعلق على لفظ بعض الأمريكيين للغة الفرنسية بلكنة أمريكية، مما يوقع السامع (أو القارئ في هذه الحال) في شيء من الالتباس [المترجم].

في سماكتها المميّنة. تزرع هذه الألغام على شكل نصف دائرة، ثم تغطى بالعشب المقصوص وتربط فيما بينها بواسطة سلك ثقيل مطلي بالقطران يمكن شراؤه من أي شماع للسفن. يشد أحد طرفي هذا السلك إلى معلم كيلومتری، يسمى الحد، أو بعشر المعلم الكيلومتری، أو أي جسم صلب آخر، ثم يمرر على نحو مرتخ فوق الطريق، ثم يلف عند الجزء الأول أو الثاني من الكمين.

كانت العربة القادمة الفائزة الحمولة من النوع الذي ينظر سائقها من فتحات صغيرة، وكان واضحا أن رشاشاتها موجهة الآن في وضعية مضادة للطيران. كنا جميعا نراقبها وهي تقترب منا، وتفص بما حملت. كانت محملة بقوات الإس إس المقاتلة^(١١٤)، وصار بإمكاننا الآن أن نرى ياقاتهم، ثم برزت وجوههم أكثر فأكثر.

«شد السلك»، ناديت على المجموعة الثانية، وبينما كان السلك ينشد خرجت الألغام من شبه الدائرة التي كانت فيها ثم عبرت الطريق، وبدت في ناظري ليس أكثر من ألغام تُلر المغطاة بالعشب الأخضر.

سيصير بإمكان السائق الآن أن يراها فيتوقف، أو يتابع مسيره فيصطدم بها. عليك ألا تهاجم عربة مدرعة وهي تتحرك، لكنه إن توقف فيمكنني أن أضربه بالبازوكا الألمانية ذات الرأس الكبير. جاءت نصف المجنزرة مسرعة جدا، فصار بإمكاننا أن نرى الوجوه جليا. كانوا جميعا ينظرون إلى الطريق أمامهم الذي

(١١٤) قوات الإس إس هم أفراد الفرقة الثانية عشرة في الجيش الألماني، وكانت تعرف أيضا باسم «شبيبة هتلر» نظرا إلى صغر سن أفرادها، وأغلبهم من المتطوعين [المترجم].

ستسلكه طلائع الجنود. كان كلود وأوني شاحبي اللون، وكان رد يعاني من اختلاج في وجنته. أما أنا فشعرت بالخواء كعادتي. عندئذ لاحظ أحدهم في نصف المجنزرة الدم وعربة الفولكس فاغن والجثث في الخندق. راحوا يتصايحون بالألمانية، ولا بد أن السائق والضابط الذي معه لاحظا الألفام التي تعترض طريقهم، إذ توقفا وقوفا مفاجئاً كادت أن تتقلب معه العربة، ثم راحا يتراجعا عندما أصابت البازوكا عربتهم. أصيبت عربتهم بينما كانت المجموعتان تطلقان النار عليها من المصيدتين. كان لدى ركاب نصف المجنزرة ألفام أيضا، فكانوا يهرعون لينصبوا متراسا على الطريق لكي يؤمنوا الحماية لمن مر منهم لأنه عندما أصابت البازوكا الكراوتية العربة وقذفتها إلى الأعلى، أخفضنا رؤوسنا، وأمطرتنا بوابل غزير من الحديد وأشياء أخرى. تفقدت كلود وأوني ورد، وكانوا جميعا يطلقون النار. أنا أيضا كنت أطلق النار من رشاش شمايزر على فتحات العربة، وكان ظهري مبللا ورقبتي معفرة، لكنني رأيت ما أمطرنا به. لم أفهم لماذا لم تتفجر العربة بشكل عرضاني أو تتقلب. لكنها انفجرت وهي ترتفع في الهواء. كان الخمسينيون^(١١٥) من العربة يطلقون النار، وكان الضجيج يصم الآذان. لم يظهر أحد من نصف المجنزرة، فظننت أن الأمر انتهى وهممت أن أومئ للخمسينيين بأن يكفوا عن الإطلاق، لكن واحدا قذف قنبلة مسمارية من داخل نصف المجنزرة فانفجرت بعيد حافة الطريق.

(١١٥) يتضح هنا أن همنغواي يلجأ إلى أسلوب المجاز المرسل، إذ يكتي عن العربات المدرعة (بل أحيانا حتى عن الرجال العاملين عليها) بأرقام طرازاتها [المترجم].

«إنهم يقتلون موتاهم»، قال كلود. «هل يمكنني أن أصعد إلى عربتهم وألقي فيها قنبلتين؟».

«يمكنني أن أرميها بقذيفة أخرى».

«لا. فقذيفة واحدة تكفي. لقد أصبح ظهري كله موشوما».

«لا بأس. عليك بها».

راح يتقدم زاحفا كالثعبان بين الحشائش وتحت نيران الخمسينيين، فنزع مسمار الأمان من القنبلة وأمسكها بيده وهي تطلق دخانا رماديا، ثم ألقاها على جانب نصف المجنزرة. انفجرت مطلقة فرقعة مرعبة، وكان بإمكانك أن تسمع الشظايا ترتطم بدرع التصفيح.

«هيا، اخرجوا»، قال كلود بالألمانية. راح مسدس رشاس يطلق النار من فتحة العربة اليمنى. أصاب رد هذه الفتحة بطلقتين. أطلق المسدس مرة أخرى. كان واضحا أنه يطلق من غير تسديد.

«هيا، اخرجوا»، قال كلود. أطلق المسدس مرة أخرى، مصدرا صوتا يشبه صوت خبط الأولاد لسياج من الأوتاد بعضا. رددت عليه بنار من سلاحه الذي أصدر ذات الصوت السخيف.

«هيا، عد يا كلود»، قلت له. «سدد على إحدى الفتحتين، يا رد، وأنت على الأخرى، يا أوني».

عندما عاد كلود مسرعا قلت، «اللغة على ذلك الكراوت. سنستخدم قذيفة أخرى. يمكننا أن نحصل على المزيد، وطلائع القوات قادمة في كل الأحوال».

«هذه هي مؤخرة جنودهم»، قال أوني. «هذه العربة».

«هيا اقدفها»، قلت لكلود. قذفها بقذيفة حطمت مقصورتها الأمامية، فاندفعوا إلى داخلها بحثا عما تبقى من المال وسجلات الرواتب. تناولت جرعة من المشروب وأومات للخمسينيين. كان الخمسينيون يهزون أيديهم فوق رؤوسهم كالمقاتلين. عندئذ قعدت وأسندت ظهري على جذع شجرة لأفكر وأراقب الطريق.

جلبوا ما وجدوه من سجلات الرواتب، فوضعتها مع غيرها في كيس قنب. لم يكن أي من السجلات جافا. وجدنا مالا كثيرا، وكان مبللا أيضا، وقام أوني وكلود والآخرين بقطع الكثير من شعارات الإس إس، وجاءوا بمسدسات صالحة وغير صالحة، ووضعناها جميعا في كيس القنب ذي الشرائط الحمراء.

لم ألمس النقود قط. كان هذا شأنهم، وعلى كل حال فقد كنت أعتقد أن لمسه نذير شؤم. لكن كان هناك الكثير من مال الغنم^(١١٦). أعطاني بيرتراند صليبا حديديا من الدرجة الأولى، فوضعت في جيب قميصي. احتفظنا ببعض منها لبعض الوقت، لكننا أهديناها جميعا. لم أكن أرغب قط في الاحتفاظ بشيء، لأن في ذلك مجلبة للشؤم في النهاية. ظلمت أحتفظ ببعض الأشياء مدة من الزمن، وكنت أتمنى أن أرسلها لاحقا إلى وطني أو أعيدها إلى عائلاتهم.

بدأت المجموعة كأبلا من الأشلاء نزل عليها إثر انفجار في مسلخ، ولم يكن الآخرون أحسن حالا عندما خرجوا من جوف نصف المجنزرة. لم أدرك سوء منظري إلا عندما رأيت أسراب الذباب تحوم حول ظهري ورقبتي وكنتفي.

(١١٦) مال الغنم: مال يجنى من بيع الفئائم ويوزع على الضباط الذين استولوا على هذه الفئائم [المترجم].

كانت نصف المجنزرة تجثم في وسط الطريق، مما جعل كل عربة تمر تخفف سرعتها. أصبح الجميع أغنياء الآن، ولم نفقد أيًا منا، وأصبح المكان خربا. صار لزاما علينا أن نحارب في يوم آخر، وكنت متأكدا أن هذه كانت مؤخرة جنودهم وأن من سنصادفهم الآن إما ممن ضلوا طريقهم أو تعثر بهم الحظ.

«فكك الألفام واحمل كل شيء، وسنعود إلى بيت المزرعة حيث سنفتسل. وبإمكاننا أن نقطع الطريق على أعدائنا من هناك، تماما كما ينص الكتاب».

جاءوا وقد كسبوا غنائم كثيرة وكان الكل شديد الفرح. تركنا العربات حيث هي، واغتسلنا على المضخة في باحة المزرعة، ووضع رد اليود على الجروح والخدوش التي أحدثتها الشظايا، ثم ذر مسحوق السلفا على أوني وكلود وعلي، ثم قام كلود بمعالجة رد.

«أليس لديهم مشروب في ذلك البيت؟». سألت رينيه.

«لا أعرف. لقد كنا مشغولين».

«اذهب واستطلع».

وجد بعض الزجاجات من المشروب الأحمر الصالح للشرب، فجلست وتفقدت الأسلحة وأطلقت النكات. كان لدينا نظام صارم لكن من دون رسميات، ما لم نكن في مقر الفرقة أو رغبتنا في التباهي.

«فرصة أخرى تضيع»، قلت لهم. وكانت هذه مزحة قديمة جدا، وهي عبارة كان يرددها نصاب كان معنا مدة عندما كنت أترك شيئا لا قيمة له يمر طمعا في شيء أؤمن منه.

«هذا فضيع»، قال كلود.
«إنه لا يطاق»، قال ميشيل.
«أما أنا فلا أستطيع أن أذهب أبعد من هذا»، قال أونيزيم.
«أما أنا، فأنا فرنسا عينا»، قال رد.
«هل أنت محارب؟». سأله كلود.
«لا، بل أنا القائد»، أجابه رد.
«هل تحارب؟». سألتني كلود.
«لا».
«ولماذا قميصك ملطخ بالدم؟».
«كنت أحضر ولادة عجل».
«وهل أنت قابلة أو طبيب بيطري؟».
«لا أستطيع أن أعطيك سوى اسمي، ورتبتي، ورقمي
المتسلسل».
شرينا مزيدا من الخمر وراقبنا الطريق وانتظرنا مقدم طلائع
القوات.
«أين طلائع القوات اللعينة؟». سأل رد.
«لست مطلعاً على أسرارهم».
«أنا سعيد لأنهم لم يأتوا بينما كنا نرتب أمورنا»، قال أونيزيم. «قل،
يا سيدي النقيب، كيف كان شعورك وأنت تطلق القذيفة؟».
«شعرت بخواء شديد».
«بماذا كنت تفكر؟».
«كنت أدعو الله ألا تسيح».
«لقد كنا بلا شك محظوظين لأنهم كانوا محملين بالمتاع».

«أو لأنهم لم يتراجعوا ويعيدوا انتشارهم».
«لا تفسد علي عصري هذا»، قال مارسيل.
«اثان من الكراوتس على دراجتين، قادمان من الغرب»، قال
رد.

«شابان جريئان».

«فرصة أخرى تضيع»، قال أوني.

«هل يريدكما أي منكم؟».

لم يبد أحد رغبة فيهما. كانا يثابران في سيرهما، ويكبان
على دراجتيهما، وكانت جزمتهما أكبر بكثير من الدواسات.
«سأجرب واحدا منهما بالإم ون»، قلت لهم. ناولني أوغست
البندقية وانتظرت حتى تجاوز راكب الدراجة الألماني الأول
نصف المجنزرة وابتعد عن الأشجار، فسدت عليه، وأطلقت،
لكنني أخطأته.

«ليس جيدا»، قال رد، فحاولت من جديد وقد أطلقت على
مسافة أمامه أبعد من قبل. سقط الألماني بذات الطريقة التي
تنفطر لها القلوب وتذهل لها العقول ورقد في الطريق وقد
انقلبت الدراجة رأسا على عقب، وظلت إحدى عجلتيها تدور في
الهواء. واصل الدراج الآخر مسيره، وفجأة راح صاحباننا يطلقان
عليه النار. سمعنا دوي رصاصهم الذي كان بلا تأثير على الدراج
الذي ثابر في مسيره حتى توارى عن الأنظار.

«لا خير في صاحبينا هذين»، قال رد.

ثم رأينا صاحبينا ينسحبان لينضمّا إلى بقية المجموعة. خجل
الفرنسيون في المجموعة واستاءوا منهما.

«ألا يمكننا أن نقتلهما؟». سألني كلود.
«لا».

«فرصة أخرى تضيع»، قال أوني، فطاب خاطر الجميع، لكن ليس كثيرا.

جاء صاحبنا الأول يحمل زجاجة تحت قميصه برزت عندما توقف وقدم سلاحه، وقال، «سيدي النقيب، لقد أحدثنا مجزرة حقيقية».

«أخرس، وناولني سلاحك»، قال له أوني.
«ولكننا كنا ميمنة الهجوم»، قال صاحبنا بصوته الثمل.
«بل أنت زبالة، أيها المدمن الحقيقي»، قال له كلود. «أخرس واغرب عن وجهي».
«ولكننا قاتلنا».

«هيا، اغرب عن وجهي». قال له مارسيل.
«ألا يمكننا أن نقتلهما؟». سألني رد. وقد حفظه كالبيغاء^(١١٧).

«أخرس أنت أيضا»، قلت له. «كلود، لقد وعدتهما دراجتين».
«هذا صحيح»، قال كلود.
«أنا وأنت سنذهب ونعطيهما أسوأ دراجتين، ونخلي الكراوت والدراجة. وأنتم تقطعون الطريق على العدو».
«لم تكن الأمور تجري على هذا النحو في الماضي»، قال أحد صاحبينا.

(١١٧) كان رد قد سأل النقيب بالفرنسية إن كان بإمكانهم أن يقتلوا المتطوعين الثملين، ونظرا إلى أنه غير متمكن من هذه اللغة، فقد نسخ سؤاله من سؤال كلود المذكور قبل بضعة أسطر، وهذا معنى قول النقيب «وقد حفظه كالبيغاء» [المترجم].

«لن تجري الأمور بعد اليوم كما في الماضي. وعلى أي حال، أظنك كنت ثملا في الماضي».

توجهنا أولا إلى الألماني الملقى على الطريق. لم يكن ميتا لكن الرصاصة اخترقت كلتا رئتيه. حملناه بأقصى ما استطعنا من رفق وأضجعناه بأقصى ما استطعنا من راحة، ثم خلعت رداءه وقميصه، وذررنا مسحوق السلفا على جراحه، وقام كلود بتضميده. كان له وجه جميل ولم يكن يتجاوز السابعة عشرة. حاول أن يتحدث لكنه عجز عن الكلام. كان يكابر كما يجب عليه أن يفعل في مثل هذه الأحوال حسبما سمع.

جاء كلود برداءين من الأموات ووسد رأسه عليهما. ثم مسح على رأسه، وأمسك يده ليجس نبضه. لم يكن الغلام يزيج ناظريه عنه لكنه كان عاجزا عن الكلام، فانحنى عليه كلود وقبله على جبينه. «أبعدا الدراجة عن الطريق»، قلت لصاحبيينا.

«ست پوتان كير»، قال كلود [بالفرنسية]. «تبا لهذه الحرب السافلة».

لم يكن الغلام يعلم أنني أنا من أصابه، ولذلك لم يكن يخشاني دون سواي، فجلسست نبضه أيضا، وأدركت لماذا فعل كلود ما فعل. كان علي أن أقبله لو كان في أي خير. كان ذلك واحدا من تلك الأشياء التي تغفلها، فيلازمك هذا الطبع طوال حياتك. «أريد أن أبقى معه لفترة قصيرة»، قال كلود.

«شكرا جزيلا لك»، قلت له. ذهبت إلى حيث كنا نخبئ الدراجات الأربع خلف الأشجار، فوجدت صاحبيينا واقفين هناك مثل غرابين.

«خذنا هذا وذاك واغريا عن وجهي». ثم جردتهما من
شرائطهما ووضعتها في جيبتي.
«ولكننا قاتلنا، وهذا ثمنه اثنان».
«اغريا عن وجهي»، قلت لهما. «هل سمعتما ما قلت؟ اغريا
عن وجهي».
انفضا عني وقد خابت آمالهما.
خرج صبي يناهز الرابعة عشرة من الحانة وطلب مني أن
أعطيه الدراجة الجديدة.
«لقد أخذوا دراجتي صباح هذا اليوم».
«لا بأس. خذها».
«وماذا عن الدراجتين الآخرين؟».
«هيا، ابتعد من هنا وتجنب الطريق إلى أن يأتي الطابور إلى
هنا».
«ولكنكم أنتم الطابور».
«لا»، قلت له. «للأسف لسنا نحن الطابور».
ركب الصبي الدراجة التي لم تتعرض لأي أضرار واتجه نحو
الحانة. مشيت عائدا إلى البيت الريفي تحت لهيب هذه السماء
الصيفية لأنتظر مقدم طلائع الجنود. لم أكن أتصور أن حالي
يمكن أن تكون أسوأ مما هي عليه. لكنها يمكن أن تكون كذلك
بلا شك. هذا وعد مني لكم.
«هل سنذهب إلى البلدة الكبيرة هذه الليلة؟». سألني رد.
«طبعاً. إنهم يستولون عليها في هذه اللحظة، آتين إليها من
الغرب. ألا تسمع ذلك؟».

«طبعاً. بإمكان المرء أن يسمع ذلك منذ الظهيرة. هل هي بلدة جيدة؟».

«ستراها حالما يصل الطابور وننضم إليه ونسير على هذا الطريق ونتجاوز المقهى». أريته على الخريطة. «يمكنك أن تراها بعد ميل تقريباً. هل ترى المنحنى قبل أن تهبط؟».

«هل لا يزال أمامنا قتال؟».

«ليس اليوم».

«هل لديك قميص آخر؟».

«إنه أسوأ حالاً من هذا».

«لا يمكن أن يكون أسوأ حالاً من هذا. سأغسل هذا القميص. إن اضطررت لارتدائه وهو مبلل، فلن تتعرض للأذى في مثل هذا اليوم اللاهب. هل تشعر بالضيق؟».

«أجل، جداً».

«ما الذي يؤخر كلود؟».

«إنه يواسي الغلام الذي أصبته، حتى يموت».

«هل هو غلام؟».

«نعم».

«اللغة».

بعد مدة جاء كلود ومعه الدراجتان، ثم ناولني بطاقة هوية الغلام.

«دعني أغسل لك قميصك أيضاً، يا كلود. لقد غسلت قميصي وقميص أوني، وقد كادا يجفان».

«شكرا جزيلا لك، يا رد»، قال كلود. «هل تبقى من المشروب شيء؟».

«لقد وجدنا المزيد منه وبعض النقانق».

«جيد»، قال كلود. لقد أصاب هو أيضا الحمار الأسود إصابة مميتة.

«سنذهب إلى البلدة الكبيرة بعد أن يلحق بنا الطابور. يمكنك أن تراها على مسافة أكثر من ميل من هنا»، قال له رد.

«لقد رأيتها من قبل»، قال له كلود. «إنها مدينة جيدة».

«انتهينا من القتال لهذا اليوم».

«سنقاتل غدا».

«ربما لن نضطر إلى ذلك».

«ربما».

«ابتهج».

«أخرس. أنا مبتهج».

«حسن»، قال رد. «خذ هذه الزجاجاة والنقانق وسأغسل

القميص في ملح البصر».

«شكرا جزيلا لك»، قال له كلود. تقاسمنا ما عندنا سواء

بسواء فلم يرض أحد منا بقسمته.

مشهد مأهول^(١١٨) [١٩٨٧]

كان أمر ذلك البيت في غاية الغرابة. طبعاً، لم يعد المصعد يعمل. التوى العمود الفولاذي الذي كان ينزلق عليه في الصعود والهبوط، وتهشم عدد من الدرجات الرخامية في أضلاع الدرج الستة، ما يضطرك إلى المشي بحذر على الأطراف وأنت تصعد حتى لا تسلت من بينها. كانت هناك أبواب تتفتح على غرف لم تعد موجودة، وكان في إمكانك أن تفتح باباً سليم المظهر تماماً وتعبّر عتبته، فإذا بك تمشي في الفضاء، لأن هذا الطابق والطوابق الثلاثة الأخرى تحته قد نسفت من واجهة العمارة الشقية بقذائف شديدة الانفجار أصابتها إصابات مباشرة. لكن في الطابقين العلويين كانت هناك أربع غرف سليمة في واجهة البناية، وظلت المياه جارية في الغرف الخلفية في كل الطوابق. أطلقنا على هذا البيت اسم «بيت العائلة القديم».

كان خط الجبهة، في أسوأ اللحظات، يقع تحت هذه العمارة الشقية مباشرة، محاذياً الحافة العليا للسهل الصغير الذي يلتف حوله الشارع العريض، وكان الخندق وأكياس الرمل التي اهترأت بفعل العوامل الجوية لا تزال هناك. كانت قريبة جداً بحيث يمكنك، وأنت واقف على إحدى الشرفات، أن ترمي فيها

(١١٨) «مشهد مأهول»: اسم قصة عن الحرب الأهلية الإسبانية، وقد كتبت نحو سنة ١٩٣٨، وكانت إحدى القصص القصيرة التي اقترح همنغواي أن يدرجها ضمن مجموعة جديدة ينوي تأليفها، وقد ورد هذا الاقتراح في رسالة وجهها همنغواي إلى المحرر ماكسويل بيركنز في ٧ فبراير ١٩٣٩ [المترجم].

بلاطة مكسورة أو قطعة ملاط من العمارة الشقية المهشمة. لكن خط الجبهة تراجع الآن عن حافة السهل وأصبح على الجهة الأخرى للنهر على سفح تل الصنوبر الذي ينهض خلف عزبة الصيد الملكية القديمة التي كانت تدعى «كاسو دل كامپو»^(١١٩)، صار القتال يدور هناك الآن، فاستخدمنا «بيت العائلة القديم» بمنزلة مركز رصد ونقطة ممتازة لنصور منها.

في تلك الأيام كان الخطر يحيط بنا، والبرد يلاحقنا، والجوع يقرضنا على الدوام، وكنا نتمازح كثيرا.

وكلما انفجرت قذيفة في عمارة أثارت سحابة هائلة من غبار القرميد والجبس، وعندما ينجلي هذا الغبار تكتسي أسطح المرايا بطبقة من المسحوق، فتبدو كالنوافذ المطلية بطلاء أبيض في عمارة جديدة. كانت هناك مرآة طويلة لم تنكسر في إحدى غرف تلك العمارة تطل على الدرج وأنت تصعد، فكتبت على سطحها بإصبعي «الموت لجوني» بأحرف كبيرة، ثم أرسلنا جوني، المصور، إلى تلك الغرفة، متذرعين بحجة ما. وعندما فتح الباب، وكان ذلك في أثناء القصف، رأى ذلك الإعلان المخيف يطل عليه من المرأة، انتابه غضب هولندي لا يلجم، فلاقينا معه الأمرين إلى أن تصالحنا.

في اليوم التالي وبينما كنا نحمل عدتنا في سيارة أمام الفندق، دخلت السيارة ورفعت زجاج النافذة الجانبية حيث كان الطقس قارسا. وبينما الزجاج يرتفع رأيت مطبوعا بأحرف حمراء كبيرة وبقلم حمرة مستعار عبارة ED IS A LICE (إد

(١١٩) «كاسو دل كامپو»: عبارة إسبانية تعني «العزبة الريفية» [المترجم].

قمل^(١٢٠)، استخدمنا السيارة عدة أيام بهذا الشعار الذي حير الإسبانين. لابد أنهم ظنوا أن هذه العبارة هي الأحرف الأولى لإحدى المنظمات الثورية الهولندية الأمريكية أو لشعار تتخذه، ربما يشبه الأحرف الأولى لـ F.A.I أو C.N.T^(١٢١).

بعد ذلك جاء اليوم الذي تولى فيه القيادة السلطان البريطاني الأعظم فأنسانا ما حل بالمدينة. كانت لديه خوذة فولاذية كبيرة من الطراز الألماني وكان يعتمرها في كل الحملات باتجاه الجبهة. كانت الخوذة الجزء الوحيد من الملابس الذي لم يألفه البقية الباقية منا. كان الاعتقاد السائد هو أنه ما دامت لا توجد خوذة فولاذية كثيرة، فيجب أن يقتصر استخدامها على قوات الصاعقة. لذلك، ولد فينا ارتداء السلطان الأعظم هذه الخوذة تحاملا فوراً عليه.

كنا قد التقينا في غرفة صحفية أمريكية عندها مدفأة كهربائية رائعة. تملك هوى هذه الغرفة الرائعة فكر صاحب العظمة من أول زيارة، فسمّاها النادي. كانت فكرته أن يأتي كل واحد منا بمشروبه ويستمتع به في هذا الدفء والجو الرائع. وبما أن الفتاة الأمريكية كانت جديّة في عملها فقد حاولت

(١٢٠) قد نستشف من هذه العبارة أمرين: أولاً، أن جوني لا يتقن الإنجليزية، حيث نراه يستخدم أداة الأفراد قبل اسم جمع، كما يرتكب أخطاء مماثلة لاحقاً. ثانياً، أنه قد يكون هولندي بالفعل، وهذا ما يفسر قول الراوي قبل بضعة أسطر: إن غضبنا هولندياً لا يلجم قد انتاب جوني [المترجم].

(١٢١) لا أعرف بالضبط من أي لغة يستعير همنغواي هذه المسكوكات اللفظية، ولم أجد منظمة ثورية هولندية أمريكية تنطبق عليها هذه المسكوكات، لذلك يتعذر عليّ ترجمتها ولو ترجمة يركن إليها الظن. فعلى سبيل المثال، تعني مسكوكة F.A.I. بالإنجليزية «اتحاد كرة القدم الإيرلندي» وبالفرنسية «الاتحاد الدولي للرياضات الهوائية». فأيهما أختار والسياق لا يحتمل لا هذا ولا ذلك؟ [المترجم].

جاهدة، ربما من غير كبير جدوى، أن تحول دون تحول غرفتها إلى ناد بأي معنى من المعاني، لذلك وقع عليها هذا التعميد والتصنيف المحدد وقوع الصاعقة.

بعد ذلك بيوم كنا نعمل في بيت العائلة القديم، وكنا نحجب عدسات الكاميرا بأقصى ما يمكن من حذر ضد وهج الظهيرة بوساطة حصيرة متكسرة، عندما وصل صاحب العظمة برفقة الفتاة الأمريكية. كان قد سمعنا في النادي نتناقش حول هذا المكان فقرر أن يزورنا. كنت أستخدم منظارا ميدانيا صغيرا ثماني التكبير من طراز زايس يمكنك أن تغطيه بكلتا يديك كي لا يعكس أشعة الشمس، وكنت أقوم بالرصد من الظل في زاوية الشرفة المحطمة. كان الهجوم على وشك أن يبدأ وكنا ننتظر مرور الطائرات من فوقنا وبدء القصف الذي يستعاض به عن التمهيد المدفعي الكافي نظرا إلى النقص الحاصل في المدفعية الثقيلة عند الحكومة في ذلك الوقت.

كنا نعمل في تلك العمارة، ونتخفى كالجرذان بأقصى درجة ممكنة من الحذر، لأن نجاح عملنا وإمكان مواصلة الرصد يعتمدان كلياً على عدم جذب النيران إلى هذه العمارة المهجورة ظاهرياً. دخل الآن صاحب العظمة إلى الغرفة، فسحب أحد الكراسي الفارغة، وقعد في وسط الشرفة تماماً، بخوذته الفولاذية، ومنظاره الهائل الحجم، وكامل عدته. كانت الكاميرا منصوبة في زاوية على أحد جانبي نافذة الشرفة ومموهة بعناية فائقة كما يموه مدفع رشاش. وكنت أنا في زاوية الظل على الجانب الآخر لا يراني أحد على سفح التل، وكنت دائماً أحرص

على عدم التحرك في الأمكنة المشمسة المفتوحة. كان صاحب العظمة يجلس على مرأى الجميع في وسط البقعة المشمسة وكأنه، في خوذته الفولاذية، رئيس كل هيئات الأركان العامة في العالم، ونظاراته تلمع في الشمس مثل مشماس^(١٢٢).

«اسمع»، قلت له. «علينا أن نعمل هنا. ومن حيث تجلس تصدر نظاراتك لمعانا يراه كل من على ذلك التل».

«لا خطر في منزل برأيي»، قال صاحب العظمة بوقار رزين متعال.

«لو أنك اصطدت نعاج الجبال في يوم من الأيام، لعرفت أن في إمكانهم أن يروك كما تراههم»، قلت له. «ألا ترى كيف ترى الرجال بجلاء بوساطة نظاراتك؟ هم أيضا لديهم نظارات».

«لا خطر في منزل برأيي»، كرر صاحب العظمة قوله. «أين هي الدبابات؟».

«هناك، تحت الأشجار»، قلت له.

كان كلا المصورين يكشر امتعاضا ويهز قبضته المضمومة فوق رأسه من الغيظ.

«سأذهب وأخذ الكاميرا إلى الخلف»، قال جوني.

«ابقي في أقصى الخلف، يا بنيّتي»، قلت للفتاة الأمريكية. ثم قلت لصاحب العظمة، «قد يظنون أنك من سلك الضباط، كما تعلم. عندما يرون خوذة التتك هذه وتلك النظارات سيظنون أننا نحن من يدير المعركة. أنت تبحث عن المتاعب، كما تعلم».

(١٢٢) المشماس: أداة لإرسال الإشارات البرقية بوساطة أشعة الشمس المنعكسة على مرآة [الترجم].

كرر علي لازمته.

في تلك الدقيقة بالذات هبطت علينا أول قذيفة. جاءت مدوية كأنها أنبوب بخار ينفجر يرافقه تمزق قماش القنب، وتحت الانفجار والدوي وفرقة الجبس المتكسر وسحابة الغبار فوقنا أخرجت الفتاة من الغرفة إلى الجزء الخلفي من الشقة. وبينما أنا أهرع من الباب رأيت شيئاً على رأسه خوذة فولاذية يمر بي قاصدا الدرج. قد يتهاى لك أن الأرنب يتحرك بسرعة عندما يقفز في البداية ثم يباشر قفزه المتعرج، بيد أن صاحب العظمة قفز من الغرفة المملوءة بالدخان إلى الدرج الخطر، وخرج من الباب إلى الشارع بأسرع من أي أرنب. قال أحد المصورين إنه لم يجد سرعة على عدسات كاميرا الالايكا تلتقط تحركه. هذا ليس صحيحا، بالطبع، لكنه يعطيك تصورا عما جرى.

على أي حال، واصلوا قصف المنزل لمدة دقيقة تقريبا. كانت تسديداتهم تتواصل على نحو لا يترك لك وقتا لتحبس أنفاسك بين اندفاع خطواتك الهاربة ودوي الانفجار. وبعد آخر انفجار، انتظرنا دقيقتين لنرى إن كان القصف قد توقف، وأخذنا جرعة ماء من صنبور المطبخ، ووجدنا غرفة جديدة ننصب فيها الكاميرا. كان الهجوم قد بدأ على الفور.

كانت الفتاة الأمريكية حانقة جدا من صاحب العظمة. «هو الذي أتى بي إلى هنا. وهو الذي قال إن هذا المكان آمن. وهو الذي هرب ولم يقل حتى كلمة وداع».

«إنه ليس سيذا لطيفا»، قلت لها. «انظري، يا بنيتي. راقبي. الآن. ها قد بدأ».

نهض بعض الرجال تحتاً مقدار نصف قامة، ثم اندفعوا إلى الأمام نحو بيت حجري تحيط به بعض الأشجار. كان البيت يختفي وراء سحب الغبار الذي تثيره القذائف المنهمرة عليه. كان الهواء يجلو الغبار بعد كل قذيفة، فظل البيت يتراءى جلياً من بين الغبار كما تتراءى سفينة من بين الضباب، وأمام الرجال كانت دبابة تنقض بسرعة كأنها خنفساء مستديرة الظهر، مدببة الخطم، ثم توارت عن الأنظار بين الأشجار. وبينما نحن نراقبهم، انبطح الرجال الذين كانوا يركضون. ثم تقدمت دبابة أخرى نحو الأشجار من اليسار، وكنا نرى لمعان قذائفها، وتحت الدخان الذي هب من البيت نهض أحد الرجال المنبطحين على الأرض، وراح يعدو كالمسعود عائداً إلى الخندق الذي غادروه عندما بدأوا هجومهم. نهض آخر وعاد راكضاً، يمسك بندقيته بيد، ويده الأخرى على رأسه. ثم راح الجميع على طول خط الجبهة يعودون راكضين. سقط بعضهم وهم يركضون. وآخرون ظلوا راكدين على الأرض من دون أن ينهضوا. كانوا مبعثرين على سفح التل كله.

«ماذا حدث؟». سألتني الفتاة.

«لقد فشل الهجوم»، قلت لها.

«لماذا؟».

«لأنهم لم يتقدموا إلى هدفهم».

«لماذا؟ ألم يكن التراجع خطراً عليهم كالتقدم؟».

«ليس كذلك تماماً».

رفعت الفتاة منظار الميدان إلى عينيها. ثم أنزلته.

«لم أعد أرى»، قالت لي. كانت الدموع تسيل على خديها، وكان وجهها يختلج. لم أرها تبكي من قبل، برغم أننا رأينا من الأشياء التي تُبكي، إن شئت البكاء، الكثير الكثير. في الحرب تبكي كل الرتب، حتى الجنرالات، بين الحين والآخر. ومهما قيل لك، فهذه هي الحقيقة، لكن البكاء أمر يتفاداه الناس، بل يجب تفاديه، وأنا لم أر هذه الفتاة تبكي من قبل.

«وهذا هو الهجوم؟».

«هذا هو الهجوم، وقد رأيته بنفسك»، قلت لها.

«وما الذي سيحدث؟».

«قد يرسلونهم ثانية إن بقي من الناس ما يكفي لقيادتهم. وأشك في أنهم سيفعلون. يمكنك أن تعدي الخسائر التي أمامك إن شئت».

«هل كل هؤلاء الرجال ميتون؟».

«لا. فهناك من تقعده جراحه عن الحركة. سيقومون بإخلائهم في الظلام».

«وماذا ستفعل الدبابات الآن؟».

«ستعود إلى مرابضها إن حالفها الحظ».

لكن واحدة منها قد تعثرَ حظها سلفاً. من بين غابة الصنوبر راح يرتفع عمود دخان أسود قذر، ثم راحت الريح تقذفه ذات اليمين وذات الشمال. وسرعان ما صار العمود سحابة سوداء متموجة تتخلل دخانها الأسود اللزج السنة حمراء من اللهب. حدث انفجار تلتها موجة من الدخان الأبيض، ثم اندفع الدخان الأسود نحو الأعلى، لكن من قاعدة أوسع.

«تلك دبابة»، قلت لها. «تحترق».

وقفنا نتفرج. بوساطة المنظار رأينا رجلين يخرجان من إحدى زوايا الخندق ثم يصعدان سفح التل وهما يحملان نقالة. كانا يتحركان ببطء وتثاقل. وبينما نحن نتفرج، جثا الرجل في المقدمة على ركبتيه ثم قعد. أما الرجل الثاني فقد سقط على الأرض. راح يزحف إلى الأمام. وضع يده تحت كتف الرجل الأول، ثم راح يزحف، ساحبا رفيقه نحو الخندق. بعدئذ توقف عن الحركة، ورأينا وجهه مكبا على الأرض. رقد كلاهما الآن بلا حراك.

توقف القصف على المنزل الآن وهذا الجو. برز البيت الريفي الكبير والأرض المسورة جلية صفراء على خلفية سفح التل الأخضر الذي كانت تخدده خطوط بيضاء حيث أقيمت التحصينات وحفرت خنادق الاتصالات. راح الدخان الآن يتصاعد من نيران صغيرة على سفح التل حيث كان الرجال يطبخون. وفي أعلى السطح الأخضر باتجاه البيت الريفي الكبير رقد ضحايا الهجوم كأنهم حزم كثيرة متناثرة.

«هذه فظاعة»، قالت الفتاة. «هذه أول مرة أرى فيها مثل هذه الفظاعة. إنها فظاعة حقيقية».

«هكذا هي دائما».

«ألا تمقتها؟».

«إنني أمقتها كما أمقتها دائما. لكن عندما يتعين على المرء أن يقوم بها فعليه أن يعرف كيف يفعل ذلك. ما رأيته كان هجوما جبھيا. إنها قتل مشروع».

«هل هناك أساليب أخرى للهجوم؟».

«أوه، طبعاً. هناك أساليب كثيرة. لكن يجب أن تكون لديك دراية ونظام صارم وقادة زمر وجماعات مدربة، وعنصر المفاجأة فوق كل شيء».

«إن الظلام شديد يستحيل معه العمل»، قال جوني وهو يغلّق عدسته المقربة. «مرحباً أيها القمل العجوز. الآن نذهب إلى الفندق. اليوم نحن نعمل بشكل جيد جداً».

«أجل»، قال الآخر. «لقد قمنا بعمل رائع اليوم. من المؤسف أن الهجوم فشل. من الأفضل ألا نفكر فيه. أحياناً نصور هجوماً ناجحاً. لكن عندما يكون الهجوم ناجحاً، إما تمطر أو تتلج»^(١٢٣).

«لم أعد أرغب في رؤية المزيد»، قالت الفتاة. «لقد اكتفيت الآن. لن يدفعني شيء إلى رؤيته لا من باب الفضول ولا من باب التكبس بالكتابة عنه. أولئك بشر مثلنا. انظروا إليهم على سفح ذلك التل».

«أنت لست من الرجال»، قال جوني^(١٢٤)، «أنت من النساء. لا تخطي بين الاثنين».

«يأتي الآن صاحب الخوذة الفولاذية»، قال الآخر وهو ينظر من النافذة. «يأتي الآن بكثير من الوقار. أتمنى لو كانت عندي قبلة أقذفها عليه لأفاجئه».

(١٢٣) يبدو أن هذا المصور الآخر أيضاً غير ناطق بالإنجليزية، وهذا واضح من خلال كلامه المفكك في الأصل الإنجليزي، وإن كان كلامه أقل تفككاً من كلام جوني الذي لا يعرف إلا زمناً واحداً للفعل الإنجليزي، هو الزمن الحاضر [الترجم].

(١٢٤) لقد التبس على جوني معنى كلمة men (بشر) التي استخدمتها الصحافية في السطر السابق، إذ تعني الكلمة عادة «رجال»، وسوء الفهم هذا هو ما دفعه إلى هذا التعليق المضحك [الترجم].

كنا نحزم الكاميرات وعدتنا عندما دخل صاحب العظمة والخوذة الفولاذية.

«مرحبا، هل التقطتم بعض الصور الجيدة؟». سألنا. «لديّ سيارة في أحد الشوارع الخلفية لتأخذك إلى منزلك، يا إيلزابيث».

«أنا ذاهبة مع إدون هنري»، قالت له الفتاة.

«هل خبت الريح؟». سألته عرضا.

تجاهل سؤالي وقال للفتاة: «ألن تأتي؟».

«لا»، قالت له. «سنذهب جميعا إلى المنزل».

«سأراك في النادي هذه الليلة»، قال لي بنبرة لطيفة جدا.

«لم تعد عضوا في النادي»، قلت له، متصنعا لكنة إنجليزية قدر المستطاع.

نزلنا الدرج جميعا، نحاذر التعثر في الحفر في الرخام، أو نمر من فوق الأضرار الجديدة أو من حولها. بدا الدرج طويلا جدا. التقطت واقيا للأنف مصنوعا من نحاس أصفر وقد أصبح مفلطحاً وموشوما بالجبس في نهايته، فناولته للفتاة المدعوة إيلزابيث.

«لا أريده»، قالت لي، وتوقفنا جميعا عند المدخل لنترك صاحب الخوذة الفولاذية يواصل مسيره وحيدا. كان يسير بوقار مهيب عبر ذلك الجزء من الشارع الذي تطلق عليه النيران في بعض الأحيان، وظل يواصل مسيره بوقار تحت ستر الجدار المقابل. ثم رحنا، واحدا تلو الآخر، نعدو بأقصى سرعة لنحتمي بالجدار. إن من يجتذب النيران هو الشخص الثالث أو الرابع الذي يعبر

فضاء مفتوحا . هذا ما تتعلمه بعد أن تقضي فترة هناك، وكنا دائما نبتهج عندما نعبر هذا المكان بالذات .

هكذا رحنا نسير في الشارع، نحن الأربعة، جنبا إلى جنب في حمى الجدار، نحمل الكاميرات وندوس على الشظايا الحديد الجديدة، والقرميد المتكسر حديثا، وكتل الأحجار، نتفرج على صاحب الخوذة الفولاذية السائر أمامنا بوقار، بعد أن فقد عضويته في نادينا .

«لا أحب أن أكتب برقية»، قلت لهم. «لن يكون سهلا علي أن أكتبها . لقد فشل هذا الهجوم»^(١٢٥).

«ماذا دهاك، أيها الفتى؟». سألني جوني .

«عليك أن تكتب ما يمكن قوله»، قال الآخر برفق .
«لا شك في أنك تستطيع أن تقول شيئا عن يوم حافل بالأحداث كهذا» .

«متى سيخلون الجرحى؟». سألتني الفتاة . لم تكن تلبس خوذة، وكانت تمشي بخطوات واسعة لا ضابط لها، وبدأ شعرها أصفر بلون الغبار في ضوء النهار الخابي، وكان يتدلى على ياقة سترتها القصيرة ذات القبة الفرائية، ويتمايل عندما تدير وجهها . كان وجهها أبيض شاحبا كأنها مريضة .

«لقد قلت لك حالما يحل الظلام» .

«عجل الله في حوله»، قالت الفتاة . «هذه هي الحرب إذن . هذا ما أتيت إلى هنا لرؤيته والكتابة عنه . هل قتل ذاك الرجلان اللذان كانا يحملان النقالة؟» .

(١٢٥) كانت الرقابة العسكرية للقوات الموالية للجمهورية الإسبانية تمنع المراسلين من الكتابة عن فشل هجوم شنته ضد القوات الفاشية، وهذا ما يلمح إليه [دون هنري هنا] [المترجم].

«أجل»، قلت لها. «بكل تأكيد».

«كانا يتحركان ببطء شديد»، قالت الفتاة بنبرة كلها شفقة.

«أحياناً يصعب على المرء أن يقسر رجله على المسير»، قلت

لها. «إن الأمر يشبه المشي في رمال عميقة أو في حلم».

كان صاحب الخوذة الفولاذية لا يزال يسير أمامنا في

الشارع. كان على يساره صف من البيوت المحطمة وجدار الثكنة

القرميدي على يمينه. كانت سيارته مركونة في نهاية الشارع

حيث كانت سيارتنا تقف في حمى أحد البيوت.

«دعونا نعهده إلى النادي»، قالت الفتاة. «لا أريد لأحد أن يجرح

الليلة. لا مشاعره ولا أي شيء». ثم نادى عليه، «انتظرنا. نحن

قادمون».

توقف والتفت وراءه، وكم كانت مضحكة تلك الخوذة الهائلة

الثقيلة عندما أدار رأسه، كأنها قرنان هائلان على رأس وحش

لا يؤذي. انتظر حتى لحقنا به.

«هل لي أن أساعدكم بأي من هذا؟». سألنا.

«لا، فالسيارة هناك أمامنا».

«نحن ذاهبون جميعاً إلى النادي»، قالت الفتاة وابتسمت له.

«هلا أتيت وأحضرت زجاجة من المشروب؟».

«سيكون هذا من دواعي سروري»، قال لها. «ماذا أطلب؟».

«أي شيء»، قالت له الفتاة. «أي شيء تحبه. عليّ أن أنجز

بعض الأعمال أولاً. تعال نحو الساعة والنصف».

«ألا أوصلك إلى منزلك بسيارتي؟». سألها. «أخشى أن تكون

تلك السيارة مزدحمة بكل تلك العدة».

«أجل، أود ذلك»، قالت له. «شكرا لك».

ركبا في سيارة وحملنا كامل العدة في السيارة الأخرى.

«ماذا دهالك، أيها الفتى؟». قال لي جوني. «فتاتك تذهب إلى المنزل مع شخص آخر؟».

«لقد نكدها الهجوم. إنها تشعر باستياء شديد».

«إن المرأة التي لا ينكدها هجوم ليست امرأة»، قال جوني.

«لقد كان هجوما فاشلا جدا»، قال الآخر. «لحسن الحظ لم تشاهده من كثب. علينا ألا ندعها ترى هجوما من كثب بغض النظر عن خطورته. إنه شيء لا يطاق. من حيث رأته لم يكن سوى صورة. مثل مشهد معركة تقليدي».

«إن لها قلبا رقيقا»، قال جوني. «على خلافك أنت، أيها القمل العجوز».

«وأنا لي قلب رقيق»، قلت له. «والكلمة هي قملة - لا - قمل - قمل - هو جمع قملة».

«أنا أحب كلمة «قمل» أكثر، قال جوني. «إن لها وقعا أكثر تحديدا ودقة».

لكنه رفع يده ومحا الكلمات المكتوبة بقلم الحمر على النافذة.

«نصنع نكتة جديدة غدا»، قال لي. «والآن أغفر لك ما كتبت على المرأة».

«جيد، يسرني هذا»، قلت له.

«أيها القمل العجوز»، قال جوني، وخبطني بيده على ظهري.

«قلت لك قملة».

«لا. قمل. تعجبني أكثر. وهي أكثر تحديدا ودقة بأضعاف».

«اذهب إلى الجحيم».

«لا بأس»، قال جوني وهو يبتسم ابتسامة رضا. «ها قد عدنا

جميعا أصدقاء من جديد. هي الحرب، يجب أن يحرص كل منا على ألا يجرح مشاعر الآخرين».

تداعي الذكريات^(١٢٦) [١٩٨٧]

«إنها قصة جيدة جدا»، قال والد الفتى. «هل تدرك مدى جودتها؟».

«لم تكن عندي رغبة في أن ترسلها إليك، يا بابا».
«وماذا كتبت أيضا؟».

«تلك هي القصة الوحيدة. أقول لك الصدق، إنه لم تكن عندي رغبة في أن ترسلها إليك. لكن عندما فازت بالجائزة.....».
«إنها تريدني أن أساعدك. لكن إن كانت كتابتك بهذه الجودة، فلست في حاجة إلى مساعدة أحد. كل ما تحتاج إليه هو أن تكتب. كم استغرقت منك كتابة تلك القصة؟».
«لم تستغرق طويلا».

«من أين جئت بمعلوماتك عن ذلك النوع من طيور النورس؟».

«من جزر البهاما على ما أظن».
«أنت لم تذهب قط إلى صخور الكلب ولا إلى جزيرة المرفق. لم تكن هناك نوارس ولا خرشنة تعيش في جزيرة القط ولا في بيمينى. أما في الجزيرة الغربية فلا يمكن لك إلا أن ترى أقل عدد من طيور الخرشنة المعششة هناك».
«كلم بيترز. بلا شك. إنها تعيش على الصخور المرجانية».

(١٢٦) «تداعي الذكريات»: قصة قصيرة مكتملة، تدور أحداثها في كوبا التي اتخذ منها همنغواي موطنًا له في منزل يدعى فنكا بيجيا (مزرعة الإطالة) بين العامين ١٩٣٩ و١٩٥٩ [الناشر].

«على المنبسطات الأرضية»، قال أبوه. «من أين لك أن تعرف نوارس مثل الذي في القصة؟».

«قد تكون أنت من أخبرني عنها، يا بابا».

«إنها قصة رائعة جدا. إنها تذكرني بقصة قرأتها منذ زمن

بعيد».

«أظن أن كل شيء يذكرك بشيء ما»، قال الفتى.

في ذلك الصيف كان الفتى يقرأ كتباً وجدها له أبوه في المكتبة، وعندما يأتي للبيت الرئيسي للغداء^(*)، إن لم يكن يلعب البيسبول أو لم يكن في نادي الرماية، كان يقول في أغلب الأحيان إنه كان يكتب.

«أرني ما تكتب متى شئت أو اسألني عن أي مشكلة»، قال له أبوه. «اكتب عن شيء تعرفه».

«هذا ما أفعله»، قال الفتى.

«لا أريد أن أبدو كأنتي أقف لك بالمرصاد»، قال أبوه. «لكن، إن شئت، يمكنني أن أعد لك بعض المسائل البسيطة عن أشياء نعرفها كلانا. وسيكون هذا تدريباً جيداً لك».

«أظن أن أموري تسير على ما يرام».

«إذن، لا ترني ما تكتب إلا إذا أردت أنت ذلك. ما رأيك في

كتاب «بعيدا من هنا في الزمان والمكان»^(١٢٧).

«لقد أعجبني كثيرا».

(١٢٧) هذا عنوان كتاب لوليم هنري هدمن (١٨٤١ - ١٩٢٢) وهو عالم طبيعيات بريطاني من مواليد بيونس آيرس، والكتاب من أدب الرحلات، وهو بمنزلة سيرة ذاتية أيضا [الترجم].
(*) لقد تحول هذا المنزل الذي بني العام ١٨٨٦ والكائن في مدينة سان فرانسيسكو دو باولا إلى متحف [الترجم].

«ما قصدته بالمسائل هو أنه يمكننا أن نذهب إلى السوق معا أو نشاهد صراعا بين الديوك ثم يكتب كل منا ما رآه. إن ما تراه حقا هو ما يبقى معك. أشياء مثل فتح السائس لمنقار الديك والنفخ في حلقه عندما يسمح لهم الحكم بالتقاطها وتحريضها قبل زجها في المعركة من جديد. الأشياء الصغيرة. لنرى ما رآه الآخر».

أوما الفتى برأسه ثم نظر مطرقا في طبقه.
«أو يمكننا أن نذهب إلى المقهى ونلعب جولات عدة من لعبة البوكر، فتكتب ما سمعته من المحادثة. لا تحاول أن تكتب كل شيء. فقط ما له قيمة مما سمعت».

«أخشى، يا بابا، أنني لست مستعدا لهذا الأمر بعد. أعتقد أنه من الأفضل لي أن أتابع النهج الذي اتبعته في القصة».
«افعل ذلك إذن. لا أريد أن أتدخل أو أؤثر فيك. كانت تلك مجرد تمارين. وكنت سأساعد بالقيام بها معك. إنها مثل تمارين الأصابع الخمسة^(١٢٨)، لم تكن تلك التمارين متميزة. يمكننا أن نقوم بأفضل منها».

«ربما يجدر بي أن أتابع النهج الذي اتبعته في القصة».
«بالأكيد»، قال أبوه.

لم أستطع أن أكتب بهذه الجودة عندما كنت في سنه، قال أبوه في سره. ولا أعرف أحدا آخر يستطيع ذلك. لكنني أيضا لم أعرف شخصا يجيد الرماية في العاشرة خيرا من هذا الفتى، لا أقصد رماية التباهي فقط، بل رماية التنافس مع رجال بالغين

(١٢٨) أي التمارين التي تدرب المتعلم على استخدام أصابعه الخمسة، لا سيما في العزف على البيانو [المترجم].

ومحترفين. كان يرمي بذات الطريقة في الميدان عندما كان في الثانية عشرة. كان يرمي كما لو أن رادارا داخليا يوجهه. لم يكن يرمي إلا على هدف ضمن المدى المجدي ولا يسمح لطائر مقذوف أن يقترب كثيرا، وكان يرمي بأسلوب جميل وتوقيت تام ودقة متناهية على طيور التدرج في الأعالي كما في الرمايات الأفقية على طيور البط.

عندما كان يخرج في مباريات الرماية على الحمام الحية، ويسير على الرصيف الإسمنتي، ليدور العجلة، ويواصل سيره نحو اللوحة المعدنية التي تحدد له المسافة، كان المحترفون يلوذون بالصمت ويتفرجون. كان الرامي الوحيد الذي يصمت له الجمهور صمتا مطبقا. كان بعض المحترفين يبتسمون كما لو كانوا يبتسمون لسر عندما يرونها يرفع بندقيته إلى كتفه ثم يلتفت إلى الخلف ليرى أين يستقر عقب البندقية على كتفه. ثم يمرر المشط على خده، ويده اليسرى ممدودة للأمام إلى أقصاها، ويميل بثقله على قدمه اليسرى. كانت فوهة بندقيته ترتفع وتنخفض، ثم تخطف يسارا، فيميناء، لتعود إلى الوسط. كان عقب قدمه اليمنى يرتفع برفق وهو يميل بكامل ثقله وراء الطلقتين في حجيرتي النار.

«جاهز»، يقول بذلك الصوت الأجش الخفيض الذي لا يليق بفتى صغير.

«جاهز»، يرد عامل آلة الإطلاق.

«اسحب»، يقول الصوت الأجش، وأيا كانت الآلة، من الآلات الخمس، التي تتطلق منها الحمامة الرمادية المنقضة، ومهما بلغ

انخفاض الزاوية التي تطير بها من فوق العشب الأخضر باتجاه السياج الأبيض الخفيض، كانت الطلقة الأولى لها بالمرصاد، تتبعها الطلقة الثانية في الإثر. وبينما الحمامة تنهوى وهي طائرة، ورأسها ينكفئ إلى الأمام، لا أحد، غير كبار الرماة، يرى أثر الإصابة الثانية التي تخترق جسد الحمامة الميتة سلفا وهي في الجو.

بعدئذ يطوي الفتى بندقيته ثم يبتعد عن الرصيف الإسمنتي ويسير قاصدا المقصورة، ووجهه خال من التعبير، وعيناه نحو الأسفل، لا يأبه إطلاقا بالتصفيق، ويقول «شكرا» بصوته الأجش الغريب لو قال له أحد المحترفين، «أحسنتم الرماية، يا ستيقي». يضع بندقيته على المحمل وينتظر ليراقب أباه وهو يرمي، وبعد ذلك يتجه الاثنان معا نحو المقهى الخارجي.

«هل يمكنني أن أشرب الكوكا كولا، يا بابا؟»

«يفضل ألا تشرب أكثر من نصف علبة».

«لا بأس. آسف لأنني كنت بطيئا إلى ذلك الحد. ما كان علي أن أترك الحمامة تقترب كثيرا».

«ولكنها كانت تتطلق بسرعة وعلى علو منخفض، يا ستيقي».

«ما كان لأحد أن يعرف ذلك لو لم أكن بطيئا».

«ولكنك تبلي بلاء حسنا».

«سأستعيد سرعتي. لا تقلق، يا بابا. وهذه الكمية الصغيرة

من الكولا لن تعيقني».

مات طائرته الثاني في الجو عندما قذفه ذراع الآلة الفائرة

المرتد من الفتحة في الخندق المستور كالقذيفة الطائرة.

رأى الجميع كيف أصابته الطلقة الثانية في الجو قبل أن يصل الأرض. لم يكن قد ابتعد عن آلة الإطلاق ياردة واحدة. عندما عاد الفتى، قال له أحد الرماة المحليين: «لقد أحرزت هدفا سهلا، يا ستيقي».

هز الفتى رأسه وعلق بندقيته على المحمل. نظر إلى لوحة النتائج. كان هناك أربعة رماة قبل أبيه. ذهب لبحث عنه. «لقد استعدت سرعتك»، قال له أبوه.

«لقد سمعت صرير الآلة»، قال الفتى. «لا أريد أن أصعقك، يا بابا. لكن، كما تعلم، تستطيع أن تسمع صريرها جميعا. لكن آلة الإطلاق الثانية يعلو صريرها على صرير الآلات الأخرى بمقدار ضعفين تقريبا. يجب عليهم أن يشحموها. لا أظن أن أحدا انتبه».

«أنا دائما أطلق لدى سماعي صرير الآلة».

«بالتأكيد. لكن إن كان صريرها عاليا أكثر مما يجب، فالآلة على يسارك. اليسار أعلى صريرا».

لم يسحب أبوه طيرا من آلة الإطلاق الثانية في الجولات الثلاث التالية. وعندما فعل، لم يسمع صرير الآلة فقتل الطائر بالطلقة الثانية بعد أن ابتعد كثيرا، فوقع على السياج وسقط داخله.

«أنا آسف، يا بابا»، قال الفتى. «لقد شحموها. كان يجب ألا أفتح فمي اللعين».

لقد تحدثا في تلك الليلة بعد سباق الرماية الدولي الكبير الذي شاركا فيه معا لأول مرة في حياتهما، فقال الفتى: «لا أفهم

كيف يمكن لأحد أن يخطئ في إصابة حمامة». «لا تقل هذا قط لأي شخص آخر»، قال أبوه. «لا. فأنا أعنيه حقاً. لا يوجد سبب في الدنيا يدعو إلى الخطأ في الإصابة. لقد أصبت الحمامة التي خسرت فيها مرتين لكنها سقطت خارج السياج». «هكذا تخسر».

«هذا أفهمه. هكذا خسرت. لكن ما لا أفهمه هو كيف يخطئ أحد في إصابة حمامة».

«قد تفهم ذلك بعد عشرين سنة»، قال أبوه.

«لم أقصد أن أسيء الأدب، يا بابا».

«لا عليك»، قال أبوه. «فقط لا تقل هذا لأحد غيري».

كان يفكر في هذا عندما تساءل عن القصة وكتابة الفتى. فمع كل موهبته الخارقة لم يصبح الفتى صائداً ممتازاً للحمام الحية وحده أو من غير تدريب وتشذيب. لقد نسي الآن أمر التدريب. لقد نسي أنه عندما بدأ يخطئ في إصابة الطيور الحية كان أبوه يخلع قميصه ليريه الكدمة على ذراعه الناتجة من وضعه البندقية في غير مكانها المناسب. لقد شفاه من ذلك بأن جعله دائماً ينظر إلى كتفه ليتأكد من وضع البندقية قبل أن ينادي على طائره.

لقد نسي أمر التدريب على وضع الثقل على القدم الأمامية، وأمر خفض الرأس والاستدارة. كيف تعرف أن ثقلك على قدمك الأمامية؟ ترفع كعب قدمك اليمنى. أخفض رأسك، استدر، وأسرع. النتيجة لا تهم الآن. أريدك أن تصيبها حال انطلاقها.

لا تتظر قط إلى جزء من جسد الطائر غير منقاره. استدر مع المنقار. إن تعذر عليك رؤيته، فاستدر حيث يجب أن يكون. ما أريده منك الآن هو السرعة.

كان الصبي راميا رائعا بالفطرة، لكنه عمل معه ليجعل منه راميا لا شائبة عليه، وكان كل سنة يأخذه ويبدأ تدريبه على السرعة، فيبدأ بإصابة ستة أو ثمانية طيور من أصل عشرة. ثم ينتقل إلى تسعة من أصل عشرة؛ حافظ على هذا المستوى، وانتقل إلى عشرين من عشرين ولن يهزمك إلا الحظ الذي يفرز الرماة الممتازين في النهاية.

لم ير أباه القصة الثانية. لم تكتمل على نحو يرضيه. قال إنه يريد أن يكملها بشكل تام قبل أن يريه إياها. وحالما انتهى من ذلك، سيرسلها إليه. قال إنه استمتع بعطلته أيما استمتاع، كما استمتع أيضا بما قرأه وشكر أباه لأنه لم يدفعه إلى الكتابة دفعا، لأن العطلة في نهاية المطاف عطلة، وهذه كانت عطلة رائعة، بل من أروع العطلات، ومما لا شك فيه أنهما أمضيا أوقاتا رائعة معا.

مضت سبع سنوات قبل أن يقرأ أبوه القصة التي حازت الجائزة من جديد. كانت في كتاب وجدته وهو يتصفح بعض الكتب في غرفة الفتى القديمة. لم يكد يراها حتى عرف مصدر القصة. لقد تذكر ذلك الشعور بألفة قديمة. لقد كان يقلب بعض الصفحات، فإذا بها هناك، من دون تغيير وبذات العنوان، في مجموعة من القصص القصيرة الجيدة جدا لكاتب إيرلندي. كان الفتى قد نسخها من الكتاب تماما كما هي واستخدم ذات العنوان.

في السنوات الخمس الأخيرة من السنوات السبع الفاصلة بين الصيف الذي فازت فيه القصة بالجائزة واليوم الذي اكتشف فيه أبوه ذلك الكتاب، فعل الفتى كل ما يستطيع من أفعال شنيعة غبية، قال أبوه في سره. لكن أباه وجد له عذرا في مرضه^(١٢٩)، كان المرض هو مصدر وضاعته. لقد كان على ما يرام حتى ذلك الحين. ولكن المرض بدأ بعد ذلك الصيف بسنة أو أكثر. لقد أدرك الآن أن الفتى لم يكن فيه خير إطلاقا. لقد توصل إلى هذا بعدما استدبر كثيرا من الأمور. وما حز في نفسه هو أن يدرك أن الرماية لم تكن شيئا لذلك الفتى.

(١٢٩) انظر قصة «أنباء عظيمة من البر الرئيسي» التالية للتعرف على مرض الفتى [المترجم].

أنباء عظيمة من البر الرئيسي^(١٣٠) [١٩٨٧]

ظلت الريح تهب من الجنوب لمدة ثلاثة أيام، فحنّت جريد النخل الملكي حتى افترقت على شكل نسق يتناول أمام الجذوع الرمادية التي لوتها الريح الشديدة. ولما اشتدت الريح، تطايرت سويقات الجريد الداكنة الخضرة، وقد قتلها الريح. تمايلت أغصان المانغو وتكسرت بفعل الريح التي سفع لهيبها أزهار المانغو فاستحالت بنية مغبرة وجفت سويقاتها. يبست الحشائش، وجفت الرطوبة من التربة، وكان الهواء محملاً بالغبار.

ظلت الريح تهب ليلاً ونهاراً لمدة خمسة أيام، وعندما توقفت كان نصف جريد النخل يتدلى ميتاً على جذوعها، وكانت ثمار المانغو الخضراء تتناثر على الأرض والأشجار، وقد ماتت الورود المتفتحة، وجفت السويقات.

أنته المكالمة الهاتفية التي كان قد طلبها من البر الرئيسي، فقال الرجل: «أجل، يا دكتور سمپسن» ثم سمع الصوت المفرق^(١٣١) يقول: «السيد ويلر؟ حسن، يا سيدي، إن ولدك هذا قد فاجأنا جميعاً اليوم. نعم، فاجأنا. كنا نعطيه جرعة المعتادة من بنتوثال الصوديوم^(١٣٢) قبل جلسة العلاج عن طريق الصعق،

(١٣٠) تدور أحداث هذه القصة في إحدى الجزر الواقعة على الساحل الكوبي، وهي استكمال لقصة «تداعي الذكريات» السابقة [المترجم].

(١٣١) كلمة «المفرق» هي أيضاً لقب ازدرأ للشخص الأبيض الفقير في الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة، لا سيما في ولايتي جورجيا وفلوريدا. فريما يكون هذا معنى آخر يقصده همنغواي [المترجم].

(١٣٢) بنتوثال الصوديوم: مادة مخدرة تحقن في الوريد [المترجم].

ولطالما لاحظت أن هذا الفتى يبدي مقاومة غير عادية لبنتوثال الصوديوم. فهل كان يتعاطى الممنوعات؟»
«ليس على حد علمي».

«لا تعرف؟ من الطبيعي ألا يطلع المرء على كل شيء. لكنه بلا شك تصرف اليوم تصرفا مثيرا للعجب. لقد قذف خمسة منا كما لو كنا أطفالا. خمسة رجال، أقول لك. اضطررنا إلى تأجيل العلاج. إنه يعاني طبعا خوفا مرضيا لا مبرر له إطلاقا من الصعقة الكهربائية، ولهذا أستخدم بنتوثال الصوديوم، لكن استحال ذلك هذا اليوم. هذه بشارة خير في نظري. لم يسبق له أن ثار على شيء من قبل. هذه أفضل إشارة رأيته. إن حال هذا الفتى تتحسن يا سيد ويلر. أنا فخور به. لقد قلت له، لم أكن أعلم أنك تمتلك مثل هذه الطاقة، يا ستيفن. يحق لك أن تفخر به وتطمئن على حاله. لقد كتب لي واحدة من أكثر الرسائل إثارة ودلالة بعيد الحادثة مباشرة. سأرسلها إليك. لم تصلك الرسائل الأخرى؟ هذا صحيح. هذا صحيح، لقد حصل تأخير بسيط في إرسالها. لقد كانت سكرتيرتي مشغولة جدا، أنت تعرف كيف هي الأمور يا سيد ويلر وأنا رجل كثير المشاغل. بطبيعة الحال، لقد استخدم أشنع الألفاظ عندما كان يقاوم العلاج لكنه اعتذر لي بطريقة مهذبة جدا. عليك أن ترى هذا الفتى الآن يا سيد ويلر. إنه يعتني بمظهره الآن. إنه مثال الشاب الجامعي المهذب المتوقع».

«أخبرني عن العلاج».

«أوه، سيعطى له. لكن علي أن أضعف له كمية بنتوثال الصوديوم أولا. إن مقاومته لذلك تحير الألباب بكل بساطة.

أرجو أن تعلم أن هذه علاجات إضافية طلبها هو شخصيا. ربما يكون في ذلك شيء من المازوكية^(١٣٣)، حتى هو لمح إلى ذلك في رسالته. لكنني لا أظن ذلك. أعتقد أن ذلك الفتى بدأ يدرك الواقع. سأرسل إليك الرسالة. يمكنك أن تطمئن عن أحوال الفتى، يا سيد ويلر.

«ما أخبار الطقس عندكم؟»

«ماذا؟ أوه، أخبار الطقس. حسن، إنه شاذ قليلا في نظري عن المعتاد في هذا الوقت من السنة. بصراحة، لقد شهدنا طقسا غير معقول هذه الأيام. يمكنك أن تتصل في أي وقت، يا سيد ويلر. لا داعي للانزعاج أو القلق بشأن وضع الفتى في الوقت الحاضر. سأرسل إليك الرسالة التي كتبها. يمكنك أن تقول إنها رسالة بارعة. أجل، يا سيد ويلر. لا، يا سيد ويلر، أنا أرى أن كل شيء يسير على ما يرام، يا سيد ويلر. لا داعي للقلق على الإطلاق. تود أن تتحدث إليه؟ سأعمل على إيصال مكالمتك في المستشفى. يفضل في الغد. من الطبيعي أن يشعر بوهن بسيط بعد العلاج. يجدر بك أن تتصل في الغد. تقول إنه لم يتلق العلاج؟ هذا صحيح تماما، يا سيد ويلر. لم يخطر في بالي قط أن هذا الفتى يتمتع بمثل هذه القوة. هذا صحيح. سيعطى العلاج غدا. سأزيد كمية بنتوثال الصوديوم فقط. أرجو أن تتذكر أنه هو الذي طلب هذه العلاجات الإضافية. اتصل به بعد غد نهارا. إذ إن بعد غد يوم فراغ عنده وسيكون قد ارتاح

(١٣٣) المازوكية (أو المازوشية): مرض نفسي يجعل المريض يتلذذ بتعذيب الآخرين له، ونقيضه يدعى السادية [المترجم].

حينها. هذا صحيح يا سيد ويلر هذا صحيح. لا داعي لأن تقلق. يمكنني أن أقول إن تحسن وضعه لا يمكن أن يكون بأفضل حال. اليوم هو الثلاثاء. اتصل به يوم الخميس. في أي وقت يوم الخميس».

عادت الريح إلى الهبوب من الجنوب يوم الخميس. ليس في إمكانها الآن أن تفعل الكثير للأشجار سوى أن تقذف أغصان النخيل البنية الميتة أو تسفع ما تبقى من ورود المانغو المتفتحة التي لم تمت سويقاتها. لكنها جعلت أوراق الحور صفراء وحملت الغبار والأوراق المجردة إلى بركة السباحة. ذرت الغبار عبر النوافذ المنخلة إلى داخل البيت وفوق الكتب وعلى اللوحات. كانت الأبقار الحلوبة تدير مؤخراتها للريح وكان الطعام الذي تجتره يصير تحت أسنانها. تذكر السيد ويلر أن الرياح تأتي دائماً في أيام الصوم الكبير^(١٣٤)، كان ذلك الاسم المحلي لتلك الرياح. جميع الرياح المدمرة لها أسماء محلية والكتاب الرديئون دائماً تتفتح قرائحهم فيها. لقد قاوم هذا الشيء كما قاوم أن يقول كتابة إن أغصان النخيل انحنت إلى الأمام على شكل نسق يفترق عند الجذوع كما يتطاير شعر الفتيات ويفترق عندما يقفن ويدرن ظهورهن للعاصفة. لقد قاوم أن يكتب عن رائحة أزهار المانغو عندما كانوا يمشون معا في الليلة السابقة لهبوب الريح، وعن طنين النحل فيها خارج نافذته. أما الآن فقد اختفى النحل ورفض أن يستخدم الكلمة الأجنبية لهذه الريح. لقد كتب الكثير من الأدب الرديء عن الأسماء الأجنبية للريح وكان يحفظ

(١٣٤) تمتد أيام الصوم الكبير عند المسيحيين مدة أربعين يوماً ابتداء من أربعاء الرماد حتى أحد الفصح، وليس لهذا الصوم تاريخ ثابت في كل السنين [المترجم].

كثيرا من هذه الأسماء. كان السيد ويلر يكتب بخط يده لأنه لم يكن راغبا في إخراج الآلة الكاتبة من غطائها في ربح الصوم الكبير.

دخل خادم البيت الذي كان من لدات ابنه وأصدقائه عندما كانا يشبان معا وقال: «المكالمة إلى ستيقي بانتظارك».

«مرحبا، يا بابا»، قال ستيقي بصوت أجش. «أنا بخير يا بابا بخير حقا. لقد حان الوقت. لقد هزمت هذا الشيء الآن حقا. لا يمكنك أن تتصور. لقد بدأت أدرك الواقع الآن حقا. د. سمپسن؟ إنه بخير. أنا أثق به حقا. إنه رجل طيب يا بابا. إنني أثق به يا بابا. إنه أكثر واقعية وتواضعا من الآخرين. إنه يعطيني بعض العلاجات الإضافية. كيف حال الجميع؟ رائع. ما أخبار الطقس؟ رائع، هذا جميل. لا صعوبة في العلاجات. لا. لا على الإطلاق. كل شيء على ما يرام حقا. يسرني أن كل شيء عندك على ما يرام. لقد وجدت الحل هذه المرة حقا. حسن، علينا ألا نضيع فلوسنا على الهاتف. بلغ حبي للجميع. وداعا يا بابا. إلى اللقاء قريبا».

«يبلغك ستيقي تمنياته»، قلت لخادم البيت.

ابتسم ابتسامة رضا، وهو يستذكر الأيام الخوالي.

«هذا لطف منه. كيف حاله؟».

«بخير»، قلت له. «يقول إن كل شيء على ما يرام».

بلاد غريبة^(١٣٥) [١٩٨٧]

كانت البلدة التالية عبارة عن منشرة أخشاب كبيرة لها شارع واحد طويل تنتشر على جانبيه مبان قرميدية وخشبية بمحاذاة الطريق السريع. كانت مناشر الأخشاب قريبة من السكة الحديدية، وكان الخشب يكوم أكواما عالية بجانب السكة، وكانت حرارة الجو تعقب محملة برائحة نشارة السرو والصنوبر. بينما كان روجر يملأ السيارة بالبنزين، ويفقد الماء والزيت وهواء العجلات، كانت هيلينا تشتري شطائر الهامبورغر واللحم المشوي مع الصلصة الحارة في أحد مطاعم الغداء الصغيرة، ثم وضعتها في كيس ورقي بني وجاءت بها إلى السيارة. وفي كيس ورقي آخر، كانت تحمل الشراب.

بعد أن صارا على الطريق السريع ثانية، وخرجا من هجير البلدة، راحا يأكلان الشطائر ويشربان الشراب من زجاجات فتحتها الفتاة.

«لم أجد أيا من شراب زواجنا»، قالت له. «هذا هو النوع الوحيد الذي وجدته».

«إنها جيدة وباردة. ورائحة بعد الشواء».

(١٣٥) «بلاد غريبة» تشكل أربعة فصول من رواية لم تكتمل، وقد كتبها همنغواي على فترتين بين العامين ١٩٤٦ و١٩٤٧، ثم بين العامين ١٩٥٠ و١٩٥١، وتشكل هذه المشاهد المادة الأولية لنسخة مبكرة من رواية «جزر بحرية» التي نشرت بعد موت المؤلف العام ١٩٧٠، ويبدو أن همنغواي رمى هذه الفصول جانبا عندما راح منحى الرواية يتغير أثناء الكتابة. ونحن بدورنا نقدم للقارئ العربي مقتطفات من هذه القصة الطويلة [المترجم].

«قال الرجل إنها تشبه ريغل تقريبا . وقال إنني لن أتمكن من
تمييز الفرق بينها وبين ريغل» .
«إنها أفضل من ريغل» .
«إن لها اسما غربيا . وهو ليس اسما أمانيا . لكن اللصاقات
اهترأت من البلل» .
«ستجدينه على الأغطية» .
«لقد رميت الأغطية» .
«انتظري حتى نوغل غربا . لديهم شراب أفضل كلما أوغلت
غربا» .
«لا أظن أن لديهم خبز شطائر أو شواء أفضل من هذه .
أليست هذه رائعة؟» .
«إنها في غاية الروعة . والغريب أن هذه الناحية من البلاد
ليست مشهورة بجودة طعامها» .
«روجر، هل تمنع كثيرا لو نمتُ قليلا بعد الغداء؟ لن أنام إن
كنت تشعر بالنعاس» .
«سيسرني كثيرا إن نمت . أنا لا أشعر بالنعاس حقا . كنت
سأقول لك لو كنت كذلك» .
«لا تزال لديك زجاجة شراب أخرى . اللعنة ، لقد نسيت أن
أنظر إلى الغطاء» .
«لا بأس . فأنا أحب أن أشربها مجهولة» .
«لكن كان بإمكاننا أن نتذكر اسمها للمستقبل» .
«سنشتري غيرها» .
«روجر، ألا تمنع حقا إن نمت؟» .

«لا، يا جميلتي».

«يمكنني أن أظل مستيقظة إن شئت».

«أرجوك أن تنامي، وعندما تستيقظين ستشعرين بالوحدة،
فنستطيع أن نتحدث».

«تصبح على خير يا عزيزي روجر. شكرا جزيلا لك على
الرحلة والمشروبين والشطائر والشراب المجهول وعلى المرور بنهر
سواني وعلى الوجهة التي نقصدها».

«نامي يا صغيرتي».

«سأنام. أيقظني إن شئت».

نامت منكمشة على نفسها في المقعد العميق، بينما كان روجر
يقود السيارة، ويراقب الطريق العريض أمامه لئلا يرتطم بقطع
الأخشاب، يشق طريقه سريعا بين غابات الصنوبر، وحاول أن
يحافظ على سرعة سبعين ليرى كم ميلا سيقطع فوق الستين
على عداد السرعة في الساعة الواحدة. لم يسبق له أن سار على
هذا الجزء من الطريق السريع، لكنه كان يعرف هذا الجزء من
الولاية، وهو لا يسير عليه الآن إلا ليخلفه وراءه. عليك ألا تفوت
متعة الريف، لكنك لا تملك خيارا في الرحلات الطويلة.

إن الرتابة ترهقك، قال في نفسه. الرتابة وخلو المكان من
المنظر. هذا ريف يصلح لنزهة على الأقدام في الطقس البارد،
لكنه رتيب عندما تعبره بالسيارة.

لم يمض على عبوري به وقت طويل كي آلفه. لكن يجب أن
تكون لدي مرونة أكبر مما عندي الآن. لا أشعر بالنعاس. لقد
سئمت عياني على ما أظن وتعبتا. لكنني ما سئمت، قال في

نفسه. إنها عيناى فقط وطول العهد بعدم الجلوس طويلا. إنها لعبة أخرى وعلى أن أتعلمها من جديد. بعد غد تقريبا سنكون قد قطعنا مسافة كبيرة فلا تعود ترهقنا. لم أجلس بلا حراك منذ زمن.

مال إلى الأمام وأدار مفتاح المذياع حتى وجد محطة. لم تستيقظ هلينا فتركه مفتوحا ليمتزج مع خواطره وقيادته. ما أروع أن تكون نائمة بجانبى فى السيارة، قال فى نفسه. إن رفقتها جميلة حتى وهى نائمة. أنت محظوظ، قال لنفسه. إن نصيبك من الحظ أكبر مما تستحق. لقد ظننت أنك تعلمت شيئا عن الوحدة وقد عملت على ذلك حقا وتعلمت شيئا. لقد كدت تمسك بطرف شيء، لكنك انزلقت إلى الورا ورحت تجاري أولئك التافهين، مع أن تفاهتهم لم تبلغ تفاهة الشلة الأخرى، لكن تفاهتهم تكفى لأن تفارقهم. وقد يكونون أكثر تفاهة مما نظن. لكن المؤكد هو أنك كنت تافها برفقتهم. بعد ذلك عبرت تلك المرحلة وانسجمت مع توم والأولاد فأدركت أنك بلغت ذروة السعادة وأنه لم يعد ينتظرك سوى الشعور بالوحدة من جديد، بعد ذلك تأتي هذه الفتاة فتلج أبواب السعادة كأنها بلاد أنت أكبر المالكين فيها. السعادة هى هنغاريا ما قبل الحرب وأنت الكونت كارولوى^(١٣٦). قد لا تكون أكبر المالكين لكنك كنت تربي أكبر عدد من طيور التدرج، على أى حال. لا أعرف إن كانت تحب أن ترمي على هذه الطيور. قد تروق لها الفكرة. سيظل بإمكانى أن أرمي عليها. هذه الطيور لا تزعجنى. لم أسألها

(١٣٦) الكونت ميخائيل كارولوى (١٨٧٥ - ١٩٥٥): رجل دولة هنغارى [المترجم].

قط إن كانت تجيد الرماية. أمها رامية ماهرة عندما ينتشي رأسها. لم تكن امرأة شريرة في البداية. بل كانت امرأة رائعة جدا، ولطيفة تدخل البهجة إلى القلوب وتجلب المتعة وأعتقد أنها كانت تعني ما تقول لكل أولئك الناس. أنا فعلا أعتقد أنها تعني ما تقول. وقد يكون هنا منبع الخطر. على أي حال، كان لكلامها وقع يجعلك دائما تصدق ما تقوله. لكنني أفترض أنه في نهاية المطاف يصبح من المعيب اجتماعيا ألا تصدق أن أي زواج لا يكتمل حقا إلا بانتحار الزوج. فكل الأشياء التي تبدأ بداية سعيدة تنتهي نهاية عنيفة. لكنني أعتقد أن هذه هي دائما حكاية المخدرات. وأنا أعتقد أيضا أن بعض العناكب التي تلتهم شركاءها جذابة بشكل لافت. وهي، يا عزيزي، لم تكن أفضل إطلاقا، إطلاقا، إطلاقا. وهنري العزيز لم يكن سوى بون بوش^(١٣٧). كان هنري شخصا رائعا أيضا. أنت تدرك كم كنا نحبه جميعا.

لكن خطر له أنه لم يكن أحد من تلك العناكب يتعاطى الممنوعات. بالطبع هذا ما يجب أن أتذكره عن هذه الطفلة، تماما كما يجب عليك أن تتذكر السرعة المتعثرة لطيارة، أي أن أمها هي أمها.

هذا كله في غاية البساطة، قال في نفسه. لكنك تعلم أن أمك كانت فاجرة. ولكنك تعلم أيضا أنك فاجر بطرق تختلف تماما عن طرقها. لذلك لماذا تكون سرعتها المتعثرة مثل سرعة أمها؟ سرعتك أنت ليست مثلها.

(١٣٧) «بون بوش»: عبارة فرنسية تعني «شخص ذواق في الأكل» [المترجم].

لم يقل أحد إنها كذلك. سرعتها أقصد. ما قلته هو أنه عليك أن تتذكر أمها كما يجب أن تتذكر وهلم جرا.

هذه قذارة أيضا، قال في نفسه. فعندما تلح عليك الحاجة إليه لأي سبب من الأسباب، لديك هذه الفتاة الرائعة العاشقة، مجانا وطوع بنانك، هذه الفتاة التي تعيش في رأسها الأوهام عنك، هذه الفتاة التي بينما هي تنام في المقعد إلى جانبك، تشرع أنت في تدميرها وتبترأ منها من دون أدنى التزام بأصول صياح الديوك، لا مرتين ولا ثلاثا ولا حتى في المذئاع^(١٣٨).

أنت فاجر، قال في نفسه ونظر إلى الفتاة النائمة على المقعد إلى جانبه.

أظن أنك تشرع في تدميره خوفا من أن تضيعه، أو من أن يأخذ بمجامع قلبك، أو خوفا من كونه غير حقيقي، لكنه لا يحسن بك كثيرا أن تقدم على هذه الفعلة. أتمنى أن يكون عندك في يوم من الأيام شيء، غير أولادك، لم تدمره. والدة هذه الفتاة كانت ولا تزال فاجرة، وأمك كانت فاجرة. ومن المفروض أن يقربك هذا منها ويجعلك تفهمها. هذا لا يعني أن ذلك سيجعل منها امرأة فاجرة ولا منك شخصا حقيرا. هي تعتقد أنك شخص أفضل مما أنت وهذا قد يجعلك أفضل مما أنت. لقد صار لك الآن مدة وأنت شخص طيب وقد تستطيع أن تكون طيبا. فعلى حد علمي لم ترتكب عملا شريرا منذ تلك الليلة على رصيف الميناء مع ذلك المواطن وزوجته والكلب. لم تشرب. لم تؤذ أحدا.

(١٣٨) أي أن روجر يفكر في التبرؤ من هيلينا من دون سابق إنذار [المترجم].

من المؤسف أنك لم تعد تتنسب إلى الكنيسة إذ كان بإمكانك أن تدلي باعتراف جيد^(١٣٩).

إنها تراك الآن بوضعك الحالي وأنت شخص طيب منذ بضعة أسابيع، ومن الأرجح أنها تظن أنك كنت دائما هكذا وأن الناس كانوا يفترون عليك.

وأنت قادر بالفعل على البداية من جديد. نعم، تقدر حقا. أرجوك لا تكن سخيفا، قال جزء آخر منه^(١٤٠). أنت قادر حقا، قال لنفسه. يمكنك أن تكون طيبا كما تظنك هي وكما أنت حاليا. هناك شيء اسمه البداية من جديد وقد أعطيت فرصة ويمكنك أن تبدأ من جديد وستبدأ. هل لك أن تقطع كل تلك الوعود من جديد؟ نعم. إن دعت الحاجة إلى ذلك، فسأقطع كل تلك الوعود وسألتزم بها. كلها؟ وقد حنثت بها؟ أفحمه هذا السؤال. عليك ألا تراوغ قبل أن تبدأ. أجل، عليّ ألا أفعل. قل ما تستطيع فعله حقا كل يوم ثم افعله. كل يوم. افعل كل ما تستطيع يوميا، كل فعل على حدة والتزم لها ولنفسك بوعود كل يوم. هكذا يمكنني أن أبدأ من جديد، قال في نفسه، وأستقيم.

لقد أصبحت تتحدث عن الأخلاق على نحو مرعب، قال في نفسه. إن لم تتخذ الحذر، فستجعلها تمل منك. ومنذ متى وأنت لا تتحدث عن الأخلاق؟ في عدة أحيان. لا تخدع نفسك. حسن، في عدة أماكن إذن. لا تخدع نفسك.

(١٣٩) الاعتراف بالذنوب، حسب المعتقد الكاثوليكي، هو الخطوة الأولى في التكفير عنها [الترجم].

(١٤٠) المقصود بالجزء الآخر هو ضميره، وتأنيبات ضميره في الفقرات الثلاث التالية يشار إليها بخط تحتها [الترجم].

كما تشاء، أيها الضمير، قال له. كل ما أريده هو أن تعفيني من هذه النبوة الوعظية الكثيرة. اسمع ما أقوله لك، أيها الضمير يا صديقي القديم، أنا أعلم مدى فائدتك وأهميتك وأعلم أنه كان بإمكانك أن تجنبني كل تلك المتاعب التي وقعت فيها، لكن ألا يمكنك أن تترفق بي قليلاً؟ أنا أعلم أن الضمير يضع خطأ تحت كلامه، وأحياناً يتكلم بالبنط العريض جداً. أيها الضمير، كان بإمكانني أن أصغي إليك لو لم تحاول إخافتي، تماماً كما كان بإمكانني أن أبدي اهتماماً أكبر بالوصايا العشر لو لم يزعم أنها منقوشة على ألواح من حجر. أنت تعلم، أيها الضمير، أنه مضى زمن طويل لم نعد نخشى فيه من الرعد. أما البرق، فهو على عيني ورأسي. لكن الرعد لم يعد يثير إعجابنا كثيراً^(١٤١). أنا أحاول مساعدتك، يا ابن الفاجرة، قال ضميره.

كانت الفتاة لا تزال تغط في نومها عندما صعدا الهضبة المؤدية إلى تالاهاسي^(١٤٢). ربما ستستيقظ عندما نتوقف عند أول إشارة ضوئية، قال في نفسه. لكنها لم تفعل، فتابع مسيره عبر المدينة القديمة ثم انعطف نحو اليسار على الطريق ٣١٩ العابر للولايات واتجه جنوباً عبر الريف الحراجي الجميل الممتد باتجاه ساحل الخليج.

إن لديك ما يميزك، يا بني، قال في نفسه. لا تستطيعين أن تنامي أكثر من أي شخص عرفته في حياتي وتتمتعين بأفضل

(١٤١) جاء في التراث اليهودي - المسيحي أنه عندما أنزل الله وصاياه العشر على النبي موسى في جبل الطور على ألواح حجرية، ترافق ذلك مع البرق والرعد [المترجم].
(١٤٢) تقع مدينة تالاهاسي في الشمال الغربي من ولاية فلوريدا [المترجم].

شهية تتصل بقوام رأيته كقوامك فقط، بل لديك موهبة ربانية على الاستغناء عن قضاء الحاجة.

كانت غرفتهما في الطابق الرابع عشر ولم تكن باردة جدا. لكن مع تشغيل المراوح وفتح النوافذ أصبحت أفضل وعندما خرج خادم الفندق قالت له هيلينا: «لا تبتئس، يا عزيزي. أرجوك. إنها رائعة». «كنت أظن أن بإمكانني أن أجد لك غرفة مكيفة».

«لكن النوم في تلك الغرف أمر فظيع حقا. كالنوم في سرداب. لا بأس بهذه».

«كان بإمكاننا أن نجرب الفندقين الآخرين. لكنهم يعرفونني هناك».

«وسيعرفوننا هنا الآن. ما اسمك؟».

«السيد والسيدة روبرت هارس».

«هذا اسم رائع. علينا أن نحاول ألا ننساه. هل تريد أن تستحم أولا؟».

«لا. اذهبي أنت».

«حسن، لكنني سأستحم حماما حقيقيا».

«هيا استحمي. نامي في الحوض إن شئت».

«قد أفعل. هل نمت طوال اليوم؟».

«لقد كنت رائعة. وكانت الرحلة مملة في جزء منها أيضا».

«بل لا بأس بها. معظمها كان رائعا. لكن نيو أورلينز ليست كما

كنت أظن. هل كنت تعلم أنها منبسطة ورتيبة؟ لا أعرف ماذا كنت أتوقع. مارسيليا على ما أظن. ورؤية النهر»^(١٤٢).

(١٤٢) نيو أورلينز: مدينة كبيرة في الجنوب الشرقي من ولاية لويزيانا، والنهر المقصود هو نهر المسيسيبي [الترجم].

«إنها مكان نأكل فيه ونشرب فقط. وهذه الناحية من حولنا لا بأس بها ليلاً. بل إنها رائعة إلى حد ما».

«إذن لا نخرج حتى يحل الظلام. لا بأس في هذا المكان. بعضه رائع».

«سنفعل ذلك، وبعد ذلك نتابع طريقنا في صباح الغد».

«هذا معناه أنه ليس لدينا وقت إلا لوجبة واحدة»^(١٤٤).

«لا بأس بذلك. سنعود عندما يكون الطقس بارداً، عندها نستطيع أن نأكل بشهية. عزيزي، هذه أول خيبة أمل نلقاها. لذلك لا تدعها تكدر خاطرننا. سنتناول الشراب طويلاً ونتناول المشروبات ونأكل وجبة أغلى مرتين من طاقتنا».

«لتذهب نيو أورلينز الأفلام إلى الجحيم»، قال لها.

«نأكل أولاً. ألم تطلب وايت روك مع الثلج؟».

«أجل، هل تريد كاساً؟».

«لا. كنت أسأل من أجلك».

«سيأتي قريباً»، قال روجر. سمع طرقاً على الباب. «ها قد وصل. هيا باشري استحمامك».

«سأستمتع به أيما استمتاع»، قالت له. «لن يظهر مني فوق الماء سوى أنفي وأصابع قدمي وسأستحم بأبرد ماء لديهم».

أحضر خادم الفندق إبريق المكعبات الثلجية، وزجاجة الماء والصحف، ثم أخذ بقشيشه وخرج.

أعد روجر لنفسه مشروباً وجلس ليقراً. كان متعباً وطاب له أن يستلقي على السرير ويضع الوسادتين تحت رقبته ويقراً

(١٤٤) المتحدث في هذا السطر، كما في السطر الذي قبله، هو روجر، وهذه من عادات همنغواي [المترجم].

صحف الصباح والمساء. الأمور لا تجري على ما يرام في إسبانيا لكن معاملها لم تتضح بعد. قرأ كل الأخبار المتعلقة بإسبانيا في الصحف الثلاث، بعد ذلك قرأ برقيات الأخبار ثم الأخبار المحلية.

«هل أنت بخير، يا عزيزي؟». نادى عليه هلينا من الحمام.

«على أحسن ما يرام».

«هل أصبح لونك شديد السمرة؟».

«ليس بعد».

«هل تعلم أن الشاطئ الذي سبحنا فيه صباح هذا اليوم هو

أروع شاطئ رأيته في حياتي؟».

«لا أعرف كيف يمكنه أن يبلغ هذه الدرجة من البياض

والنعومة».

«عزيزي، هل أنت أسمر جدا، جدا؟».

«لماذا؟».

«لأنني أفكر فيك».

«لكن من المفروض أن يشفيك الماء البارد من هذا».

«واصل قراءتك»، قالت له. «أنت تقرأ، أليس كذلك؟».

«أجل».

«هل إسبانيا بخير؟».

«لا».

«يؤسفني هذا جدا. هل ساءت أمورها كثيرا؟».

«لا. ليس بعد. حقا».

«روجر؟».

«نعم».

«هل تحبني؟».

«أجل، يا بنيتي».

«عد إلى قراءتك الآن. سأفكر في ذلك هنا تحت الماء».

ظل روجر مستلقيا وراح ينصت إلى الضوضاء القادمة من الشارع وهو يقرأ الصحف ويشرب مشروبه. تكاد تكون هذه أفضل ساعات يومه. ففي مثل هذه الساعة كان دائما يذهب إلى المقهى وحده عندما كان يعيش في باريس، ليقرأ صحف المساء ويتناول مشروبه الفاتح للشهية. أما هذه البلدة فلا تشبه باريس ولا حتى أورلينز في شيء. حتى أورلينز لم تكن بلدة تهفو إليها القلوب. لكنها كانت بهيجة بما يكفي. وقد تكون صالحة للعيش أكثر من هذه البلدة. لكنه لم يكن على اطلاع على ضواحي هذه البلدة وكان يعلم أنه يجهل أمرها.

لقد كان دائما مغرما بنيو أورلينز، رغم معرفته القليلة بها، لكنها خبيت ظن كل من كان يؤمل منها كثيرا. ومما لا شك فيه أن الذهاب إليها لا يصلح في هذا الشهر.

كان أفضل وقت ذهب إليها فيه يوم ذهب ذات مرة في الشتاء مع آندي ومرة مع ديثد. لم يمر بنيو أورلينز عندما كان ذاهبا إلى الشمال مع آندي. مرا من جانبها بالسيارة في طريقهما إلى الشمال حتى بلغا بحيرة بونتشارتران وعبرا هاموند على الطرف الآخر للبحيرة إلى باتن روج على طريق جديد قيد الإنشاء لذلك اضطررا إلى سلوك كثير من الطرق الالتفافية ثم تابعا طريقهما شمالا عبر ولاية ميسيسيبي حتى بلغا الطرف الجنوبي للإعصار

القادم من الشمال. وفي طريق العودة جنوبا مرا بنيو أورلينز. لكن كان الطقس لا يزال باردا فاستمتعا بالطعام والشراب وبدأت لهما المدينة زاهية تضج بالحركة في البرد لا دبكة ولا رطبة، وكان آندي يدور على كل المحلات القديمة فاشترى سيفا بفلوس عيد الميلاد. كان يضع السيف في حجرة الأمتعة خلف المقعد في السيارة وفي الليل كان يأخذه معه في السرير.

وعندما مر بها برفقة ديثد كان ذلك في الشتاء حيث اتخذوا مقرا لهما في ذلك المطعم الذي عليه الآن أن يحاول إيجاد، ذلك المطعم غير السياحي. تذكر أنه كان في قبو وموائده وكراسيه من خشب الساج أو ربما جلسا على مقاعد بلا مساند للظهر. قد لا يكون كذلك بل كان مثل حلم ولم يعد يتذكر اسمه ولا موقعه بيد أنه يعتقد أنه كان في الاتجاه المعاكس لمطعم أنطوان على شارع يمتد شرقا وغربا، لا شمالا وجنوبا، وأنه بقي فيه هو وديثد مدة يومين. وربما اختلطت عليه الأمور فلم يعد يميز بينه وبين مكان آخر. لقد كان هناك مكان في ليون وآخر قريب من البارك مونسو وكانا دائما يختلطان في أحلامه. كانت هذه إحدى نتائج السكر عندما كنت شابا. كنت تتخيل أماكن يتبين لك لاحقا أنه لا وجود لها إطلاقا لكنها أفضل من أي مكان له وجود حقيقي. لقد أدرك أنه لم يأت إلى هذا المكان مع آندي.

«أنا خارجة»، قالت له.

«روجر، هل لا زلت تحبني؟».

«أجل، يا بنيتي».

«هل ستتغير مشاعرك بعد ذلك؟».

«لا»، قال لها كاذبا.

«أنا لا أتغير أبدا. إنما أشعر بالتحسن بعد ذلك. عليّ ألا أقول لك ذلك».

«بل قولني».

«لا. لن أبوح لك بالكثير. لكننا نقضي أوقاتا رائعة، أليس كذلك؟».

«أجل»، قال لها وهو صادق.

«نستطيع أن نخرج بعد أن نستحم».

«سأدخل الآن».

«ربما يجدر بنا أن نبقى هنا غدا. أود أن ألون أظافري وأغسل شعري. يمكنني أن أقوم بذلك بنفسني لكنك قد تفضل أن يتم ذلك بالطريقة المثلى. وهكذا يمكننا أن ننام حتى وقت متأخر ثم نقضي ما يتبقى من اليوم في المدينة ثم نغادر في صباح اليوم التالي».

«هذه فكرة سديدة».

«بدأت أحب نيو أورلينز الآن. وأنت؟».

«نيو أورلينز رائعة. لقد تغيرت كثيرا منذ وصولنا».

«سأدخل الآن. لن أتأخر أكثر من دقيقة. بعد ذلك يمكنك أن تستحم».

«لا أريد سوى حمام سريع».

بعد ذلك نزلا في المصعد. كان المصعد تشغله فتيات زنجيات وكن جميلات. كان المصعد يكتظ بأناس من الطابق الأعلى لذلك نزلوا في المصعد سريعا. جعله النزول في المصعد يشعر بخواء

داخلي على نحو لم يسبق له مثيل. كان يشعر بهلينا تلتصق به بسبب الزحام.

«إن جاء يوم لا تشعرين فيه بشيء عندما ترين سمكا طائرا يخرج من الماء أو عندما يهبط مصعد، فحري بك أن تسلمي أمرك لله».

«لا زلت أشعر به»، قالت له. «أهذا كل ما تسلم أمرك لله من أجله؟».

انفتح الباب فعبرا الردهة الرخامية التقليدية الطراز المزدحمة في هذه الساعة بأناس ينتظرون أناسا آخرين، وأناس ينتظرون للذهاب إلى العشاء، وأناس ينتظرون فقط، فقال لها روجر: «سيري أمامي ودعيني أراك».

«إلى أين أسير؟».

«سيري بخط مستقيم باتجاه باب المقهى المكيف».

لحق بها عند الباب.

«أنت جميلة. لك مشية رائعة ولو كنت هنا ورأيتك الآن لأول مرة لوقعت في غرامك».

«ولو رأيتك في آخر الغرفة لوقعت في غرامك».

«لو رأيتك لأول مرة لانقلب كل شيء داخلي واخترقني الألم حتى صدري».

«هكذا هو شعوري دائما».

«لا يمكن أن يكون هذا هو شعورك دائما».

«ربما لا يكون. لكنني هكذا أشعر معظم الأحيان».

«أليست نيو أورلينز مكانا رائعا، يا بنيتي؟».

«ألسنا محظوظين في مجيئنا إلى هنا؟».

كان الجو باردا في صالة المقهى الكبيرة البهيجة ذات السقف العالي والجدران المكسوة بألواح الخشب الداكن. جلست هيلينا بجانب روجر على الطاولة وقالت له، «انظر»، ثم أرته حبيبات القشعريرة الصغيرة على ذارعها المسمر، قالت له. «لكن السبب هذه المرة هو مكيف الهواء».

«إن الجو بارد حقا. لكنه رائع».

«ماذا سنشرب؟»

«هل يجب أن نقتصد؟».

«لنقتصد قليلا».

«إذن سأشرب الأفستنين»^(١٤٥).

«هل ترى أن أشرب؟».

«لماذا لا تجربينه؟ ألم تشربه من قبل؟».

«لا. بل كنت أنتظر لأشربه معك».

«لا تختلقي الأشياء».

«لا أختلقها. هذه هي الحقيقة».

«لا تبالغي في اختلاق الأشياء، يا بنيتي».

«لم أختلقها.. لكنني احتفظت بالأفستنين حتى هذه اللحظة.

حقا».

«هل لديك أي أفستنين حقيقي؟». سأل روجر النادل.

«لا يفترض بنا ذلك، لكن لدي بعض منه»، قال النادل.

«لديك كوفيّه پونتالييه الحقيقي ذو الدرجة الثامنة والستين؟»

(١٤٥) الأفستنين: شراب يصنع من عشبة بهذا الاسم [المترجم].

وليس تراغوفا؟».

«أجل، يا سيدي»، قال النادل. «لا أستطيع أن أحضر لك الزجاجة. لكنني سأضعه في زجاجة بيرنو عادية.»
«أستطيع أن أميزه»، قال روجر.
«أصدقك، يا سيدي»، قال النادل. «هل تريده قطرا أم ممزوجا بالثلج؟».

«بل قطرا صافيا. هل لديك صحيفات التقطير؟»
«طبعاً، يا سيدي».
«بلا سكر».

«ألا تريد السيدة بعض السكر، يا سيدي؟»
«لا. سندعها تجربه من دونه».
«حسن، يا سيدي».

قبل أن يغادر النادل تناول روجر يد هيلينا من تحت الطاولة.
«مرحباً، يا جميلتي».

«هذا رائع. ها نحن هنا ننتظر قدوم هذا السم الرائع القديم وسنتناول طعامنا في مكان فاخر»^(١٤٦).
«وبعد ذلك نذهب إلى الغرفة».

«هل تحبين الغرفة إلى هذه الدرجة؟»
«لم أحببها من قبل. لكنني أحبها الآن».
«لماذا لم تحببها من قبل؟».

«لا تدعنا نتحدث عن هذا الأمر».
«لن نفعل».

(١٤٦) المتحدث في هذا السطر، كما في السطر الذي قبله، هو روجر وليس هيلينا كما قد يتبادر إلى الذهن [المترجم].

«أنا لا أسألك عن كل واحدة وقعت في غرامها. ولا نريد أن نتحدث عن لندن، أليس كذلك؟».

«أجل، بل سنتحدث عنك وعن جمالك. هل تعلمين أنك لا تزالين تسيرين كالمهرة؟».

«قل لي، يا روجر، هل تسرك مشيتي فعلا؟».

«بل إن مشيتك تفسد القلب».

«كل ما أفعله هو أنني أمشي وكثفاي إلى الورا ورأسي إلى الأمام. أنا أعلم أن علي تعلم بعض الخدع».

«عندما تبدين بذلك المنظر، يا بنيتي، فلا توجد أي خدع. أنت جميلة إلى درجة أن مجرد النظر إليك يدخل السعادة إلى نفسي».

«أمل ألا يكون ذلك بشكل دائم».

«في النهار فقط»، قال لها. «اسمعي، يا بنيتي. ما أريدك أن تعرفيه عن الأفسنتين هو أنه يجب أن تتأوليه ببطء شديد. لن يكون طعمه قويا عندما يمزج بالماء، لكن عليك أن تصدقي أنه كذلك».

«أصدق. كريدو روجر»^(١٤٧).

«أمل ألا تغيري رأيك كما فعلت الليدي كارولان»^(١٤٨).

«لن أغيره إلا لسبب. ولكنك لا تشبهه إطلاقا».

(١٤٧) هنا تخاطبه هيلنا باللاتينية، ومعنى قولها: «أصدقك يا روجر» [الترجم].
(١٤٨) الإشارة هنا إلى كارولان أف برونزويك (١٧٦٨ - ١٨٢١) التي انفصلت عن زوجها جورج الرابع وهجرت إنجلترا العام ١٨١٤، لكنها عادت إليها بعد أن توج زوجها ملكا على إنجلترا العام ١٨٢٠ لتطالب بحقها في أن تكون الملكة. من الجدير ذكره في هذا المقام أن جورج الرابع كان متهنكا، وكارولان فاسقة زانية. وهذا ما تدركه هيلنا، لذلك ترفض في السطر التالي المقارنة بينهما [الترجم].

«ولا أريد أن أكون».

«لست مثله . حاول أحدهم في الجامعة أن يقنعني أنك مثله .
وقد كان قصده المديح على ما أظن لكنني انتابني غضب شديد
وتشاجرت مع أستاذ الأدب الإنجليزي . لقد جعلونا نقرأ أعمالك ،
كما تعلم . أقصد جعلوا الآخرين يقرأونها . أنا قرأتها جميعا .
ليس عندك منها الكثير ، يا روجر . ألا تعتقد أنه عليك أن تعمل
أكثر؟».

«لقد قررت الآن أن أعمل حالما نستقر غربا».

«إذن ربما يجدر بنا ألا نبقي هنا غدا . سأكون سعيدة جدا
عندما تعمل».

«أسعد مما أنت فيه الآن؟».

«أجل ، أسعد مما أنا فيه الآن» ، قالت له .

«سأعمل بجد . سترين».

«روجر ، هل تعتقد أنني لا أصلح لك؟ هل أجعلك تشرب أكثر
مما يجب؟».

«لا ، يا بنيتي».

«يسرني هذا جدا إن كان صحيحا لأنني أريد أن أصلح لك . أنا
أعلم أنها نقطة ضعف وسخافة لكنني أخلق لنفسني قصصا في
اليقظة ، وفي واحدة منها أنقذ حياتك أحيانا من الغرق وأحيانا
من أمام قطار وأحيانا في طائرة وأحيانا في الجبال . اضحك إن
شئت . وهناك قصة أخرى أدخل فيها إلى حياتك بعد أن سئمت
جميع النساء وخاب ظنك فيهن جميعا فتقع في هواي وأعتني
بك جيدا فتمر بعهد من الكتابة الرائعة . هذه قصة رائعة . اليوم

ونحن في السيارة رحلت أختلقها من جديد». «أنا على يقين بأنني رأيت هذه القصة في السينما أو قرأتها في مكان ما».

«أوه، أعرف ذلك. لقد رأيتها هناك أيضا. وأنا على يقين بأنني قرأتها أيضا. لكن ألا تعتقد أنها تحدث؟ ألا تعتقد أنني أصلح لك؟ ليس بطريقة مائعة أو بإنجاب طفل صغير لك ولكن أصلح لك بحيث تتمكن من الكتابة على نحو أفضل مما فعلت في حياتك وأدخل السعادة إلى قلبك؟».

«هذا يحدث في الأفلام. فلم لا نفعله نحن؟».

كان الأفستنتين قد جاء وكان الماء، الذي سكب روجر من إبريق صغير، يقطر من صحيفات الثلج المكسر الموضوعة على الكؤوس ويمتزج مع المشروب الصافي المائل إلى الصفرة فيحيله إلى لون حليبي متلألئ.

«جربي ذلك»، قال لها روجر عندما بلغ المشروب اللون الغائم المناسب.

«إنه غريب»، قالت الفتاة. «ويدفئ المعدة. إن له طعما كطعم الدواء».

«إنه فعلا دواء. دواء فعال جدا»^(١٤٩).

«لست في حاجة إلى دواء الآن»، قالت الفتاة. «لكنه مشروب جيد جدا. متى سنبدأ بالاقتصاد؟».

«في أي وقت. سأتناول ثلاث كؤوس. أنت خذي ما تشائين. لكن خذيها ببطء».

(١٤٩) في الحقيقة تستخدم عشبة الأفستنتين في مركبات أدوية الهضم والإدرار [الترجم].

«سأرى كيف هي حالي. لا أعرف عن هذا المشروب سوى أن له طعماً كطعم الدواء. روجر؟»

«نعم يا بنيتي».

بدأ يشعر كأن أتونا يشتعل في قعر معدته.

«روجر، ألا تعتقد أنه يمكنني حقاً أن أصلح لك كما في القصة التي اختلقتها؟»

«أعتقد أن كلا منا يصلح للآخر ومن أجله. لكنني لا أريد أن يكون ذلك قائماً على أساس من القصص. أعتقد أن قضية القصص لا تصلح».

«لكن ألا ترى أن هذا هو طبعي؟ فأنا مختلفة قصص وأعلم أنني رومانسية. لكن هذا هو طبعي. لو كنت عملية لما أتيت إلى بيميني قط».

لا أدري، قال روجر في نفسه. إن كان هذا ما تريدين فعله، فهذا في غاية العملية. وأنت لم تختلقي قصة حوله. أما جزؤه الآخر فقال: لا بد أنك تنزلق، أيها القدر، إن كان الأفسنتين يستطيع أن يظهر دناءتك بهذه السرعة. لكنه قال: «لا أعرف يا بنيتي. أعتقد أن قضية القصص خطيرة. في البداية تستطيعين أن تختلقي قصصاً عن شيء لا ضرر منه، مثلي، وبعد ذلك يمكن أن يعقبها كل ما هب ودب من القصص. قد تختلقين قصصاً رديئة».

«أنت لست شيئاً لا ضرر منه».

«بل أنا كذلك. أو القصص لا ضرر منها على الأقل. يمكن القول إنه لا ضرر من إنقاذي. لكن قد تبدئين بإنقاذي وبعد

ذلك قد تتحولين لإنقاذ العالم. وبعد ذلك قد تشريعين بإنقاذ نفسك».

«بودي أن أنقذ العالم. طالما تمنيت أن لو كان ذلك باستطاعتي. لكن هذا أمر جلل لا يحتمل اختلاق قصة عنه. لكنني أود أن أنقذك أولاً».

«بدأت أرتعب»، قال روجر.

كرع جرعة أخرى من الأفسنتين فشعر بالتحسن لكنه بات قلقاً.

«هل كنت دائماً تختلقين القصص؟».

«منذ أن بدأ وعيي يتفتح. لقد اختلقت قصصاً عنك مدة اثني عشر عاماً. لم أخبرك عنها جميعاً. عندي منها مئات».

«لماذا لا تكتبين بدلاً من اختلاق القصص؟».

«إنني أكتب. لكن ليس في الكتابة متعة تضاهي متعة اختلاق القصص، إضافة إلى كونها أصعب بكثير. ثم إنها لا تضاهيها جودة. أما التي أختلقها فهي رائعة».

«لكنك أنت دائماً البطلة في القصص التي تختلقينها؟».

«لا. ليس الأمر بهذه البساطة».

«على أي حال، لا تدعينا نقلق بهذا الشأن الآن». أخذ رشفة

أخرى من الأفسنتين ولاكها تحت لسانه.

«لم أقلق قط بشأنها»، قالت الفتاة. «ما كنت أبغيه دائماً هو

أنت وأنا الآن معك. وما أريده الآن هو أن تصبح كاتباً عظيماً».

«ربما يجدر بنا ألا نتوقف للعشاء»، قال لها. «كان القلق

لا يزال يأكله وقد صعد دفء الأفسنتين إلى رأسه الآن فلم

يأمنه هناك. قال لنفسه: ما الذي كنت تظنه سيحدث من دون أن تكون له عواقب؟ أي امرأة في الدنيا كنت تظن أنه يمكن أن يعول عليها كما يعول على سيارة بيويك جيدة مستعملة؟ أنت لم تعرف في حياتك سوى امرأتين يمكن التعويل عليهما وقد خسرتهما الاثنتين. ما الذي ستريده تلك الفتاة بعد ذلك؟ أما الجزء الآخر من عقله، فقال: مرحبا أيها الحقيير. مما لا شك فيه أن الأفسنتين أظهر حقيقتك باكرا هذه الليلة.

لذلك قال لها: «أما الآن، يا بنيتي، فدعينا نحاول أن يحسن كل منا إلى الآخر ويحبه» (أخرج الكلمة برغم أن الأفسنتين جعلها تستعصي على النطق) «وما إن نبلغ المكان الذي نقصده سأعمل بأقصى ما لدي من طاقة».

«هذا رائع»، قالت له. «ولا تمانع إن أخبرتك أنني كنت أختلق القصص».

«لا»، قال لها كاذبا. «إنها قصص جميلة جدا». وهذا صحيح.

«هل لي بجرعة أخرى؟».

«طبعاً». تمنى الآن لو أنهما لم يشرباه برغم أنه يكاد يكون أحب مشروب عنده في الدنيا. لكن كل ما وقع له تقريبا من أحداث سيئة حدثت وهو يشرب الأفسنتين، أحداث هو مسؤول عنها. اتضح له أنها تدرك أن هناك خطأ ما لذلك جاهد نفسه لكيلا يحدث هذا الخطأ.

«هل قلت شيئا يجب ألا أقوله؟».

«لا، يا بنيتي».

الجرعة الثانية دائما لها مذاق أفضل من الأولى لأن بعضا من الحليمات الذوقية تتخدر فلا تعود تشعر بمرارة الأفسنتين، وهكذا بدلا من أن تصبح الجرعة حلوة، أو حتى أكثر حلاوة، تصبح أقل مرارة فتستسيغها أجزاء من اللسان أكثر.

«إنه مشروب غريب ورائع. لكن كل ما فعله حتى الآن هو أنه يقودنا إلى حافة الخصام»، قالت الفتاة.

«أعلم هذا»، قال لها. «لذلك دعينا ننتهي منه».

«هل حدث هذا لأنك ظننتي طموحة؟».

«لست منزعجا من القصص».

«غير صحيح. لا يمكنني أن أكن لك كل هذا الحب ولا أعرف عندما تكون منزعجا».

«لست منزعجا»، قال لها كاذبا. «ولن أنزعج»، قال لها وهو عازم على ذلك. «لنتحدث عن شيء آخر».

«ما أروع أن نبلغ المكان الذي نقصده وتستطيع أن تعمل».

إنها معتوهة إلى حد ما، قال في نفسه. أم تراه المشروب يفعل بها هكذا؟ لكنه قال: «نعم، ما أروع ذلك اليوم. لكن، ألى تصابي بالملل؟».

«طبعاً لا».

«أنا لا أدخر جهدا عندما أعمل».

«وأنا سأعمل أيضا».

«سيكون هذا ممتعا»، قال لها. «مثل السيد والسيدة براوننغ. لم أر تلك المسرحية قط»^(١٥٠).

(١٥٠) الإشارة هنا إلى أشهر زواج أدبي في بريطانيا في القرن التاسع عشر بين الشاعر روبرت براوننغ (١٨١٢ - ١٨٨٩) والشاعرة إليزابيث بارت - براوننغ (١٨٠٦ - ١٨٦١)، أما المسرحية المقصودة فهي مسرحية The Barretts of Wimpole Street (١٩٣٠) للكاتب والمترجم الهولندي - البريطاني رودولف بيزير (١٨٧٨ - ١٩٤٢) [المترجم].

«روجر، هل من ضرورة للسخرية؟».

«لا أعرف». والآن تمالك نفسك، قال لنفسه. أن لك الآن أن تتمالك نفسك. كن طيبا الآن. «أنا أسخر من كل شيء»، قال لها. «أعتقد أن ذلك سيكون رائعا. ومن الأفضل لك أن عملي عندما أكون منشغلا بالكتابة».

«هل تمنع أن تقرأ قصصي من وقت إلى آخر؟».

«لا. بل سأحب ذلك».

«حقا؟».

«لا. بالطبع. سيكون ذلك من دواعي سعادتي. حقا».

«عندما تتناول هذا المشروب يجعلك تشعر أن باستطاعتك القيام بأي شيء»، قالت الفتاة. «أنا سعيدة لأنني لم أتناوله من قبل. هل تمنع لو تحدثنا عن الكتابة، يا روجر؟».

«لا وحق الجحيم».

«لماذا قلت - لا وحق الجحيم؟».

«لا أعرف»، قال لها. «دعينا نتحدث عن الكتابة. أنا أعني ذلك. ماذا عنها؟».

«لقد جعلتني أشعر كالبلاء. ليس واجبا عليك أن تعاملني معاملة الند أو الشريك. كل ما قصده هو أنني أود أن نتحدث عن الموضوع إن طاب لك ذلك».

«لنتحدث عنه. ماذا عنه؟».

راحت الفتاة تبكي، منتصبة الظهر وتتنظر إليه. لم تنتحب أو ترفع ناظرها عنه. ظلت تنظر إليه والدموع تنهمر على خديها وانتفخ فمها لكن من غير التواء أو انكسار.

«أرجوك، يا بنيتي»، قال لها. «أرجوك. دعينا نتحدث عن الكتابة أو أي شيء آخر ولن أكون عدوانيا».

عضت شفتها وقالت، «أعتقد أنني أردت أن نكون شريكين برغم أنني أنكرت ذلك».

أظن أن ذلك جزء مما تحلم به ولم لا يكون بحق الجحيم؟ تساءل روجر في نفسه. ما الداعي إلى جرح مشاعرها، أيها السافل؟ هيا سارع إلى الإحسان إليها قبل أن تجرحها.

«أريدك أن تعلم أنني لا أريد أن أكون شريكك فقط، بل في الفكر أيضا، وأن نتحدث عن الأشياء التي تهمنا».

«سنفعل»، قال لها. «سنفعل الآن. حدثيني، يا ابنة براشتن، حدثيني عن الكتابة يا حسنائي الغالية».

«ما أردت قوله هو أن هذا المشروب جعلني أشعر كما أشعر عندما أهم بالكتابة. وأنني قادرة على فعل أي شيء، وأن بإمكانني أن أخرج بكتابات رائعة. وعندما أكتب ليس فيما أكتب سوى الرتبة. وكلما حاولت الالتزام بالصدق فيما أكتب، زادت رتبته. وعندما لا تكون الكتابة صادقة، فهي سخيفة».

«أنا آسفة جدا لأنني بكيت»، قالت له. «هل فعلا أنت لا تمنع لو تحدثنا عن الكتابة؟».

«بالطبع لا».

«أريدك أن تعلم أن هذا واحد من الأشياء التي كنت أتطلع شوقا إليها».

أجل، وليس عندي شك في ذلك، قال في نفسه. ولم لا؟ وسنفعل ذلك. ربما سأستسيغه بمرور الوقت:

«ماذا عن الكتابة؟». سألها. «ماذا لديك غير ما قلته عن روعة البداية ورتابة النهاية؟».

«ألم تكن حالك هكذا في بداياتك؟».

«لا. كنت أشعر عندما بدأت أن بإمكانني أن أقوم بأي شيء وبينما أنا بصدد القيام به كنت أشعر كأنني أصنع العالم، وعندما كنت أقرأ ما كتبت أظنه من الجودة إلى حد أنني لا أصدق أنني أنا الذي كتبته. إذ لا بد أنني قرأته في مكان ما. في جريدة «ساترداي إيثنغ بوست» على الأرجح».

«ألم تفتر همتك قط؟».

«ليس في بداياتي. كنت أظن أنني أكتب أعظم قصص في الوجود بيد أن الناس ليس لديهم ما يكفي من الوعي لإدراك ذلك».

«هل كنت فعلا مغرورا إلى هذا الحد؟».

«بل أسوأ ربما. لكنني لم أكن أعتقد أنني مغرور، بل واثق فقط».

«إن كانت القصص التي قرأتها لك هي بواكير القصصية، فيحق لك أن تكون واثقا».

«لم تكن كذلك»، قال لها. «لقد ضاعت كل تلك البواكير القصصية الواثقة. أما التي قرأتها فقد كتبتها عندما فقدت ثقتي نهائيا».

«كيف ضاعت، يا روجر؟».

«إنها قصة فضيحة. سأرويها لك يوما ما».

«ألا ترويها لي الآن؟».

«أكره أن أفعل لأن مثل هذا الأمر حدث لأناس آخرين ولكتاب أفضل مني مما يجعل الأمر يبدو برمته ملفقا. ما كان من سبب لحدوث هذا الأمر ومع ذلك فقد وقع عدة مرات وقد ترك في نفسي جرحا لا يندمل. ليس هذا صحيحا. لقد اندمل الجرح ولم يبق منه سوى الأثر. أثر سميك جيد».

«أرجوك حدثني عنه. إن كان ما تبقى منه هو أثر الجرح وليس قشرته، فهو لا يؤلم، أليس كذلك؟».

«لا، يا بنيّتي. على أي حال، كنت أتبع منهجية صارمة في تلك الأيام وكنت أحفظ المخطوطات الأصلية في ملف من الكرتون، والنسخ الأصلية المطبوعة في ملف، والنسخ الكربونية في ملف. لكن يبدو أن منهجيتي تلك لم تكن باهرة إلى ذلك الحد. لا أعرف إن كان يمكن لي أن أنتهج نهجا سواها. أوه، اللعنة على هذه القصة».

«بل أخبرني».

«حسن، كنت أعمل في مؤتمر لوزان^(١٥١) وكانت العطلات مقبلة فقامت أم أندرو التي كانت فتاة رائعة وجميلة جدا ولطيفة _____».

«لم أشعر بالغيرة منها في يوم من الأيام»، قالت الفتاة. «كنت أغار من أم ديشد وتوم».

«يجب ألا تغاري من أي منهما. كانت الاثنتان رائعتين».

«كنت أغار من أم ديشد وتوم»، قالت هيلينا. «أما الآن فلا».

(١٥١) عقد مؤتمر لوزان العام ١٩٢٣ لتسوية النزاعات بين تركيا واليونان بعد انهيار الدولة العثمانية [المترجم].

«هذا من شدة بياضك»، قال روجر^(١٥٢). «قد يجدر بنا أن نرسل إليها برقية».

«أكمل القصة، أرجوك، ولا تتاكفني».

«حسن، أرادت أم آندي الآنفة الذكر أن تجلب لي أعمالتي لعلني أنجز شيئاً من العمل بينما نقضي العطلة معا. كانت تريد أن تجعل من ذلك مفاجأة لي. لم تذكر لي شيئاً عن ذلك قط في مراسلاتها وعندما التقيتها في لوزان لم أكن أعلم شيئاً عن الأمر. تأخرت يوماً واحداً عن الموعد وقد أبرقت لي بهذا الشأن. كل ما علمته هو أنها كانت تبكي عندما قابلتها وكانت تبكي مرة بعد أخرى وعندما سألتها عن السبب قالت إن الأمر فظيع لا تستطيع أن تخبرني عنه ثم تعاود البكاء من جديد. كانت تبكي كأن قلبها قد انفطر. هل من ضرورة لرواية القصة؟».

«أرجوك أخبرني».

«ظلت طوال ذلك الصباح ترفض أن تخبرني، ففكرت في أسوأ الاحتمالات التي يمكن أن تحدث وسألتها إن كانت قد حدثت. لكنها كانت تهز رأسها فقط. أسوأ شيء خطر ببالي هو أنها خانتني أو وقعت في غرام أحد غيري، وعندما سألتها هذا السؤال قالت: كيف تسأل مثل هذا السؤال؟ وراحت تبكي من جديد. شعرت بالارتياح لحظتها ثم أخبرتني أخيراً.

«كانت قد حزمت كل ملفات المخطوطات في حقيبة ملابس ثم تركتها مع بقية حقائبها الأخرى في مقطورة من الدرجة الأولى

(١٥٢) عادة يقال للمخاطب، من باب المديح والثناء: «هذا من لطفك»، أو «هذا من كرمك»، لكن روجر هنا يصوغ عبارته على هذا النوال من باب التندر والمناكفة، ومغزى قوله: «هذا يدل على نقاء سريرتك» [المترجم].

في قطار باريس-لوزان-ميلانو السريع في محطة ليون ونزلت إلى الرصيف لتشتري إحدى الصحف اللندنية وزجاجة من ماء إيثيان. ألا تذكرين محطة ليون وما فيها من طاولات تدفع باليد عليها صحف ومجلات ومياه معدنية وقوارير صغيرة من الشراب وشرائح لحم تتوسد شطائر من الخبز المشروح ذي النهايات الطويلة المدببة والملفوف بالورق وعربات دفع أخرى عليها وسائل وبطانيات للإيجار؟ على أي حال، عندما عادت إلى المقطورة حاملة جريدتها وزجاجة إيثيان كانت الحقيبة قد اختفت.

«فعلت كل ما في وسعها أن تفعله. أنت تعرفين الشرطة الفرنسية. كان أول شيء عليها أن تفعله هو أن تبرز بطاقة هويتها وأن تبرهن أنها ليست محتالة من الطراز العالمي وأنها لا تعاني هلوسات وأن عندها بالفعل مثل هذه الحقيبة أو إن كانت الأوراق ذات أهمية سياسية، ولا بد يا سيدتي من وجود نسخ منها. ظلت على هذه الحال طوال الليل واليوم التالي إلى أن جاء رجل من المباحث وفتش عن الحقيبة في الشقة ووجد مسدسًا لي وأصر على معرفة ما إن كان لدي رخصة صيد. أظن أن الظنون راحت تساور الشرطة حول وجوب السماح لها بالتوجه إلى لوزان وقالت إن رجل المباحث لحقها إلى القطار وظهر لها في المقطورة قبيل تحرك القطار وقال لها: هل تأكدت تمامًا يا سيدتي من أن جميع حقائبك لم يمسسها أحد الآن؟ وأنت لم تفقدي شيئًا آخر أو أي أوراق أخرى ذات أهمية؟» «وهكذا قلت لها: ولكن هوني عليك. إذ لا يمكن أن تكوني قد جلبت الأصل مع النسخ المطبوعة والنسخ الكربونية».

«ولكنني جلبتها»، قالت لي. «أنا أعلم أنني جلبتها يا روجر». وكانت صادقة. اكتشفت صدق ما قالت عندما توجهت إلى باريس لأرى. مازلت أذكر كيف صعدت الدرج وكيف فتحت باب الشقة بالمفتاح ثم سحبت المقبض النحاسي لزلافة القفل، وكيف استقبلتني رائحة الأو دو تافيل^(١٥٢) من المطبخ والغبار المتسلل عبر النوافذ إلى الطاولة في صالة الطعام، ثم توجهت إلى الخزانة في صالة الطعام التي أحتفظ فيها بأعمالي فوجدت أنها قد اختفت جميعا. كنت واثقا بأنني سأجدها وأنني سأجد بعض الملفات لأنني كنت أراها بجلاء في مخيلتي. لكنني لم أجد شيئا على الإطلاق: لا مشابك الورق التي كنت أضعها في علبة من الورق المقوى ولا أقلام الرصاص ولا المحيات ولا المبراة التي على شكل سمكة، ولا مغلفاتي التي طبعت عليها عنوان المرسل في الزاوية العليا إلى اليسار، ولا قسائم البريد الدولية التي ترسلها مع المخطوطات كي يعيدها إليك، وقد كنت أحتفظ بهذه في علبة فارسية صغيرة صقيلة في داخلها رسمة خلاعية. كل هذه اختفت. كلها حُزمت في حقيبة الملابس. حتى إصبع الشمع الأحمر الذي كنت أستخدمه لتصميغ الرسائل والطرود البريدية اختفى. وقفت ونظرت إلى الرسمة داخل العلبة الفارسية ولاحظت التضخيم الغريب للأجزاء المرسومة، الذي هو سمة دائمة للرسوم الخلاعية، ومازلت أذكر كم كرهت الخلاعة وما فيها من صور ورسوم وكتابات، وأنه بعد أن أعطاني

(١٥٢) يبدو أن همنغواي ارتكب خطأ مطبعيا، أو لعله الناشر الذي فعل، فالتسمية الصحيحة هي «أو دو جافيل» (ماء جافيل) وهو محلول كلوري يستخدم مادة منظفة ومعقمة [الترجم].

أحد أصدقائي هذه العلبة بعد عودته من بلاد فارس لم أنظر إلى داخلها المرسوم سوى مرة واحدة من باب المجاملة لصديقي، وأنتي بعد ذلك لم أستخدمها إلا لحفظ القسائم والطوابع البريدية وأنتي لم أنظر إلى الصور قط. شعرت كأن أنفاسي حبست عندما لم أجد ملفات المخطوطات الأصلية، ولا ملفات المخطوطات المطبوعة، ولا ملفات النسخ الكربونية. عندئذ أغلقت باب الخزانة بالمفتاح ودخلت الغرفة المجاورة، وكانت غرفة النوم، واستلقيت على السرير ثم وضعت وسادة بينرجلي وطوقت أخرى بذراعي وظللت هكذا بلا حراك. لم أضع وسادة بينرجلي من قبل ولا طوقت أخرى بذراعي لكنني كنت حينها في أمس الحاجة إليهما. أدركت أن كل ما كتبته في حياتي ولي به ثقة كبيرة قد اختفى. كنت قد أعدت كتابة هذه الأشياء مرة بعد مرة حتى صارت على نحو يرضيني، وأدركت أنه لم يعد في استطاعتي كتابتها من جديد لأنني متى كتبتها على النحو الأمثل نسيته نهائيا، وكلما قرأتها تعجبت منها وتساءلت كيف استطعت أن أنجزها.

«وهكذا بقيت مستلقيا بلا حراك، أتعزى بالوسادتين وقد بلغ اليأس مني مبلغا. لم أيأس يأسا حقيقيا من قبل ولا من بعد. كان جبيني يلتصق بالشال الفارسي الذي يغطي السرير الذي لم يكن سوى فرشاة ونوابض موضوعة على الأرض وكان غطاء السرير مفبرا أيضا وكنت أشتم رائحة الغبار، ولا جليس لي سوى يأس يأس ولا عزاء لي إلا من وسادتي.»

«ما الذي ضاع منك؟». سألتها الفتاة.

«إحدى عشرة قصة، ورواية، وبعض القصائد».

«يا لك من مسكين بائس، يا روجر».

«لا. لم أكن مسكينا إلى ذلك الحد لأنه كان في داخلي المزيد.

لا أقصد تلك. بل ما سيأتي. لكنني كنت في وضع يرثى لي. إذ

إنني، كما ترين، لم أصدق أنها يمكن أن تضيع. ليس كلها».

«وماذا فعلت؟».

«ليس ما هو عملي جدا. بقيت مستلقيا في مكاني مدة من

الوقت».

«هل بكيت؟».

«لا. فقد جفت منابع الدمع في داخلي كالغبار في المنزل. هل

عرفت اليأس يوما؟».

«طبعاً. في لندن. لكن كان في إمكاني أن أبكي».

«أنا آسف، يا بنيتي. لقد جرفني التفكير في هذا الأمر

ونسيت. أنا آسف جدا».

«وماذا فعلت؟».

«حسن، نهضت ونزلت الدرج وتحدثت مع البوابة فسألتي عن

المدام. كانت قلقة لأن الشرطة جاءت إلى الشقة وسألته بعض

الأسئلة لكنها ظلت لبقة. سألتها إن كنا قد وجدنا الحقيبة التي

سُرقت، فقلت لها لا، فقالت هذا حظ سيئ ومصيبة عظيمة،

وسألتي إن كانت حقاً جميع أعمالي فيها^(١٥٤). قلت لها نعم،

فقالت: كيف لا توجد منها نسخ؟ قلت لها إن النسخ كانت فيها

(١٥٤) يروي روجر في هذه الفقرة والفقرتين التاليتين جزءاً بسيطاً مما دار بينه وبين السيدة الفرنسية من هذا الحوار الطريف بالفرنسية والبقية بالإنجليزية [المترجم].

أيضا . ثم قالت: يا سلام، ولماذا تعمل النسخ إن كانت ستضيع مع الأصل؟ قلت لها إن المدام قد وضعتها في الحقيبة بالخطأ . إنها غلطة كبيرة، قالت لي . غلطة قاتلة . لكن بالتأكيد يستطيع السيد أن يتذكرها (الأعمال) . لا ، قلت لها . قالت: ولكن سيتعين على السيد أن يتذكرها . عليك أن تستعيدها من الذاكرة . صحيح، قلت لها، ولكن هذا مستحيل . لم أعد أتذكر منها شيئا . فقالت: ولكن عليك أن تبذل ما في وسعك . سأحاول، قلت لها . ولكن بلا طائل . ولكن ما الذي سيفعله السيد؟ سألتني . لقد عمل السيد هنا منذ ثلاث سنوات . لقد رأيت السيد يعمل في المقهى الذي عند الزاوية . ورأيت المسيو يعمل على الطاولة في صالة الطعام عندما كنت أحضر له بعض الحوائج . أنا أعلم أن السيد يعمل مثل الأطرش . ولكن ما العمل الآن؟ علي أن أبدأ من جديد، قلت لها . عندئذ راحت البوابة تبكي . طوقتها بذراعي وفاحت منها صنة العرق ورائحة الغبار وثيابها السوداء العتيقة وكانت رائحة شعرها زنخة، وراحت تبكي ورأسها على صدري . وهل ضاعت قصائد أيضا مع ما ضاع؟ سألتني . نعم، قلت لها . يا للتعاسة، قالت لي . ولكنك تستطيع بالتأكيد أن تستعيد هذه من ذاكرتك . سأجتهد في ذلك، قلت لها . اجتهد، قالت لي . اجتهد الليلة . سأفعل، قلت لها . أو سيد، قالت لي، المدام جميلة ولبقة وكلها لطف ورقة لكن خطأها خطأ فظيع . هل تشرب شيئا معي؟ طبعاً، قلت لها، فغادرت صدري وهي تتشج لكي تأتي بالزجاجة وكأسين صغيرتين . في صحة الأعمال الجديدة، قالت لي . في صحتها، قلت لها . هل سيصبح السيد عضوا في مجمع اللغة الفرنسية؟

لا، قلت لها. قالت: إذن، في مجمع اللغة الأمريكية. هل تفضل
الرم؟ عندي رم. لا، قلت لها. المارك جيد جدا. لا بأس، قالت.
كأس أخرى. ثم قالت، والآن اخرج من هنا واشرب، وما دامت
مارسيل لن تأتي لتنظيف الشقة، فحالما يأتي زوجي ليحل محلي
في هذا المسكن الوسخ سأصعد وأنظف لك الشقة لكي تنام فيها
الليلة. هل تريدني أن أشتري لك أي شيء؟ هل تريدني أن أعد
لك الإفطار؟ طلبت منها ذلك. بكل تأكيد، قالت. أعطني عشرة
فرنكات وسأتيك بالفكة. بودي أن أعد لك العشاء لكن يجدر بك
أن تتعشى في الخارج. حتى إن كان ذلك أكثر تكلفة. اذهب لرؤية
الأصدقاء وكلوا في أحد المطاعم. لولا زوجي، لأتيت معك.

«تعالى معي وتناولى كأسا من المشروب في مقهى الهواة الآن،
قلت لها. سنتناول مشروبا ساخنا. قالت، لا أستطيع أن أغادر
هذا القفص حتى يأتي زوجي. هيا، اذهب الآن. اترك لي المفتاح.
وستجد كل شيء مرتبا عندما تعود.

«كانت امرأة رائعة، وقد خففت عني لأنني أدركت أنه ليس
أمامي إلا خيار واحد: أن أبدأ من جديد. لكني لم أكن أعلم أن
ذلك في استطاعتي. بعض القصص تدور حول الملاكمة، وبعضها
حول البيسبول، والبقية حول سباق الخيول. كانت هذه الأشياء
أفضل ما عرفت وألصقها بي، وعدد منها كان عن الحرب الأولى.
عندما كتبت هذه القصص سكبت فيها كل مشاعري ومعارفي
عن هذه الأشياء وكل ما استطعت أن أعبر عنه وبقيت أعيد
كتابتها مرة بعد مرة حتى أفرغت كل ما في ذهني ووضعتة فيها.
ولأنني عملت في الصحف منذ بداية شبابي فأنا غير قادر على

تذكر أي شيء حالما انتهيت من كتابته؛ ففي كل يوم تجلو الكتابة ذاكرتي مما علق فيها تماما كما تمسحين السبورة بقطعة من الإسفنج أو خرقة مبللة. ولا تزال تلك العادة اللعينة تطاردني وقد لحقت بي الآن.

«لكن البوابة ورائحة البوابة ورؤيتها العملية وعزيمتها وضعت يدها على الجرح وعزمت على شيء أنجزه، شيء عملي، شيء ينفعني وإن كان لا يساعد فيما جرى للقصص. في هذه الأثناء، شابني شيء من السعادة لأن الرواية ضاعت، إذ بدأت أرى - كما ترين بجلاء فوق الماء عندما تنقشع عاصفة مطرية عن المحيط بفعل الريح التي تدفعها بعيدا - أن في وسعي أن أكتب رواية أفضل منها. لكنني افترقت القصص كما لو كانت مزيجا من بيتي ووظيفتي وبنديتي الوحيدة ومدخراتي القليلة وزوجتي، وكذلك افترقت قصائدي. لكن اليأس بدأ ينزاح ولم يبق لي سوى لوعة الفقد الذي ينتاب المرء بعد خسارة كبيرة. والالتياح صار جدا أيضا».

«لقد خبرت الالتياح أيضا»، قالت الفتاة.

«يا لك من صغيرة مسكينة»، قال لها. «الالتياح صار، لكنه لا يقتلك. بينما اليأس يقتلك خلال مدة وجيزة».

«حقا يقتلك؟»

«أظن ذلك»، قال لها.

«هل لنا بكأس أخرى؟». سألته. «هل ستروي لي البقية؟ فهذا الشيء هو ما كنت دائما أتساءل عنه».

«في إمكاننا أن نتناول كأسا أخرى»، قال روجر. «وسأروي لك

البقية إن كان ذلك لا يضجرك».

«يجب ألا تتحدث عن إضجاري، يا روجر».

«في بعض الأحيان، أسأّم من نفسي»، قال لها. «ولهذا فإن

إمكانية إضجاري لك بدت أمرا طبيعيا».

«أرجوك، جهز المشروب ثم أخبرني ما حدث».

المؤلف في سطور

روحيته همنغواي

- ولد سنة ١٨٩٩ في أولك بارك، في ولاية إلينوي الأمريكية.
- بعد تخرجه في المدرسة الثانوية، عمل متجلفاً لمدة ستة أشهر، قبل أن يلتحق بالجبهة الإيطالية بصفة مسافر سياحة إسفاف متطوع خلال الحرب العالمية الأولى. ثم حصل على وسام من الحكومة الإيطالية تقديراً لشجاعته.
- انتقل للمعيش في باريس سنة ١٩٢١، حيث انضم إلى مجموعة كتاب المهجر الأمريكيين من أمثال غيرترود شتاين وإزرا باوند. لكنه عاش أيضاً في ما بعد في كتي وست، في ولاية فلوريدا، وإسبانيا، وكوبا.
- بالإضافة إلى الحرب العالمية الأولى، شهد همنغواي أيضاً الحرب اليونانية - التركية، والحرب الأهلية الإسبانية، ثم الحرب العالمية الثانية. وقد استقى موضوعات عدد من قصصه ورواياته من هذه التجارب التي عاينها بمققة مراسل حربي.
- نشر عدداً كبيراً من الروايات والمجموعات القصصية، وله من ترجمة واحدة.
- نال جائزة بوليتسو، وهي أرفع جائزة أمريكية أدبية سنة ١٩٥٢، كما منحه الأكاديمية الأمريكية للآداب ميدالية الاستحقاق للرواية. وفي سنة ١٩٥٤ نال جائزة نوبل للآداب.
- كان أسلوبه في السرد الأدبي من نوع السهل الممتنع، حيث يترك شخصه يعيشون حياتهم ولا يقول عنهم شيئاً، بل يجعل أفعالهم هي التي تضي عن دواخلهم. وقد تأثر عدد كبير من الكتاب بهذا الأسلوب.
- تسرع أربع مرات، وكان يعيش المصيد بأنواعه والحياة البرية، ويحوى الملاكمة ومصارعة الثيران. لكنه في السنوات الأخيرة من حياته تكاثرت عليه الأمراض، فمات منتحراً سنة ١٩٦١.

المترجم في سطور

د. موسى الحاتول

- من مواليد ١٩٦٥، الرقة، الجمهورية العربية السورية.
- درس الأدب الإنجليزي في جامعة حلب، وتخرج فيها سنة ١٩٨٧.
- حصل على الماجستير والدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة بنسلفانيا الحكومية، الولايات المتحدة الأمريكية، وتخرج سنة ١٩٩٥.
- درس الأدب الإنجليزي في جامعة تشرين بسورية، ثم في جامعتي جرش والعلوم التطبيقية بالأردن. وهو الآن أستاذ مشارك في جامعة الطائف بالملكة العربية السعودية.
- نشر عددا من الكتب المترجمة عن الإنجليزية هي: «النبوة والرونيات: من الأدب الإسكندنافي»، «خفايا ما بعد الحداثة»، «هكذا تكلم الزائغ»، «حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم»، «حكايات إيسوب» (وهذا الأخير بالاشتراك مع سمر رزق).
- كما ترجم إلى الإنجليزية رواية فخري قموار، «عبر الطرشان»، وجزءا من رواية رشيد بوجدر، «لهليات امرأة أرق».
- له مجموعة قصائد وقصص قصيرة منشورة بالإنجليزية بعنوان: «قواعد جديدة للنظام العالمي الجديد»، وآخر إصداراته كتاب نقدي عن الأدب العربي بعنوان «العربية المندبة».

د. إسماعيل صافية

- من مواليد سورية ١٩٦١.
- حاصل على الإجازة الجامعية في اللغة الإنجليزية وآدابها، من جامعة دمشق العام ١٩٨٢.
- ماجستير في علم اللغة، وعلم اللغة التطبيقي من جامعة إلينوي - شامبي - بالولايات المتحدة الأمريكية العام ١٩٨٩، ودكتوراه في علم اللغة من الجامعة نفسها العام ١٩٩٢.
- يعمل أستاذًا مساعداً في اللغة الإنجليزية، بالجامعة العربية المفتوحة.
- ناشط ومهتم جدا بالبحث العلمي في اللغويات وطرق تدريس اللغة الإنجليزية كلفة أجنبية وكلفة ثانية.
- له عدد من الترجمات والمراجعات مع سلسلة «إبداعات عالمية»، ومجلة «الثقافة العالمية».

المراجع في سطور

إصدارات قادمة

النمر الأبيض

(رواية)

تأليف: أرفينر أديجا

ترجمة: د. طيبة صادق

مراجعة: د. زبيدة أشكناني

ها صدر من هذه السلسلة

تأليف : جلال آل أحمد	نون والقلم	318
تأليف : تشاندرا سيخار كامبار	سهرى سامبهجي	319
تأليف : جورج أورويل	أيام يورمية	320
تأليف : إيتالو كاليفينو	ست وصلها للألفية القادمة	321
تأليف : ت. س. إليوت	السكرتير الخصوصي	322
تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين	قصص برازيلية	323
تأليف : رولان بارت	شذرات من خطاب في العشق	324
تأليف : جيمز ماكبرايد	لون الماء	325
تأليف : أمريتا بريثام	وجهان لحواء	326
تأليف : أليخاندرو كوسونا	المنزل ذو الشرفات السبع	327
تأليف : مجموعة من القاصين الباكستانيين	من الأدب الباكستاني الحديث	328
تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك	مختارات من القصة التركية العاصرة	329
تأليف : بهرام بيضائي	مسرحية محكمة العدل في بلغ	330
تأليف : بنانا يوشيموتو	مطبوع - خيالات ضوء القمر	331
تأليف : جوتتر جراس	المطبخون الأشجار	332
تأليف : هاروتش هون كلايست	الجرة الكسورة	333
تأليف : اندريه شفيد	شمل تشابه ضائع	333
تأليف : فلاديمير هلباتش	حكايات الهلود الأمريكيين وأساطيرهم	334
تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين	زهرة السيف	335
تأليف : ليويولد سيدار سنغور	طام - طام زنجي	336
تأليف : نيكولو ماكيافلي	البيروح	337
تأليف : جوهر مراد	منزل التور	338
تأليف : تشنوا تشيبي	كثبان الرمل في السافانا	339
تأليف : أرتور شنييتسر	أناقول وجنون العقلة	340
تأليف : إيفان بونين	غرام ميتيا	341
تأليف : فيمي أوسو هيسان	أرنجنندن والحارس الليلي	342
تأليف : تنغ - هسنغ يي	ورقة في الرياح القارسة	343
تأليف : إيريش كستتر	مدرسة الدكتاتور	344
تيد هيووز	رسائل عيد الميلاد	345
تأليف : سليمان جيفو ديوب	حكايات وخرافات أفريقية (1)	346
	المفعل الملك	
تأليف : فريدريش شيلر	مسرحية عذراء أوريان	347
تأليف : سليمان جيفو ديوب	حكايات وخرافات أفريقية (2)	348

ها صدر من هذه السلسلة

349	الأنفال والسهول العشبية تمكي القصة القصيرة الإسبانية الأمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالإسبانية
350	مصر حيتاء - 1 مخلة الأخ جبرو 2- تمول الأخ جبرو	تأليف: وول سوينكا
351	روى الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: لو هنري
352	مسرحية: التيجون	تأليف: بي. برونست
353	أجمل حكايات الزن	تأليف: هنري برونل
354	يتبعها فن الهياكو مسرحية «المقبي»	تأليف: لاوشه
355	مصر حيتاء - 1 مناعة تاريخ 2- ترجمات	تأليف: بريان فرييل
356	رواية: الشباب	تأليف: ج. م. كويتنزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مصر حيتاء - 1 تلاميذ الخوف 2- القزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي أرم (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
360	جامل الإكبول (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	المسورة (مسرحية)	تأليف: سلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لبرونل (رواية)	تأليف: تحسين بوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من هولندا)	تأليف: إيرينوش إيرينيسكي الد جي ماليشكا
364	سبع نساء... سبع قصص	ستانيسلاف ليم (ستانيسلاف) سلافومير مروجيك
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: توبيل كايود
367	مسرحيتاء - 1 سيرة في المقبي 2- موت ممثلي مشهور	تأليف: زوسين دايخيد غولمالوس شاليكو
368	امرأة وحيدة تفرغ فرخزاد وأشعارها سيرة حياة	تأليف: تيان هان

ها مدر من هذه السلسلة

369	الملاح، (مسرحة من الأدب البولندي)	تأليف: ييجي شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمدو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها شوروي	تأليف: جيروم لورنس
	السجن (مسرحية)	ورويرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الأيرلندي	تأليف: مجموعة من الشعراء الأيرلنديين
375	المقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	المقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	الأسيرة، (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيك علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيك علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لآرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: آرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لآرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: آرنست همنغواي

قسمة الاشتراك

البيان		إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
		د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت		٢٠	-	١٢	-	١٢	-	٢٥	-
الأفراد داخل الكويت		١٠	-	٦	-	٦	-	١٥	-
المؤسسات في دول الخليج العربي		٢٤	-	١٦	-	١٦	-	٣٠	-
الأفراد في دول الخليج العربي		١٢	-	٨	-	٨	-	١٧	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى		-	٥٠	-	٣٠	-	٢٠	-	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى		-	٢٥	-	١٥	-	١٠	-	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي		-	١٠٠	-	٥٠	-	٤٠	-	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي		-	٥٠	-	٢٥	-	٢٠	-	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك تجديد اشتراك

الاسم،
العنوان،
اسم المطبوعة،
مدة الاشتراك،
المبلغ المرسل،
نقدًا / شيك رقم،
التوقيع،
التاريخ: / / ٢٠٠٢ م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك الحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي،

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

اسماء وكلاء التوزيع

الدولة	وكيل التوزيع الحالي	العنوان	تليفون	فاكس
الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	الشيخ - الحرة - قسيمة 34 - الكويت - الشيخ - ص ب 64185 - الرمز البريدي 70452	24826820/1/2 24613872 /3	24826823
الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubai Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	00971 242629273	00971 42660337
السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	المملكة العربية السعودية - الرياض - حي المؤتمرات - طريق مكة المكرمة - ص ب 62116، الرمز البريدي 11585	00966 (01) 2128000	00966 (01) 2121766
سورية	المؤسسة العربية السورية لتوزيع الطبوعات	سورية - دمشق - البرانكة	00963 112127797	00963 112128664
مصر	مؤسسة دار أخبار اليوم	جمهورية مصر العربية - القاهرة - 6 شارع الصحافة - ص ب 372	00202 25782700- 25782632	00202 25782632
المغرب	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب - الرباط - ص ب 13683 - زنقة سجلماسة - بلقدير - ص ب 13008	00212 522249200	00212 522249214
تونس	الشركة التونسية للمصحافة	تونس - ص ب 719 - 3 نهج المغرب - تونس 1000	00216 71322499	00216 71323004
لبنان	مؤسسة نفنوع الصحفية للتوزيع	لبنان - بيروت - خندق الفميق - شارع سعد - بناية فواز	00961 1666314/5 01 653259	00961 1653260
اليمن	القائد للنشر والتوزيع	الجمهورية اليمنية - صنعاء	00967 2/3201901	00967 1240883
الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	عمان - تلال الملي - بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	00962 65300170 - 65358855	00962 65337733
البحرين	مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف	البحرين - النامة - ص ب 10324	00973 17 480801	00973 17 480819
سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	ص ب 473 - مسقط - الرمز البريدي 130 - العذبية - سلطنة عُمان	00968 24492936	24493200 00968
قطر	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر - الدوحة - ص ب 3488	00974 4557809/10/11	00974 44557819
فلسطين	شركة رام الله للنشر والتوزيع	رام الله - عين مصباح - ص ب 1314	00970 22980800	00970 22964133
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان - الخرطوم - الرياض - ش المشتل - المقار رقم 52 - مربع 11	002491 83242702	002491 83242703
الجزائر	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	Cite des preres FARAD. lot N09. Constantine. Algeria	00213 (0) 31909590	00213 (0) 31909328
العراق	شركة الازدهار للتوزيع	Al Izdihar (alizdihar__co@yahoo.com)	-	-
نيويورك	Media Marketing	Long Island City. NY 11101 - 3258	00718 4725488	00718 4725493
لندن	Universal Press	Universal Press & Marketing Limitd	(0) 0044 2087499828 0044208 7423344	44208 7493904

سلسلة إبداعات عالمية

«إبداعات عالمية» سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وكانت في السابق تصدر - شهريا - عن وزارة الإعلام تحت اسم سلسلة «من المسرح العالمي» حتى بعد انضمامها إلى المجلس الوطني العام ١٩٩٤، وكانت تعنى بنشر المسرحيات العالمية فقط. وقد صدر العدد الأول من سلسلة «من المسرح العالمي» في أكتوبر ١٩٦٩، تحت عنوان مسرحية «سمك عسير الهضم»، تأليف: مانويل جاليتش، وبعد تغيير مسماها إلى سلسلة «إبداعات عالمية» العام ١٩٩٨، أصبحت تعنى بنشر الترجمات الإبداعية الراقية من لغات مختلفة، وتطلق أهداف السلسلة (إبداعات عالمية) من فلسفتها في نشر الوعي الثقافي القائم على التراث الإنساني، من خلال نشر وتقديم ترجمات رصينة من الآداب العالمية، من روايات وقصص قصيرة ودواوين شعر ومسرحيات... وغيرها، من لغاتها الأصلية، بهدف تزويد المكتبة العربية بآثار هذه الثقافات المختلفة.

وترحب السلسلة باقتراحات النشر والترجمة المقدمة من المتخصصين، على أن تكون وفق الشروط التالية:

١ - أن تكون المادة المقترحة ترجمتها مميزة في المستوى الفكري والأدبي الرفيع، ولم يسبق نشرها في أي مكان آخر.

٢ - يجب ألا يزيد حجم المادة على ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدواه.

٣ - يجب تقديم النص الأدبي المقترح نشره، أو ترجمته مع الكتاب في لغته الأصلية، ويرسل مطبوعاً على الآلة الكاتبة مع وضع نسخة من النص المترجم في ديسك أو CD، مع تدوين أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة.

٤ - السلسلة غير مسؤولة عن إعادة الكتب الأجنبية والنصوص الأصلية أو المترجمة التي لا يتم قبولها.

٥ - المواد المقدمة للنشر أو الترجمة تخضع للتحكيم العلمي على نحو سري من قبل هيئة تحرير السلسلة، ويجري إرجاع النصوص إلى أصحابها لإجراء التعديلات أو الإضافات اللازمة عليها قبل نشرها، كما يجب ألا تحتوي النصوص على عبارات منافية للدين أو الأخلاق. وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع المترجم للنشر تصرف مكافأة للمترجم بمعدل ٢٠ فلساً عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي.

وفي جميع الحالات ينبغي إرسال سيرة ذاتية وافية (C.V) للمترجم، تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه الأدبي السابق، وعنوان المراسلة التقليدي والإلكتروني، واسمه الثلاثي باللغة الإنجليزية حسب جواز سفره، بالإضافة إلى كتابة اسم البنك الذي يتعامل معه ورقم حسابه الذي ستحول المكافأة عليه.



المجلس
الوطني
للقulture
والفنون
والآداب

المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)

في هذا العدد من سلسلة «إبداعات عالمية» نقدم للقارئ الكريم الجزء الثالث والأخير من المجموعة القصصية الكاملة للكاتب والروائي الإنجليزي الشهير إرنست همنغواي.

فهذا العدد الذي بين أيدينا يحتوي تقريبا على ١٨ قصة قصيرة مختلفة في زمن ومكان وقوعها.

ولقد استمد الكاتب همنغواي أغلب موضوعات قصصه من تجاربه الشخصية وأسفاره وقراءاته، مما أدى إلى تنوع الأزمنة والأمكنة في القصص إضافة إلى اختلاف اللغات أحيانا.

كما غلب الطابع الدرامي على قصصه وطفى الحوار على السرد فيها. كما نلاحظ اختلاف وتنوع الشخصيات والأبطال، فهم ليسوا أبطالاً تقليديين، بل هم أناس عاديون فيهم من المحاسن والمميزات، وفيهم من العيوب الشخصية والفكرية ما فيهم.

وفي النهاية نتمنى أن نكون قد وفقنا في نقل قصص وأدب الكاتب الشهير إرنست همنغواي للقارئ العربي بالصورة التي تليق به وبإنجاحه وشهرته.